
صبحي موسى
أساطير
رجل الثلاثاء
رواية
سلسلة
كتابات
جديدة
09

أساطير رجل الثلاثاء

رواية

موسى، صبحى.
أساطير رجل الثلاثاء: رواية/ صبحى موسى. ـ
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢.
٢٩٢ص؛ ٢٠سم.
تدمك ١ ٢٠٢ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص العربية.
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٣٤٠٤/ ٢٠١٣

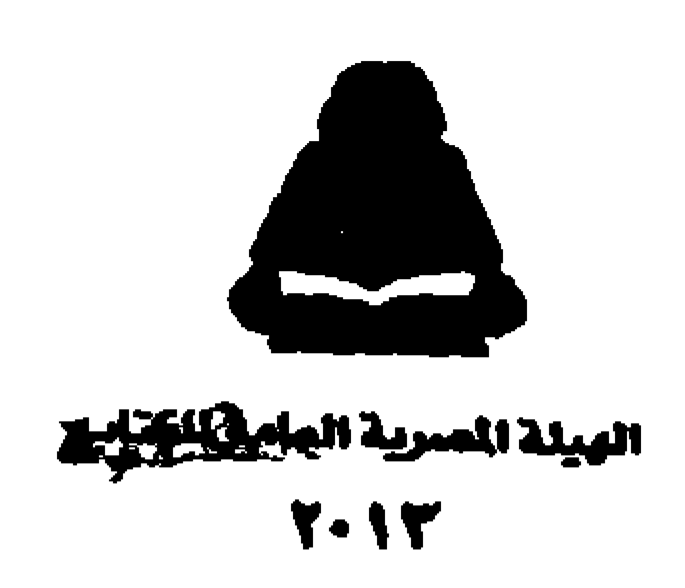
I. S. B. N 978 - 977 - 448 -202 - 1

ديوى ٨١٣

أساطير رجل الثلاثاء

رواية

صبحي موسى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٣

طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www.gebo.gov.eg
E-mail: info@gebo.gov.eg

(١)

خريف ١٩٧٧

توقف قطار المترو أمام المحطة التى كان من المنتظر أن أجد فيها أبا سعيد، كان الموعد قد ضُرب بيننا منذ عدة أسابيع، وقد حفظته عن ظهر قلب ولم أبح به لأحد كما طلب منى، لا أعرف بالضبط ما المهمة التى ترك باريس من أجلها منذ عام ونصف، لكنه فجأة جاء إلى مكتبى فى لندن قائلا إنه سيرحل فى جولة طويلة لا يعرف متى ستنتهى، فوجئت بالخبر ولم أعرف بم أرد عليه، فمنذ تعودت الذهاب إلى مسجد الصحابة على حدود باريس وأنا أعتبره منقذى من الضلال، رويت له الكثير عنى وعن عمارة وأمى وإخوتى وطريقة حياتنا وغربتى الدائمة فى عالم لا أشعر فيه بذاتى، روى لى بدوره الكثير عن نفسه وغربته وفراره الدائم

وعلاقته السرية بأبى وحلمهما بعالم إسلامى موحد ترفرف عليه راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، كانت له طريقة مبهرة فى الحكى والنصح، لا أكذب حين أقول إننى أُخذت منذ اللحظة الأولى بعالم هذا الرجل الفذ البسيط الدمث شديد الذكاء والفراسة، فأدمنت التردد على مسجد الصحابة منذ أخذ بيدى وألقى السلام على الشيوخ الجالسين أمام المحراب، قال: هذا أبو عبد الرحمن جاء لصلاة العشاء معنا. وشعرت من ابتساماتهم الهادئة أنهم كانوا ينتظرون مجيئى، لمح الدهشة على وجهى فخطفنى قائلًا: هذا أبو عتبة شيخ المسجد، وهذا الشيخ عبد القادر من تونس دائم السفر فتعرَّف عليه قبل أن يختفي. كان رجلًا طويل اللحية ضئيل البنية يكاد يتلاشى لولا عيناه دائمتا الزوغان فى المكان كأنهما تبحثان عن شيء خفى، وبدت أسماء الشيوخ قديمة مركبة كأبى حفص، وأبى ذر، وأبى عبد الله، وأبى العباس، ولا أعرف ما الذى دفعه لتلقيبى بأبى عبد الرحمن رغم أن ولدى اسمه عبد الله. صلينا العشاء وجلست أنصت للحديث الذى يعقبها من أبى عتبة، كان يومها يفسر الآيات العشر التى نزلت فى حق السيدة عائشة، ولما كان بالمسجد ركن للنساء فقد أخذ يوضح لهن سلوك المرأة المؤمنة فى الزى والحركة، ولما كانت الآيات السابقة على حادثة الإفك تعرض لحد الزنا فقد ربط بين الآيات والحادث قائلا: إن الله اختار أحب الزوجات إلى قلب رسوله كى يكون المثل واضحًا وعامًا،

فلا أحد يسلم من الشبهات، ولا أحد سينزل فيه قرآن يبرئه بعد رسول الله، ونحن فى زمن القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر...

حين انتهى الدرس أسرعت إلى أصحابى المنتظرين فى المطعم، بادرونى أين كنت؟ فقلت: أبحث عن تذكار أشتريه من المكان، تباروا جميعًا فى الإعلان عن أفضل مكان لشراء التذكارات فذهبنا إليه. ولم تمر أيام حتى وجدتنى أصلى فى مسجد الصحابة من جديد، وجدتنى لا أعلم من أمر دينى الكثير، فرحت أغرق فى القراءة وشراء الكتب، لا أخرج من بيتى إلا للصلاة أو ملاقاة أبى سعيد، فأهملت دراستى وعملى واعتكفت على ما أنا شارع فيه، كنت كلما ازددت معرفة شعرت أننى أقل علمًا، وصار اتهامى لنفسى بالجهل أكبر، حتى فوجئت بأبى سعيد على رأسى، قال: عزمت على رؤيتك قبل السفر فذهبت إلى مكتبك فقالوا إنك لا تجيء، وهاتفك لا يجيب، فقررت المجيء إلى هنا. أوضحت له الأمر كما أشعر، فالمكان مليء بالخطايا، ولى تاريخ أود الهرب منه، ولن يمنعنى سوى الله والعزلة. قال: ودراستك؟ قلت: لا حاجة لى بها؟ قال: الإسلام أمرنا بالعلم، قلت: وها أنا أعلم نفسي. قال: أمور الدين وحدها لا تكفي. راوغته فسألته عن نفسه ولمَ لمْ يعد يأتى إلى المسجد، قال إنه يجهز للسفر منذ أسابيع، سأذهب إلى الأردن ومنها إلى فلسطين أو مصر. تعجبت من رحلته المفاجئة إلى الشرق، فقال: السادات يريد

أن يبيع انتصاره، ونحن نريد أن نمنعه، والله من فوق كل أمر.
ودعته وعدت إلى ما كنت فيه .

لم يأت أبو سعيد فى القطار الذى حدده، ولا القطارات التى تليه، فجلست منتظرًا خمس ساعات على رصيف المحطة أحدق فى كل متحرك وساكن، ولما أعيانى التعب عدت إلى البيت، كنت أحتاج الرجل لكن ها هو، فى الوقت الذى أحتاج إليه فيه لا يجيء.. رسبت فى دراستى، وعلاقتى بأمى وخالى زادت توترًا، يطالباننى بالعودة وأنا منشغل بغير ما يقولون. جددت مسجد الصحابة وقمت بتوسعته بعد عدة اتصالات عبر القنصلية مع الحكومة الفرنسية، كانت التجديدات هدية منى لهؤلاء القابضين على الجمر، لكن خالى بهاء رأى ذلك إسرافًا لا معنى له. قلت: إن أبى كان يفعل ذلك وماله يزيد. قال: أين أنت من أبيك؟! حتى دراستك لا تعرف كيف تنتهى منها، وزوجتك هجرتها ولا تراها.. هل هكذا قال الإسلام؟ كانت كلماته موجعة فاتصلت بأمى لأعرف أخبارها، لكنها كانت أكثر غضبًا منه. قالت: زوجتك تتطاول على، ولو كنتَ موجودًا لوضعتَ حدًا لها. قلت: ابنة أخيك وأنت التى اخترتها! قالت: حتى أحتويك من الضياع فى المدن الغريبة لكننى أسأت الاختيار. هدأت من روعها بأننى سأعود، حين وضعت الهاتف وجدته يرن من جديد، جاءنى صوت أبى سعيد دافئًا كما الطيور التى تعود إلى أعشاشها، فرحتُ به كما يفرح الغريق بطوق النجاة.

قلت: أحتاجك. قال: إنى فى الطريق. جلستُ أنتظره كل هذه الأيام، وكل هذه القطارات لكنه لم يأت.. هل أصبح الرجل لا يفى بالعهود ولا يأتى حين يحتاجه محبوه. أوقفت السيارة أمام المنزل وصعدت إلى شقتى، بادرنى الخادم بأن رجلًا عربيًا ينتظرنى منذ ساعات. حين التفتُّ وجدته فى بذلة كاملة كسفير لدولة لا أعرفها، رحبتُ به واعتذر بدوره عن تغيير الموعد إذ ثمة من يلاحقه. حكيت له عن أخبارى فنصحنى بالعودة وطاعة والدتى، وأمرنى بترك البلاد والانتظام فى الدراسة لأن الأيام القادمة عصيبة وتحمل ما لا نعرفه، فى نهاية اللقاء طلب مبلغًا من المال لم يحدده، قال: اجعل الشيك باسم ميخائيل بولس أنطونيادس ولا تغلقه، نزعت ورقة من دفتر الشيكات وقعت عليها ولم أحدد المبلغ، فى المساء اتصلت أمى تلح فى عودتى نهائيًا، قلت: أنتظر نهاية العام حتى لا يضيع كسابقيه. قالت: لا يهم فقد رتبت لك الأمر فى جامعة الملك. قلت: أصدقائى والمكتب وشراء حاجيات لزوجتى وابني. قالت: لو لم تصل غدًا فلن ترى وجهى مدى الحياة.

* * *

(٢)

خريف ١٩٧٧

تنسم الشيخ رائحة الهواء الطرى فحمل مصحفه وسجادة صلاته وتوجه نحو باب الكهف، جلس أمامه وأخذ يحرك مسبحته ووجهه فى السماء، لاح فى ذهنه شيء فمسح عبرة همت بالنزول على وجنته، وقال: رحم الله أبا سعيد كان صاحب هذه الأوقات، فحين تضع الشمس رحلها ويظهر فى السماء ضوء أول نجم يترك لقدميه الطريق، فهما تعرفان كل حصاة ونتوء فيه، وعينه لا تنشغل إلا بضوء نجمه الذى يريده وإن لم يظهر، فقد علمته الصحراء والسنون أماكن النجوم ومساراتها، علمته كيف يحفظ صفحة السماء كخطوط يديه. داعبته ذات مرة قائلًا: هل أحببت؟ فابتسم وهمَّ بقراءة القرآن. كان يعرف ما أرمى إليه، فكل الذين جاءوا إلى الجبال تحدثوا لبعضهم فى ساعات الصفاء عن حبيبات

تعلقوا بهن فى الصبا، لكننى لم أسمعه مرة يتحدث عن امرأة فى حياته، حتى الصبية التى تزوجها منذ شهور، لم يذكر شيئًا عنها، رغم أننى سمعت من الرجال أنها لم تكمل العشرين، جاءت مع والديها من لبنان إلى بيشاور، حين علم أبوها برغبة الرجل فى الزواج أعلن على الفور أن له ابنة تسمع به وتكاد تعشقه رغم أنها لم تره مطلقًا، ذهب لرؤيتها فتعلق بها قائلا إنها الفتاة التى رآها فى منامه منذ أيام. أتم الزواج فى اليوم التالى وتركها مع أمها وإخوتها الأصغر وجاء ليكمل جهاده على قمم الجبال وفى باطن الكهوف، يومها نظر لى نظرة ذات معنى ثم أخذ فى الترتيل كما لو كان داود يقرأ مزاميره على الطير والغيم والجبال، رحمه الله.. كان واحدًا من الباحثين عن الشهادة، ترك الدنيا خلفه وجاء يطلبها فى هذه الكهوف والمغارات، لكنه ما من مكان طلبها فيه حتى فر الموت من أمامه وانقلب على أعدائه، كان يكفيه أن يظهر بمكان حتى يرتاع منه كل شيء، عشرات الصواريخ ومئات القذائف صوبت عليه، جميعها كانت تختار أن تضرب رؤوسها فى الصخر ولا تقترب منه. كان سمْحًا لا يترك صلاة تمر دون أن يصليها على وقتها، فى معركته الأخيرة لمح انتصاف انزواء الشمس عن كبد السماء فصرخ: صلاة العصر يا أبا عبد الرحمن. كان الروس قد حاصرونا من كل جانب، وكانت طائراتهم ومدرعاتهم تصب علينا النيران بغلظة لا مثيل لها، فقلت:

- أية صلاة يا أبا سعيد؟ أما ترى ما نحن فيه؟

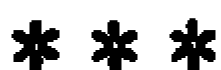
- مرحى يا أبا عبد الرحمن، أو لا تريد الجنة يا رجل؟

- أريدها لكن هل نهرب من قدر الله؟

- نعم نهرب من قدر الله إلى الله نفسه.

حط رحله على الأرض وكبر فكبرت خلفه، هى ساعة من نهار كنت ألمح فيها الطائرات تحوم عن قرب منا، وأصحابنا يولون الفرار إلى بطون الجبال ومغاراتها، ساعة انكشف فيها كل شيء عن نفسه وصرنا عراة أمام جيش حافل من الطائرات والصواريخ، بينما أبو سعيد يتلو سورة الأنفال كاملة، ولا أعلم حتى الآن لمَ قرأها جهرًا رغم أننا كنا نصلى العصر، كان جبلا لا يتزحزح ولا تثنيه الخطوب. حين انتهى صافحته وهممت أن أحمل سلاحى لأنظر فى أمر الرجال، فجذبنى من يدى وراح يدعو الله وأنا أؤمن خلفه، وما إن انتهينا حتى وجدت عاصفة تحمل الرمال والحصى وتصفع كل شيء، كانت تدور على الأرض كأنها تكنسها ثم تعلو كعمود يصعد إلى السماء، تلك التى ما لبثت إلا أن تزاحمت بسحب سوداء وسيل غزير، فلم يتمالك الملاحدة أنفسهم، راحت مجنزراتهم وطائراتهم تولى الأدبار، بينما رجالنا عادوا من الشقوق بوابل نيران يصبونه على كل شيء، فحصدنا من الروس مئات المئات، وكبدناهم ما لم يخسروه من قبل، يومها أراد قائدهم إيفانوف أن يعاند الريح والسيل ويكر علينا

كمقامر يراهن بكل شيء، أتى بطائرات من أمامنا وخلفنا وبدا لا يلقى بالاً بمدافعنا الفقيرة، ظل يصوب علينا وأبو سعيد يصرخ كمن يكلم أناسًا لا نراهم "إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم"، فما كان من الرجال إلا أن وقفوا ساعة من ساعات القادسية أو اليرموك، كان يصرخ فى الطائرات من على قمة الجبل: تعالوا إلى ميعاد بينى وبينكم. ثم يقذف بالقذيفة لا يدرى ما الله صانع بها، غير أن كتل اللهب تزداد وتتناثر فى الهواء، فصعدنا خلفه نطلق قذائفنا ونكبر، وما إن تخرج من مكامنها حتى يبعث الله من يوجهها فتسقط ما تسقط، وصوت الرجل يدوى "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"، فتدوى السماء والأرض من بعده باللهب، حتى أسمينا اليوم يوم الجحيم وأسمينا المعركة موقعة اللهب، لكننا حين انتهت المعركة بحثنا عنه فلم نجده، ولما أعيانا التعب مسحنا دموعنا وعدنا إلى كهوفنا قائلين "ويأبى الله إلا أن يتم نوره".



(٣)

لم يكن والدى قاطع طريق، ولم يحترف هذه المهنة إلا بعد أن خلع نفسه من قبيلته، ولم تكن جريمته نكراء، فكل خطيئته أنه تمسك بابنة عمه الميمونة التى خطبها له والده قبل وفاته، لكنها ما إن اكتملت أنوثتها حتى سمع بها الجميع، ووصل خبرها لابن زعيم القبيلة الذى يتزوج بالأربعة فى ليلة ويطلقهن جميعًا فى ليلة، وكانت عطية المهر أعظم مما يحلم به رجل مثل عمه، فسوف يصبح ذا نوق وغنم ومراعٍ كثيرة، ربما سيكون ذلك إلى حين.. "لا يهم، فربما استطاعت الميمونة أن تنجب طفلا وتصبح واحدة من سيدات القبيلة"، هكذا قال لنفسه، لكن الخطأ الذى ارتكبه أبى أفسد على الجميع خططهم، فقد صعد الجبل متجهًا إلى صنعاء، شاكيًا للإمام حامى الضعفاء ومذل الشيوخ بما لديه من رهائن، هناك التقى بواحد من العلماء الأشراف مساعدى الإمام،

فحدثه عن الميمونة وجمالها وأدبها وطمع شيخ القبيلة وجشعه، فقرر العالم الجليل أن يفض الإشكال الذى دب بين بعض رعاياه، لكنه حين رأى الميمونة قرر أن يرفع الأمر إلى الإمام ليحكم فيه بنفسه. كانت الميمونة فتنة فى الرابعة عشرة من عمرها، ولمحمد وعد من والدها، فقد تربى فى بيتهم بعد موت أبيه الذى خطبها له فى الصغر، لكن الوصايا والعهود ضاعت أمام ثقل الثروة القادمة من جهة، ورهبة زعيم القبيلة من جهة أخرى، وها هما الآن يتنازعان عليها أمام الإمام.

سكت الإمام كثيرًا، واستمع أكثر، ثم أشار بطرف يده إلى أحد مساعديه فغاب فى جنح الظلام الذى يلف القصر، حين عاد وجدوا الرجال قد أحاطوا بهم ووضعوا على أعناقهم السيوف، قال الإمام: ليس أمامكم سوى أن تصغوا إلى الحق. ثم وزع التركة بمساواة تامة، فميمونة أخذها لتضاف إلى جواريه المائتين والتسعين، وحصل والدها على نسب الإمام ولا شيء أكثر، أما زعيم القبيلة وابنه فقد حصلوا على امتياز الرعى فى أرض جديدة، لكن الجميع انتبه فجأة لوجود والدى فصمتوا جميعًا وتحدث الإمام: "اسمع يا محمد؛ عندى لك شغلة إن فعلتها زين عدت إلى قبيلتك وصرت فينا مبارك، وإن ما فعلت تبقى طريد ولا نريد نرى لك وجه". لم يكن العمل الذى ينتظره سوى أن يظل طيلة النهار والليل على مسالك الصحراء منتظرًا الأجانب ذوى العيون الزرقاء

والبشرة الثلجية كى يدلهم على الطريق إلى مساعدى الإمام، ويحصل منهم على طعامه وشرابه ودراهم يتركونها من أجله، وإن لم يأتوا فعليه أن يأكل الرمل والحصى دون أن يبرح مكانه. وذات مساء نسى الجميع أمره، فقد قامت الحرب الكبرى فى البلاد البعيدة وما عاد الأجانب يعبرون الطريق، وما عادت الميمونة ولا والدها يذكرانه، أما الإمام ومساعدوه وشيوخ قبائلهم فما كان لهم أن يذكروا سوى أنفسهم وثرواتهم التى تتراكم، وما عاد أمامه غير انتظار الأشباح بالأسابيع كى تمده بقربة ماء أو كسرة خبز، إلى أن قرر التسلل إلى مضارب قبيلة قريبة للحصول على بعض الطعام والماء، كان عليه أن ينتظر ساعة القيلولة كى يصل إلى أحد آبارها دون أن يراه أحد. حين ألقى بالدلو فى البئر خرجت عليه فتاة تقارب الميمونة فى حسنها وسنها، شعر بمدى ضعفه، وكم هو مخدوع ومغلوب على أمره؛ فميمونته فى أحضان الإمام وهو يموت من الجوع والعطش والقيظ. غلبته نفسه فبكى، ورقت الصبية للشبح المتهالك أمامها، ففكت نطاقها ووضعت خبزها وقالت: كُلْ. بعدها شعر أنه متعب ويحتاج إلى النوم، فنسى أمر الفتاة والقبيلة وتمدَّد أمام الخيمة الوحيدة فى كل هذه الصحراء، ولا يعرف كيف استيقظ على صوت صبية يضربون الفتاة، فانتفض يصرفهم عنها، حين رجموه بالحجارة انقض على أحدهم فصفعه، وفر الصبية يصرخون فى الرجال على البعد، كانت هذه لحظة تحوله إلى شبح يظهر وقتما يشاء ويختفى متى يريد.

حين كلٌّ من المطاردة قرر أن يخلع أمر الإمام عن نفسه ويبحث عن مسالك وطرق جديدة تؤمن له الحياة، ولأنه ليس مسموحًا له بالتعامل مع أهل هذه الأماكن من الأجانب والمهربين فقد قرر أن يمارس الهواية التى نشأت لديه فى الإغارة للحصول على ما يريد، تعلم كيف تكون له كهوفه ومخابئه الخاصة، وأدرك أنه لا بد أن يكون للإغارة قانون وحرمات، فوضع هذه القوانين: لا غارة على صبى أو فتاة، لا بد من نجدة الملهوف حتى ولو كان فى ألد الأعداء، الماء والزاد مشاع للجميع، قتْل النفس آخر الأشياء، الثأر من رجال الإمام هدف أسمى للحياة، والقول بألوهيته ـ الإمام ـ حرام شرعًا، ومن قال بذلك عن طيب نفس يقتل فورًا ولو كان من أعز الرجال، البحث عن أهل وعشيرة جديدة بين هؤلاء المنفيين على مسالك الطرق.

فى أسابيعه الأولى ظل يبحث عن كهف أو مغارة تليق بما يمكن أن يسميه حياته الجديدة، ظل لا يمكث فى مكان أكثر من يومين حتى كاد يجوب اليمن السعيد بأسره، وفى النهاية قادته خطاه إلى أعلى قمة جبل الشعيب. هناك وجد تفريعة بين صدرين، قال سآوى إليها الليلة ويفرجها الله فى الغد بمكان أكثر سعة ويسرًا. حين كاد يقترب من القمة وجد أعيرة نارية تنطلق عليه، التصق بظهر صخرة زلِقة وشعر أنها النهاية، لم تكن معه سوى عدة طلقات لو أهدرها فقد أعلن

عن نفسه وأعلن العداء على الآخرين، قال لا بد من الحيلة للنجاة. وظل يعاند الصخر حتى حرك قطعة منه، مكن نفسه فى الظلمة ورفعها نحو شفر الجبل ثم صرخ مُلقيًا بها، فالتبس الأمر على طالبيه، فمنهم من قال إنه مات متدحرجًا، ومنهم من ظل يخالجه الظن بأن هذا صوت ارتطام صخر بصخر، ولما لم يُحدث صوتًا بعدها عادوا إلى أماكنهم يلوكون القات من جديد. يومها قرر ألا يعود إلى المسالك وألا تضيع الفرصة من يده، فلا بد أن هؤلاء لديهم مغنم أو هاربون من شيء، فإما أن يغنم مثلهم وإما أن يجعلهم رجالا له، فأخذ يزحف بجسده على ظهر الجبل حتى صعد قمته وركب الصدرين، فتبين له أن ثمة مخبأ أسفل صخرة عظيمة معلقة، وثمة رجال أمامها وبداخلها، لكنه لا يعرف عددهم، لم تسيطر عليه فكرة القتل، فكيف يقتل رجاله، هكذا طغت الزعامة على رأسه حتى نام فى مكانه من التعب، حين استيقظ كانت الشمس قد كادت تتعامد على الدنيا وتفلق الصخر، دله الجوع على النزول، فعمر مدفعه برصاصاته القليلة وأتى بقفزة لم يكن يتصور أنها ستكون بهذه البراعة، وجد نفسه واقفًا أمام الكهف ولا أحد، دخل شاهرًا سلاحه لكن لا شيء سوى الزاد والقات والبن، أكل وتمطى ونام، حين استيقظ وجد سبعة من الرجال يركلونه بأقدامهم فضحك، وكلما اشتد غيظهم وركلهم كان يضحك، حين رفعوا أسلحتهم

وقرروا قتله سألوه عن سبب ضحكه فقال: لم أجد أناسًا يركلون رسول الله إليهم مثلما فعلتم. فما كان من الجميع إلا أن خرّوا من الضحك.

* * *

(٤)

خريف ١٩٧٤

لم يكن هذا أول نزولى عاصمة الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس، فقد زرتها مع إخوتى مرات عديدة، لكنها المرة الأولى التى أجيئها بشكل عملى، ليس للتجارة مثلهم ولكن للعلم؛ فقد أصرت أمى أن أتعلم فى المدينة صاحبة الطقوس الملكية، ولكى تضمن أننى سأتعلم فحسب فقد أصرت على تزويجى من ابنة خالى، ولم تكن لى فرصة الرفض أو القبول، ليس لأننى غير قادر على ذلك، ولكن لأننى لا أستطيع أن أتركها وهى غير راضية عني. تزوجت ومكثت مع عروسى عدة أشهر ثم ودعت المملكة والجميع وجئت إلى المدينة التى تعطيك كل شيء وتسلب منك حتى نفسك، لم أكن راغبًا فى أكثر من هذا، فأطياف المحبين الذين هِمتُ بهم يمكننى أن

أراها فى البارات والصالات والعرى المنتشر بطول البلاد وعرضها، يمكننى القبض على بشار وعمر بن أبى ربيعة وعمارة بن الوليد والمنخل اليشكرى وغيرهم، فوضعت حقائبى ورفعت هاتفى على عدد من الأصدقاء والصديقات الذين كونتهم فى زياراتى الخاطفة: أنا الآن متاح يا آل بريطانيا.. أنا الآن مقيم معكم إلى مدى لا يعرفه إلا الله، فهلموا إلي. لم تمض ساعة حتى امتلأ البيت بالضجيج والرقص، ألقيت بنفسى فى أحضانهم وقلت أريد أن أعيش، أريد أن ألتقى بالمحبين من كل صنف وزمن جميعهم يعرفون ما عليهم فعلُه، والشيء الوحيد الذى أفعله هو التوقيع على الورق.

فى اليوم الأول خرجنا للرهان على الخيل، أعرف الخيول من صغرى، وأعشقها كما أعشق النسوة، أكاد أقول إننى أشمها مثلما يشم العاشق ريح عشيقته عن بعد، وأعلم أيها أكثر جَلدًا، وأيها لا يمكنه أن يخسر، ربما كنت الوحيد - من بين ستة وأربعين ولدًا - الذى ورث محبة الخيل عن أبيه، فدائمًا لا أخطئ فى علاقتى بها، ودائمًا تستجيب لرغبتى ولو تمنيتها سرًا، ونادرًا ما أخسر فى رهان، كان الجميع يقولون إن المال يجلب المال، لم يسألوا أنفسهم فى بيت من تربيت، ومن ذاك الثرى الذى ترك لأولاده شركات ومصانع وأموالا بلا حصر، لا أحد منهم يعرف اليَمنى الذى تربى على ظهور الجياد وإبل القبيلة، وقضى شطرًا من حياته يطارد

الوقت وخصوصًا لا يعرفونه ولا يعرفهم، ولا منقذ له فى بطون الجبال ووديانها إلا علاقته بجياده، كان يختار أصعبها وأشدها شكيمة لتكون مطيته، ويفرح فرح العاشق بلقاء حبيبته إذا وجد حصانًا من هذا النوع، فيدفع كل ما يملك كى يكون ملكًا له، ويغضب كمن قتل له ولد إذا جُرح أى منها، ما من مكان نزله إلا ابتنى فيه مكانًا لإقامتها، كثيرًا ما رأيته يعطى سائسه دروسًا فى طرائق ترويضها، وكثيرًا ما شرح لى السائس العجوز كيف أعرف الجواد الأصيل من نظرات عينيه وتشريح جسده وعلاقته بفارسه، وكأنه كان يثبت لوالدى أنه خبير مثله، فكيف بالله أخطئ فى معرفة الجواد القادر على الفوز من غيره؟! لم أكن أخبر أحدًا بذلك، وأتركهم فى أحاديثهم عن الثراء والحظ، جميعهم كانوا يروننى مقامرًا قادمًا من القرون البعيدة، مقامر يضرب الصحراء والتيه ليل نهار من أجل غزالة أو أرنب دون أن يعرف إلى أين ستقوده الطرق، يقطع آلاف الأميال فى الفيافى كى يعود ليحكى عن الأهوال والوحوش التى حاربها من أجل عيون امرأة جميلة. فى صغرى كانت أمى تقرأ لى قصص الفرسان المحبين، القصة الوحيدة التى تمنيت أن أعيشها كانت لعمارة بن الوليد مع محظية النجاشى، لكن قصته كانت دائمًا تنتهى بقبض النجاشى عليه ونفخ السحرة فى إحليله، ليهيم على وجهه فى البرية وحيدًا مشردًا لا يقترب من أحد.

فى الصباح كانت كلية الاقتصاد وإدارة الأعمال التى أصرت أمى على دراستى فيها، وفى المساء كانت النوادى الليلية بما فيها من رهان متاح وغير متاح، وبين هذا وذاك كنت عمارة الباحث عن نفسه فى كل ما هو معجز وغريب وإن قتلته آلاف الجنيات على أرض الحبشة، وفى أيام العطلات لا يكون سوى الخيل، وحدها الخيل بكل شكل وطريق، فمنذ الصغر لم تستطع أمى التى تفزع أشد ما تفزع من قفز الحواجز أن تبعدنى عنها، كثيرًا ما صرخت فى وجه أبى أنه السبب فى تعلقى بها، وكثيرًا ما كان يضحك قائلا: يا عزيزتى... علِّموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل، أم أن بيروت لم تعلمك سوى عرى الحمامات وسهرات الليل. أذكر أن جوادى تعثر ذات مرة فى الحاجز فسقطت وانكسرت ذراعى، كنا فى لبنان يومها، فاتصلت به وهى على وشك الجنون تأمره أن يأتى ليرى جريرة فعله، فحطت طائرته بعد ساعتين فى بيروت، وحين علم أن ذراعى فقط التى كسرت رأيته أسدًا يعنفها وهى تبكى، ثم هددها بالطلاق لو اتصلت به من أجل شيء تافه كهذا. بالطبع لم تتصل ولم يطلقها لأن طائرته بعد عدة شهور اصطدمت بقمة جبل فتحطمت ولم ينج منها أحد.

الرقص مع البنات أجمل ما يحمل لى الليل فى عباءته السوداء، ليس أبى مصدر هذه المتعة، ولا حتى أمى التى كانت

ترغب دائمًا أن ترانى وسيمًا جميلا أجذب نظر الجميع، فترسلنى إلى أشهر مصففى الشعر، ومصممى الأزياء، لكنها الخادمة الماليزية التى أوكلت أمى أمر استحمامى اليومى إليها، ما زلت أتذكر نعومة يديها وهى تدعك جسدى، امرأة خبيرة بطرق التعامل مع الرجال، على يديها تعلمت ما لم يتعلمه امرؤ القيس، تعلمت كيف أكون أجمل من عمر بن أبى ربيعة، كيف أخاطب الجميلات الصغيرات، وكيف أخطف ود صديقات أمى، كانت تدعكنى بالزيوت والبرفانات فى حمام البخار حتى أصبح ملاكًا يمشى على قدمين فى ثياب بيضاء، لكن كل هذا ما كان يروق لأب يعى الرجولة بمعنى مختلف، فأوصى بى سائسه وخادمًا هنديًا كى يقتلانى فى تدريبات السباحة وركوب الخيل، قال لهما: لا أريد أنثى فى ثياب طفل، ولكن صقرًا يلعب على ظهور الخيل. ويبدو أنهما كانا يتعاملان مع أوامره على أنها رسالة نزلت من السماء.

فى العاصمة الملكية لم يكن هناك التزام بشيء، فكل ما يعن لى أفعله، وكل ما يزينه أصدقائى أراه جميلًا، حتى صرت جوادًا جموحًا لا حد لرغباته، وكأننى كنت أود الهرب من نفسى، أود أن أصبح شخصًا لا أعرفه لكنه يشبه أبى وأمى وعمارة والمنخِّل وكل من سمعت عنهم فى القصص، كنت فى نهاية الليل أقود العربة كرمح انطلق من قوسه، حتى يقتلنى التعب فأرتمى على سريرى كجثة هامدة.

أمضيت عامى الأول لا أعرف غير العبث والسهر، فلا ثقل لى على السياسة ولا هم لى فى التجارة، حتى دراستى كنت أتعامل معها كأمر يخص بعض من أعرفهم، حين عدت إلى المملكة فى إجازة الصيف كانت المفاجأة الكبرى، فثمة من كان ينقل تفاصيل كل هذا الجنون إلى أمى التى ظننت أنها آخر من سيغضب، لكن وصول طفلى الأول إلى الحياة وسط إخباريات مفبركة عن الإدمان والهيروين وغيره جعلنى فى موقف ضعف مدهش، مما جعلها تفكر فى تحميلى مسئولية مكتب شركاتنا فى لندن. فى البدء حاولت الرفض لكنها قالت بشكل قاطع: "إذًا تطلق ابنة خالك وما أشوف وشك طول عمرى".



(٥)

اليمن السعيد هو المحمية الطبيعية للعنصر العربى ـ هكذا قال أبو سعيد ـ زرتها فى الستينات والحرب بين عبد الناصر والبدر على أشدها، يومها كنت متحيزًا لفكرة بقاء الإمام ووجود دولة تقوم على مشورة نخبة من العلماء، ربما لأننى كنت حانقًا على هذا الزعيم الطاغية الذى سجن وسحق الإخوان، وربما لأننى كنت أكرهه كما يكره الابن أباه، كنت قد حصلت على الدكتوراه فى التاريخ الإسلامى، ورتبت الأمر لوجود عدد وافر من خلايا الإخوان فى بريطانيا، فمنذ وطأت قدماى هذا البلد الاستعمارى حرصت على أن يكون مركزًا للجماعة فى أوربا، فما إن وصلت إلى لندن حتى

أرسلت إلى شيخى التلمسانى لأخبره بما حدث للسفينة، وكيف حصلت على جواز سفر مصرى باسم أبى سعيد، فطلب منى أن أقيم حيث أنا وأن أكمل تعليمى فى الجامعة، وجاءتنى مع الخطاب أول حوالة منه. فقدمت أوراقى ومعها صورة من محضر غرق السفينة الذى قال أن كل أوراقى فقدت، فأجروا لى امتحانًا اجتزته بمساعدة عدد من الإخوة العرب، وبدأت سنوات الدراسة فى قسم التاريخ، وبدأت حوالات التلمسانى تأتى بانتظام وخطاباتى تخبره عما أفعل. فى البدء انتهجت طريق شيخنا البنا فى الأمر بالمعروف حتى صرنا جماعة بالفعل، بعدها اتخذت طريق الشيعة فى الدعوة، حيث السرية والكتمان وعدم معرفة الأمير إلا بأمارات يفصح عنها، وهو بدوره يدعو لأميره المختفى، ساكتًا عن أماراته لحين إعلان ظهوره، وكل خلية لا تزيد عن عشرة أفراد ولا تعرف شيئًا عن غيرها، وكل رجل يتبعه عشرة آخرون، يتلقون منه أوامرهم ويعودون إليه فى مشكلاتهم، وجميعهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويجمعون التبرعات للجماعة، كنا نوجه الدعوة بالحسنى لدخول الأجانب فى الإسلام، وكان منهاجنا التفوق فى العلم وحسن الخلق ولين الحديث ونصرة الضعيف وعدم الإلحاح، حتى إذا رفض من ندعوه فلا نخسره، وإذا خسرناه فلا نجعله عدوًا، وإذا عادانا فلا يكون مبيرا. ثم أصدرنا جريدة بها عدد من الخدمات كالوظائف، وخرائط المدن، وتاريخها، وتهانى

الزفاف، وترقيات الأساتذة، إلى جانب أبواب ثابتة عن الدعوة والدين، تجنبنا الدخول فى السياسة، وإن كان لا مفر فبعيدًا عن أوروبا وخاصة بريطانيا، ووفرنا للأثرياء تخصصات عملية يبحثون عنها فتعاطفوا معنا، وقمنا بعمل رسم اشتراك للمجلة ذات الطبعة المحدودة بين أبناء الجامعة، وكان هذا الرسم غير محدد، فوصلت بعض تبرعاته إلى مئة دولار كاملة، بعد أربع سنوات حصلت على شهادتى فى التاريخ بتقدير ممتاز، فأرسلت إلى التلمسانى أستشيره فى العودة، لكن مصر كانت قد أظلمت على إخوانها، فطلب التلمسانى أن أبقى لأكمل ما بدأت. اقترحت عليه إشهار جمعية إسلامية تكون مقرًا للدعوة، فأرسل حوالته قائلاً: هذا تبرعى لكم. فى ذلك الوقت بدأت دراستى لنيل درجة الماجستير عن "فكر الشيعة فى الدعوة وتكوين الدولة"، لم يكن الأمر سهلا، فقد مرت أيام ليست طيبة، خاصة تلك التى استعر فيها الخلاف بين ناصر وبريطانيا، لكن ثمة تيارًا كان يرى فى وجودنا ورقة رابحة يمكنه استخدامها، ومن ثم فبعدما ضيقوا علينا وجدناهم يبشُّون فى وجوهنا، وصارت التبرعات أكثر سخاء عن قبل، الأكثر من ذلك أن عددًا من أساتذتى قدم ورقة باسمى لنيل منحة من الحكومة لاستكمال دراساتى العليا، ولا أعلم إن كان ذلك صدفة أم تدبيرًا مسبقًا، فتفرغت للدعوة والدراسة دون قلق على معونة التلمسانى التى راحت تتأخر، وسرعان ما علمت بسجنه هو

والهضيبى، فكان علىَّ أن أدبر وحدى أمر تنظيم بلغ عدة مئات وتوزع فى عدة دول، ولأن الدراسة كانت تحتاج الرجوع إلى وثائق وكتب فى مكتبات فرنسية وألمانية وتركية وإيرانية فقد حصلت على تصريح بالسفر إلى هذه الدول، وبرز اسمى كباحث فى التاريخ الإسلامى الوسيط بعد عدد من الندوات التى تعقدها الجامعات والمكتبات العامة، لم أكن أتصور أن هذه المحاضرات ستمنح لى حضورًا بهذا القدر، مما ساعد على انتشار الجماعة وقدرتها على جمع التبرعات، كانت أوروبا خارجة للتو من حرب أصابت روحها بالخواء، وكان الإسلام بما لديه من قيم دواء ناجعًا لهذه الأرواح التائهة، حتى أن مريديه فاقوا فى انتشارهم مريدى الروحانيات الصينية والهندية وقتئذ، وحين شدد ناصر قبضته على إخواننا فى سجونه قررنا أن نريه كم نحن أقوياء، كان الجميع متخوفًا من طموحاته ورغباته بعد تحالفه مع سوريا، ثم نزوله اليمن ضاربًا بكل الخطط المستقرة عرض الحائط، وكنا الورقة التى يمكن لأوروبا أن تكيل له من خلالها ما تشاء، كانت الصحف تنقل صرخاتنا وسبابنا له على صفحات كاملة، وظل الأمر على هذا النحو حتى حصلت على الدكتوراه وقررت العودة إلى فلسطين.

تنهد أبو سعيد وكأنه عائد من حرب طويلة، لكنه كان قد أثار رغبتى فى السماع، فقد بدأ من اليمن وانتهى بالعودة إلى فلسطين، نظرت إلى وجهه المستدير وعينيه المتوقدتين،

وقلت: وماذا بعد؟ تنهد من جديد وقال: كانت فى الأردن حلقة إخوانية آخذة فى الانتشار، وكان زعيمها وقتئذ أحد تلامذتى الذين حصلوا على شهادة الحقوق من لندن، وكان لا بد أن أمر على بلاده كى أتسلل إلى فلسطين، سلمت الخلايا التى معى لرفيقى كفاية الله الباكستانى واتصلت بعصمت الحاج فى عمان فاستقبلنى هناك، سألته عن الأحوال فقال إن الأمر ليس ميسورًا، فأوضحت له حاجتى إلى دخول غزة لجمع الأنصار ومناهضة العدو الصهيونى، فأسرَّ لى بأنه يرغب فى الذهاب إلى اليمن، فوجدتها فرصة للأخذ بثأر رفاقى وشيوخى من الطاغية الذى عذبهم فى سجونه، ونقل البلاد من الإسلام إلى الإلحاد .

فى تلك الآونة كان الملك حسين يناصر البدر، ومن ثم فقد شدد قبضته على الداخل وفتح بواباته للراغبين فى اللحاق بقادة الإمام، وجميعهم كانوا وزراء فى الحكومة التى شكلها من منفاه فى جدة، كنا نكمن بالليل لطوابير الدبابات المصرية فننصب لها الكمائن ونطلق عليها نيران مدفعيتنا، لكنهم ما يلبثون أن يستدعوا طائراتهم لتقصفنا من الهواء، كانت جثثنا تتناثر على الأرض بلا رحمة، سنوات من الحروب الدامية بلا معنى، لأن ما نأخذه اليوم يؤخذ منا غدًا، وما يؤخذ اليوم نموت بالمئات من أجل استرداده غدًا، رغم إعلان الهدنة والمفاوضات والمؤتمرات واللقاءات بين ناصر وفيصل الذى تولى السلطة فيما يشبه انقلابًا من الأسرة السعودية على

أخيهم سعود، ذلك الذى استنزف خزانة الدولة على البدر ورجاله، ورغم أن فيصل لم يكن يحب البدر غير أن تعنت ناصر جعله يتورط هو الآخر فى تمويله، فقد ضرب الطيران المصرى مناطق الجنوب السعودى، واستقدم ناصر سعود من منفاه فى أوروبا وروج لكونه الملك الشرعى، ثم أخذه فى زيارة لليمن ليُضعف عزيمة القبائل التى تناصر الإمام، ويثبّت الذين والوا الجمهورية العربية المتحدة. ونفس الأمر قام به فيصل حين بحث عن ملك مصر فى بارات إيطاليا وأخذ يقنعه بالعودة والمطالبة بعرشه، لكن هذا الأمر لم يدم طويلاً، فقد قتل فاروق مسمومًا، ثم جاءت النكبة التى علم الجميع بعدها أنهم أخطأوا، فالعدو المتربص بنا فى الشمال لا الجنوب، وليس البدر أفضل من ناصر ولا السلال، فقررت العودة من جبل رازح عبر سلسلة عسير إلى الأردن، وما إن عدنا حتى سمعنا بانسحاب مصر من اليمن، وهروب السلال إلى روسيا، وسيطرة العمرى على زمام اليمن، وتوالت الأحداث كما لو أن الكل تكشَّف الحقيقة على صخرة النكسة، فتوصلوا إلى أنها كانت فتنةُ الجالس فيها خير من الواقف، والنائم خير من الجالس.. والقاتل والمقتول فى النار.

* * *

(٦)

أرسل والدى إلى أهله أن اخلعونى فقد خلعت الإمام.. ولأن عمه أصبح صهرًا للإمام فقد خشى على نفسه وابنته وأبلغ من فوره شيخ القبيلة ليبلغ بدوره الإمام. حدث ذلك بعد أن استتبَّ الأمر فى جبل "الشعيب" لشبح يُدعى معاوية، فقد غير اسمه وأبرز مهارة فى القتل والسطو وشاع ذكره هناك، كانت له طريقة جديدة على أمثاله من قطاع الطرق، فهو لا يهاجم أعزل، ولا يجور على ضعيف، ولا يقتل شاة لا يحتاج إلى أكلها، ولا يسلب فقيرًا قط، بل إنه إذا رأى أحدهم فى طريقه يعطيه مما فى يده. ولأن سطوته كانت منصبة على شيوخ القبائل وأبنائهم وحاميات الإمام ورجاله من الأتراك

والـزيود فقـد أحبه الجميع، وكثيـرًا مـا تـواطـأوا معه ضـد أعدائه فضللوهم عن طريقه، ولشعوره بأنه منذور لعمل كبير فلم يكن يتسـامح مع خـائن، ويؤدب من يشذ عن حسن ظنه بالطريقة التى تناسبه، وإذا وضع يده فى يد الشيطان فعلى الأخير أن يلتزم بما اتفقا عليه، وإلا فليتبوأ موقعه من القتل الذى يأتمر الآن بأمره، ورغم كثرة الكمائن والدسائس فإن الموت هو الذى كان يخشى على نفسه منه، ربما لحيَله التى لا تنتـهى، وربمـا لأن الـعيـون والخـلايـا الـتى بـثهـا فى الـقرى والقبائل مكنته من العلم بأحلامهم قبل أن ترد على أذهانهم.

رحل مـحـمـد ـ الـذى أصـبح مـعـاويـة ـ من الـشـعيـب إلى الشمّـاخ إلى رازح، وسكن الـكهوف والمغارات، جـالبًـا السـلاح على ظهور الخيل والإبل من الشمال، حارمًا الإمام ورجاله من تجـارة الآثار، وأظهر قدرات عظيمة على التخفى والظهور، حتى أن الجميع كان يتوقعون خروجه عليهم فى أى وقت كما لو أنه نبت فجأة من الأرض أو سقط من السمـاء، وكثيـرًا ما حـاكوا الحيل والفخـاخ من أجله، لكنهم فى كل مـرة مـا كـانوا يصدقون أنفسهم حين يجدونه التقط الطعم واختفى قبل أن يضرب الـفخ عـلى قدمه. فـذات مـرة قـرر واحـد مـن شيـوخ القبائل أن يضرب بأوامره عرض الحائط باحثًا عن الحفائر، فـأوقف الرجال بـالسلاح على حدود القبيلة، وأرسل للإمام قائلا إن معاوية سيجيء لينتقم، وهذه فرصتنا للخلاص منه. فـأرسل الإمام حامية من الأتراك المثقلين بالخنـاجر والمدافع والملابس المزركشـة، ومعهم ثلة من الزيود الذين لم يدفعوا

الفدية فدخلوا فى الجندية الإجبارية، كانت هيئتهم بزيهم البدوى ومدافعهم الصدئة توحى بأنهم متسولون لا مجندون، ظلوا ثلاثة أيام يحمون شيخ القبيلة والمكان حتى وصل الأجانب إلى بغيتهم، فوجدوا المقبرة منهوبة وعلى جدارها وقفت جثة شيخ القبيلة مصلوبة.

شاع اسم معاوية بعدما داهم أكثر من قافلة وشيخ قبيلة، وفرض الجزية على الأثرياء الذين يئسوا من التخلص منه فامتنعوا عن أداء الضريبة للإمام، هنالك ثارت ثورة الأخير حين علم أن أمواله تنقص ولا تزيد بسبب قاطع طريق، وأخذ العلماء الذين تلقوا الهدايا من الشيوخ ينفخون فى النار حتى ارتفع اللهب وأعلن الإمام الحرب. حين علم معاوية بالأمر قسّم رجاله إلى ثلاث فرق، كل واحدة تتكون من ثلاثات أصغر فأصغر، ثم أرسل بمجموعة أخرى على هيئة حرفيين إلى صنعاء، كانوا عيونه المفتوحة على قصر الإمام وما يدور به، فجاءه النبأ من خلالهم أن الحملة التى ستخرج إلى الشماخ مكونة من خمسمائة تركى وثلاثة آلاف مجند، فراح يخزن ما استطاع من سلاح ومؤن، ويعد الخنادق والكمائن لحرب قد تطول، وانتظر بالشهور لكن شيئًا لم يحدث، فقد جاءته الرسل من جديد بأن الأتراك هم الذين خرجوا من البلاد بعد هزيمتهم فى حرب كبيرة دارت بين الدول الكبيرة، وكانت هذه فرصته التى تمناها لتأديب الشيوخ، فنهض ينهب أموالهم ويحرق مراعيهم. استجاروا بالإمام من جديد، فصرخ فى مجنديه أن يخرجوا إلى الشماخ، وكاد الإمام يصاب بالجنون حين علم أن الحملة عادت وقد سلب منها كل شيء

حتى الملابس، هنالك أرسل إلى شيخىّ مشايخ حاشد وبكيل قائلًا: سأقتل أولادكم الذين فى حوزتى إن لم تأتونى برقبة هذا الصعلوك. فصارت حاشد أختًا لبكيل، وصار معاوية رجل الساعة المطلوب حيًا أو ميتًا، وفتح الإمام البخيل خزائن المال والسلاح وإسطبلات الخيل للجميع، حتى أنهم شعروا لأول مرة أنهم شركاؤه فى الحكم، فانقلبت القبائل كلها على معاوية ورجاله، حاشدين عشرة آلاف رجل مدرب على حمل السلاح وركوب الخيل، غير مبالين بالبرد أو الثلج، ولا همَّ لهم غير القبض على قاطع الطريق فى مغارته على قمة الشعيب. كانوا يطاردونه من مخبأ إلى مخبأ، ومن موطئ قدم إلى آخر، حتى كلَّ معاوية من الفرار، ويئس رجاله من الحياة، فأمرهم فى ليلة حالكة الظلمة شديدة البرد أن يجمعوا ما لديهم من إبل وأغنام، وأن يربطوا على رؤوسها عشبًا ويضرموا فيه النار، وأن يوجهوها على منحدر رفيع من الجبل. حين رأى رجال القبائل النار مسرعة نحو الوادى الفسيح تجمعوا ليتصدوا لمحاولة الاختراق اليائسة، ولم يكتشفوا الخدعة إلا بعدما ولى معاوية ورجاله من الجانب الآخر.

كان من السهل على الرجال أن يعود كل منهم إلى قبيلته، فلا أحد يعرفهم ولا عشائرهم خلعتهم، وحده معاوية هو الذى لم يعد أمامه سوى أن يتلاشى من أرض اليمن، فحمل سنيه العشرين واتخذ طريقه الجديد نحو مدينة الشمال التى يتوه فيها كل غريب.

* * *

(٧)

اللهم نجنا من الهم والغم وفساد النفس، وبارك لنا فيما رزقتنا، ويسر لنا مقامنا وترحالنا، وهبنا الحظوة عندك فى الدنيا والآخرة، واحتسب أبا سعيد فى شهدائك الأبرار. هكذا عطفت التمتمات بصورة الرجل الجليل على ذهن الشيخ، وما إن تذكَّر صاحبه القديم حتى مرت بذهنه أمسياتهما على سفوح الجبال، تذكر حين استقبله قائلاً: هنا يا صاحبى يتجمع المجاهدون من كل مكان كى يقاتلوا عن دين الله، هنا نأمل أن نبنى مركزًا لتعليمهم فنون القتال كى يُعلوا كلمة الله فى الأرض.

لم يكن هذا لقاؤنا الأول، فقد التقينا على مشارف نهر اللوار، كان كل منا ذاهبًا فى وجهة غير وجهة الآخر. كنت ما زلت مهووسًا بعمارة بن الوليد، فرحت فى واحدة من رحلات جنونى إلى هذا النهر، لم تكن الدراسة تعنى لى الكثير، أما

المال فكان يزيد وينتشر دون جهد، فى ظل مجموعة من المخلصين الأذكياء الذين لا أعرف عمن ورثتهم بالضبط، عن خالى التاجر المثقف أم أبى قاطع الطريق ذى الفراسة العجيبة، هؤلاء الأوفياء ما كنت أحتاج معهم إلا لأن أخلو لنفسى وهواها، فما الذى حدث؟

هكذا جاءه السؤال وهو يطوف بخيالاته فى الماضى، فهبطت على ذهنه صورة رجل فى الخمسين من عمره ينتظره فى مكتب مدينة الجن والملائكة، ربعة،أبيض البشرة، ذو لحية طويلة منتظمة يشوب سوادها بياض، كأنه أمضى حياته كلها يشذبها ويهندمها ليرخيها على زيه الأزهرى، كان لعينيه بريق لا يمكنك أن تفلت منه، ولا يمكنك أن تزعم أنه لعابر سبيل. يومها كنت أرتدى ملابس عادية تمامًا لأهرِّب نفسى من رسميات وتقاليد ما عدت أحتملها فى حياتي. بدا الرجل قصيرًا بعض الشيء، لا أعلم لماذا ارتبكت حين رأيته، ذكرنى بالمدن القاحلة التى تركتها تعج فى آبار الزيت، ذكرنى بأقاربنا اليمنيين الذين لم أرهم منذ الطفولة، كان ظهوره مباغتًا وملغزًا لي. قال السكرتير حين هاتفنى فى المنزل إنه سأل عنى عدة مرات، وأصر على مقابلتى شخصيًا، حين دخلت رحبت به كشخص أليف إلى نفسى، لكننى ظللت أتساءل فى داخلى عمن يكون، وما الأمر الذى جعله يلح فى لقائي. بعد انتهاء كلمات الود ساد صمت قطعته بسؤاله عما يريد، حين ابتسم شعرت أن شيئًا ما أضاء وجهه، وضع

مسبحته على المكتب قائلا "أنا أبو سعيد"، ثم تنهد وهو يلتقطها من جديد "أظنك لا تعرفنى، لكننى صديق والدك"، وكمن يعرف أننى لا أعرف الكثير عن أصدقاء والدى قال: "رحمه الله، لم يكن هناك الكثيرون الذين يعرفون صداقتنا، ولم تكن الأمور تسمح بأن آتى لأقدم واجب العزاء للأسرة، لكن لتسمح لى أن أقدمه لك الآن نيابةً عنهم جميعًا". دارت فى رأسى الظنون حول هذا الصديق الذى جاء ليقدم العزاء بعد أربعة عشر عامًا من وفاة صديقه، هل كان مسجونًا؟ أم أنه فقد ذاكرته كل هذه السنوات؟ وإذا كان هكذا فلماذا يحيط نفسه بهذه الريبة والسرية فى الحديث؟ لماذا لم يذهب إلى إخوتى الأكبر أو خالى بهاء الدين؟ قلت ربما يكون محتالا ولديه خطة ليخرج ببعض الأموال، ومن الجائز أن يفاجئنى أن له أموالا عند أبى، وربما يكون أكثر ذكاءً فيقول إن والدى هو الذى له أموال عنده. هكذا كانت تحدثنى نفسى عن هذا الجالس أمامى باطمئنان شديد. شكرته على عزائه وسألته عما يمكن أن أقدمه من أجله فقال: "صلاة العشاء"، حين فغرت فمى متعجبًا أضاف: "نحن نصلى فى مسجد الصحابة، أرجو أن تأتى للصلاة معنا"، شعرت ساعتها أننى أمام مجذوب أو درويش، لكننى نهضت لمصافحته بنفس الحفاوة الأولى، قال: "ستأتى؟!"، قلت: "إن شاء الله".

كان من المفترض يومها أننى سأعاقب كل من فى المكتب لأنهم أضاعوا وقتى مع رجل لا أعرفه ولا أعرف سببًا

لمجيئه، لكننى استقبلت الأمر على أنه طُرفة كان يمكن أن تحدث لعمارة بن الوليد وهو على تخوم أى من القبائل. فى المساء كان علىَّ أن أتجه إلى بيت صديقة لآخذها إلى حيث دبرت مع آخرين رحلة خلوية، كان علينا أن نقطع مئة كيلو متر جنوبى باريس، حيث نهر السارون أحد نهيرات اللوار الذى يلتقى بنهر الرون عند مدينة ليون. كانت قد اختارت مع الرفاق هذا الطريق الذى لا أعرفه للاحتفال بعيد ميلادها العشرين، جذبتنى المغامرة وانطلقت معهم ما يزيد عن خمس ساعات من الركض المتواصل فى الصحراء حتى لاحت قمة جبل متواضع بجانبه نهر، قالت: هذا أحد فروع النهر الكبير الذى شهد موقعة فاصلة بين المسلمين والمسيحيين. قلت: ربما كان النهر الذى هزم عنده عبد الرحمن الغافقى فتوقفت معه فتوحات المسلمين لأوروبا. حين ترجلنا وجدتهم جهزوا للإقامة عدة أيام فى هذا الخلاء، رقصنا ولعبنا وغنينا وتسابقنا وسبحنا فى النهر الذى أعاق تقدم أهلى عن العبور بالإسلام إلى باريس، ولم يبق لدينا من الجنون غير أن نكمل الرحلة متخذين الجانب الشرقى من النهر طريقًا لعودتنا، فاتجهنا بسياراتنا بمحاذاة النهر بحثًا عن جسر نعبره، حين وصلنا إليه وجدنا قرية جميلة اسمها sans صانص"، فتركنا سياراتنا وهمنا على وجوهنا فيها، ثم جلسنا فى أحد المطاعم ننتظر غداءً تأخر كثيرًا، وقبل أن يحضر النادل ما طلبنا سمعت صوت أذان على البعد، فسألته هل توجد مساجد بالقرية، ولا أعرف إن كان مسلمًا أم لا. لكنه تهلل بسعادة

غريبة، وقال كمرشد سياحى ضل طريقه: نعم يا سيدى، هنا واحد من أقدم المساجد الإسلامية فى أوروبا، يرجع تاريخ بنائه إلى عام ٧٢٣، أى بداية القرن الثانى الإسلامى، بناه أول قائد عربى وصل إلى هذه المنطقة وهو عنبسة بن سحيم الكلبى. قاطعه واحد من الرفاق بلهجة ساخرة: الذى قُتل فى معركته مع شارل مارتل بسبب خوف جنوده على غنائمهم؟! لكن النادل ابتسم بهدوء مدرس تاريخ قائلا: ربما تقصد عبد الرحمن الغافقى، هذا أيضًا كان قائدًا عظيمًا، فبعدما وصل عنبسة إلى هذه النقطة القريبة من باريس بأقل من سبعين كيلو مترًا، اقتنع أنه قد أمن حدود بلاده بشكل كاف، وعلى عادة العرب بنى هذا المسجد ليرسى قواعد دينه فى المكان، مثلما فعل فى بقية مدن نهر "الرون" ثم ترك حامية صغيرة وعاد إلى لشبونة، لكن فى طريق عودته داهمته قوات مسيحية لم يتوقع تجمعها بكل هذا العدد فى خوانق جبال ألبرت فقتلته.

حين أتى الغداء كان النادل قد ألقى علينا محاضرة عظيمة عن الصراع الإسلامى المسيحى فى القرون الوسطى، فصفقنا له جميعًا، ورحت أغمره بكل ما فى حافظتى من أموال، كان شعوره بالسعادة كبيرًا فقرر أن يصحبنى فى زيارة سريعة لثروته الأثرية فى تلك القرية، قال إن معمار المسجد لم يتوقف على ما بناه عنبسة الكلبى، فقد حرص بنو أمية والموحدون والمرابطون من بعدهم على تجديده والحفاظ

عليه، بل إنهم أقاموا معاهدات مع ملوك الأسرة الكارولنجية ومن أتى بعدها للحفاظ على هذا المسجد وعدم المساس بمن أسلموا. حين وصلنا لم أجد مسجداً بالمعنى الذى تطلعت إليه، فرغم أن به قبة تشبه قبة المسجد الأقصى، ومئذنة قصيرة على الطراز المغربى، غير أن المئذنة بها أجراس، والقبة يعلوها صليب كبير مضاء بالنيون، وثمة تراتيل تتهادى منها، فقلت: إنه كنيسة!، فقال كمن يعتذر: لقد استولى عليه المسيحيون حين تدهور ملك العرب، لكن لأن أغلب أهل هذه القرية ظل على إسلامه، فقد أخذوا منهم نصف المسجد والمئذنة وتركوا لهم النصف الآخر، ومع الوقت حصروهم فى المصلى الخارجى، فلم يبق للمسلمين غير هذه الأمتار وذلك اللوح الرخامي. نظرت فإذا على جانب الباب المشغول بالفسيفساء لوح رخام أخضر، كتب عليه بخط كوفى: "مسجد الصحابة، بناه قائد خيل الله عنبسة بن سحيم الكلبى عام ١٠٥ هجرية". فدهشت أن اسمه مسجد الصحابة، ولم أفق من دهشتى حتى رأيت الطيف العربى الذى زارنى منذ أيام فى مكتبى، متهاديًا على الأرض بقامته الربعة وزيه الأزهرى وابتسامته الوديعة ونظرته التى لا تدل إلا على أن صاحبها مطمئن بحب الله، زادت ابتسامته فى وجهى حين توقف أمامى قائلا: إن شاء الله أتيت، فهل ستدخل؟، فلم أملك سوى أن ابتسمت قائلا: إن شاء الله.

* * *

(٨)

حين خرجت السفينة من الإسكندرية كانت وجهتها بريطانيا وكانت وجهة أبى سعيد إلى المكسيك، ألقى الرجل برحله على ظهرها وجلس يتأمل السنوات التى مرت من حياته، كان أكثرها حزنًا يوم وفاة والده، مشهد قال لن أنساه ما بقيت حيًا، كان فى صحبته وهو عائد من حقله على حدود المدينة، فخرجت عليهما جماعة من الهجاناة التابعة للهستدروت، وكان والده ممن رفضوا بيع أرضهم المجاورة لمزرعة يهودى اشتراها من ملتزم تركى قبيل إعلان خسارة المحور، فى البدء فرح الناس برحيل الملتزم الذى طالما تلذذ بتعذيب المدينين له، ورغم أن المالك الجديد كان أوروبيًا وحيدًا بلا زوجة أو ابن، فما لبث أن جاءه ضيوف لم يرحلوا، فبنى لهم دورًا بجانب القصر، كانت الناس تعمل لديه بمحبة وجد لأنه كان سخيًا وليس فظًا كسابقه، لكن الضيوف كثروا

ولم يكن الرجل راغبًا فى بقائهم بلا عمل، فنزلوا مع المزارعين والبنائين وحافرى الآبار، فى البدء كانوا ودعاء لا يؤذون أحدًا، لكنهم بمرور الأيام أخذوا يسخرون من الفلاحين ويعتدون عليهم، وحين اشتكوا للمالك قال إنهم أبناء إخوته ولا يملك طردهم. فانقسم الناس ما بين قابل للعمل وكاره للمهانة فرحل، لم يمر عام حتى أصبحت المزرعة الفسيحة تدوى كخلية النحل بشباب وبنات شقر يرطنون بشتى اللغات، فرغب المالك فى توسيع مزرعته، ما يشترى بواحد كان يشتريه بعشرة، والناس يفغرون أفواههم أمام الأرقام.

قال أبو سعيد: كان أبي يقول لهم إن الأوروبيين ليسوا أسخياء بهذه الدرجة، وأنهم لا يدفعون شيئًا إلا فى مقابل أشياء، ولا بد أن فى الأمر سرًا، فلا تساعدوهم فيما دبروا له. كانت كلماته خبيرة بطباع أناس لا يعرفونهم، وكان الناس قد ضجروا من أسعار الأرض التى ترتفع كل يوم أضعاف سابقه، قال أبى: من سيبيع أرضه اليوم سيعمل خادمًا رغم أنفه غدًا، وهؤلاء أناس لا يعرفون حرمة أو دينًا.

لم تمر أيام حتى علم الجميع أن الحرب الكبيرة بين الدول الكبيرة قد توقفت، وأن الأتراك لن يعودوا، يومها رأوا أفواجًا جديدة من الضيوف تحط رحالها فى المزرعة، وعروضًا جديدة للشراء تحمل لهجة التهديد، كان الضيوف قد ابتنوا

سورًا حول مزرعتهم، وكان الصبية حين يتسلقون الأشجار فى الحقول يرونهم مصطفين تحت الشمس وثمة من يلقنهم دروسًا بالعصى والبنادق. شاع فى القرية أنهم يحملون السلاح، وأن ضيوفًا جددًا قادمون، وأن فلانًا وقّع بالأمس على بيع أرضه لأنهم هددوه بالقتل، وأن فلانًا اختفى بأولاده كى لا يبيع أرضه، صرخ أبى فى الناس أن يقيموا حلفًا، وألا يبيع أصحاب الأرض المجاورة للمزرعة شبرًا منها، وأن يكون على كل بيت خمسة رجال كى لا يجبروا صاحبه على شيء، إلى أن يقضى الله أمره. استجاب الناس وراحوا يخرجون إلى الحقول على هيئة جماعات يحرس بعضها بعضًا، موصين أنفسهم بعدم البيع أو الشراء معهم، ووصل الخبر إلى الضيوف فأقاموا حراسة على أسوار مزرعتهم، ولم يبدر منهم شيء حتى ظن الناس أنهم خائفون يعدون أنفسهم للرحيل، لكنهم استيقظوا فى الصباح على عربات من الجيش البريطانى تنزل المدينة لتمكث مكان الأتراك، وأصبح عليهم تفريق الناس بحجة أن رجلا وجدت جثته مقطعة بالسيوف على مشارف القدس، قيل إنه يهودى، وقيل تركى كان يود البقاء فى المدينة، لكن أحدًا لم ير الجثة ولم يشهد الواقعة، وبدأت الأحوال تنضبط، فلا فرض على أحد فى بيع أرضه، ولا رغبة من أحد فى البيع، إلى أن فوجئ الجميع بأن يهوديًا آخر اشترى مزرعة ورثها الإنجليز عن الأتراك، فتجسد فى مخيلة الناس أن البريطانيين سيستولون فى العلن ويبيعون فى الباطن، فقرروا طرد اليهودى وشراء المزرعة منه، لكنهم

وجـدوا المـزرعــة تـضـج بـالحــراس ذوى الملابس الـســوداء والرؤوس الحليقة، وأن القائد البريطانى يتناول الغداء مع صاحب المزرعة، فتأكدوا أن الأمر خرج عن الاسترداد وعليهم أن يحموا أنفسهم. كان أبى يجتمع بهم أمام البيوت وعلى الخانات ليحرضهم على مقاطعة اليهود، وكان فى الذين يصغون لكلماته بجلال مهيب بعض يهود القدس الطيبين، فبكوا ولطموا الخدود ودعوا على أنفسهم، وأعلنوا أنهم لا علاقة لهم بالغرباء القادمين من الشتات، وأنهم قلبًا وقالبًا مع العمال المساكين والفلاحين الفقراء، سيشترون منهم محاصيلهم ويمدونهم بالقروض حتى يفرجها الله. ولسبب لا نعلمه أخذت الأشجار تجف والآفات تكثر والمحصول لا يكفى سداد الديون، وكان الطيبون يُقرِضون من يحتاج ويمهلون من لا يستطيع السداد، لكنهم بعد أعوام لم يتسامحوا أو يطالبوا، فقد ذهبوا ليقيموا مع الضيوف فى المزرعة، وجاء البريطانيون بجيشهم ليقولوا: إما الدفع أو الأرض. فثارت ثورة الناس ورفضوا أن يتركوا أراضيهم، فأطلق الجنود النار واحتجزوا من أمسكوا به فى مخافرهم، فدب الخوف على الأرض وتنازل من تنازل بهدوء، وأُخذت الأرض ممن قُتلوا أو سجنوا، وجاء الدور على أبي. قال القائد البريطانى: نحن لا نريد مشاكل، وأرضك المجاورة للمزرعة فى قلب أرضهم الجديدة، لكن أبى رفض. قال: لقد أصبحوا مستوطنين مثلكم، ومن واجبى حمايتهم وحمايتك. لكنه أيضًا رفض، فترصده خمسة بملابس سوداء، ظلوا يهيمون خلفه من مكان

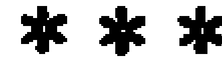
إلى مكان، ولم يكن يعبأ بهم حتى أتى اليوم المشئوم، رأى فى عيونهم الشر وبأيديهم البنادق، أردفنى خلفه على البغلة حتى وصلنا مشارف القدس وقال: اذهب لتبلغ عمك ومن تراه أنهم يريدون العراك معي. تركته وأسرعت إلى الخان فوجدت عمى وبعض القوم، حين عدنا إليه وجدناه جثة ممزقة ورأسه على بعد أمتار، بينما أشباحهم السوداء تهرول فى البعيد، جمعنا الجثة فى قماش أبيض وعدنا وطفنا المدينة نجمع الناس، فكلما مررنا ببيت خرج من فيه، وكلما مررنا بخان تكاثرنا حتى صرنا مئات، فحملنا العصى والبنادق والخناجر وعدنا إلى مزرعتهم التى غدت ثكنة تتزلزل الأرض تحت أقدام جنودها. كان البريطانيون يملأون المكان، وكانت الأشباح السوداء تتقافز على الأسوار ببنادق تشبه بنادق الجنود، وكان الرصاص فى البدء يطير فى الهواء وما لبث أن مر على الرؤوس، قال المالك العجوز: لم نقتله، واتونا بقاتليه ونحن نقتلهم أمامكم! وقال يهودى طيب: لو كان طفلكم صادقًا فلا بد أنه قتل خطأ وعلينا ديته. وقال الضابط: ادفنوا أخاكم وخذوا الدية أفضل من أن تموتوا بلا دية. من يومها بدأ الناس فى التواطؤ والجبن، وبدأت الملابس السوداء والرؤوس الحليقة تطوف المدينة كخفافيش تنقض على كل شيء.

بكى أبو سعيد من جديد لترحيله إلى أرض لا يعرف عنها سوى أنها المنفى، واعتزل الناس فى سجنه الصغير على

السفينة يتذكر ويبكى، فمضت أيام لا يكلم أحدًا إلى أن غضب البحر وهبت عواصف لم ير البحارة مثلها، وهطلت الأمطار وأخذت الريح تطيح بكل شيء، بينما الأمواج جاءت كألواح من جبال تصفق السفينة فلا يوقن بالنجاة أحد، وحده الرجل كان هادئ البال مستقر السريرة، ينظر إلى السماء ويقرأ ما يحضره من آيات الذكر. أطاحت الريح بالصوارى والكبائن وأخذ المد فى انسحابه الريان ورجاله، وتمايل الطود العظيم كالنخل تارة ذات اليمين وتارة ذات الشمال.

كانوا قد قبضوا عليه فى طريق عودته من فلسطين بعد هزيمة ٤٨، ولم يكن يعلم أن أمر الجهاز الخاص قد اكتشف فى مصر، وأن الجماعة قد حُظر نشاطها، فلم يتهرب من نقطة التفتيش على حدود الإسماعيلية، لكنهم فاجأوه بقرار القبض عليه، ولأنه لم تثبت عليه أدلة اتهام واضحة غير زعم اليهود بأنه المسئول عن العمليات الإرهابية ضدهم فى مصر وفلسطين، ولأنه ليس مصريًا ولا بريطانيًا ولا إسرائيليًا فقد اتفق الجميع على نفيه إلى المكسيك، ولأنه لم تكن هناك سفينة متجهة إلى هناك مباشرة فقد قرروا وضعه على سفينة متجهة إلى لندن ليوضع هناك على ظهر أخرى متجهة إلى المكسيك، لكن القدر شاء أن ينجو من النفى ليجد نفسه فى إيطاليا. فحين تعالى الموج وتحطمت جوانب السفينة أرسل الريان رسائل استغاثة عاجلة إلى كل من فى البحر والبر، فالتقطت إشاراته سفينة تراجعت عن الدخول فى

منطقة الهياج البحرى، فأرسل ربانها إلى أبراج المراقبة القريبة منه أن سفينة تغرق فى البحر عند النقطة التى حددها الربان المستغيث، ظلت سفن الإنقاذ تناور الموج حتى هدأ لتلملم أشلاء السفينة الغارقة وما على وجه الماء من جثث. كان أبو سعيد واحدًا من هذه الجثث، ولا يعرف كيف نجا من بين الكثيرين، فنقله الجنود إلى المستشفى لتجرى له عمليات الإسعاف الضرورية، ولأنه لم يكن يحمل ما يدل على هويته فقد انتظروا أن يفيق ليخبرهم بها. حين سألوه قال: أبو سعيد .. من مصر، وكنت فى طريقى إلى لندن لأكمل دراستي. لم يكن أمامهم غير أن يثبتوا غرق سفينته فى البحر، ويعطوه أوراقًا بالهوية التى أخبرهم بها، ليتخذ طريقه مجددًا نحو البلاد التى حكمت عليه بالنفي.



(٩)

حين نزل والدي جدَّة ظل يتسكع بطوله الفارع وجسده القوى من مكان إلى آخر حتى وصل إلى خان بالقرب من الميناء، كان بعض الهنود يقفون أمام الباب ملحين على الناس فى الدخول، فدخل وطلب ما يليق به كسيد لا يناقِش ولا يناقَش، لكن هيئته ما كانت توحى بأنه يمتلك ثمن ما طلب، فانحنى الخادم على رجل فى زاوية الخان وهمس فى أذنه، يومها نهض الرجل كمن لدغه عقرب نحو المنضدة التى جلس إليها معاوية:

ـ المال قبل الطعام.

ـ ومن لا يملك؟! أجاب معاوية.

ـ لا يدخل.

ـ لكنكم الذين طلبتم الدخول!

انفجر الرجل ضاحكًا وهو يشير لرجاله أن يقذفوا بهذا المعتوه إلى الشارع. تجمع ثلاثة منهم حوله وأرادوا أن يفعلوا ما أمروا به، فاحتمى بجسده القوى وطوله الفارع، وعلت الأصوات وتطاولت الأيدى حتى تدخل رجل ذو هيبة قائلا: أحضروا له ما يريد. فهدأ الجميع وخجل معاوية واستدار للخروج، لكن الرجل أصر على ضيافته، قال: أنا الحاج حميد الدين الطولى، مسئول عن أعمال التوسعة فى ميناء جدة، فمن أنت ومن أين جئت؟ قال معاوية - الذى عاد إلى اسمه القديم - "أنا محمد من حضرموت"، وحكى عن غضبه من عمه لأنه وعده بالزواج من ابنته لكنه زوجها لغيره، فترك له أرضه وخرج إلى أرض الله الواسعة. شعر الرجل أن ضيفه صادق لكنه أسقط من حكايته الكثير، فطأطأ رأسه قائلاً: وتبحث الآن عن عمل؟ فأجاب نعم. قال حميد الدين: ومثلك لا يبقى بلا عمل.

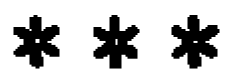
كان العمل الذى بانتظار محمد هو نقل الأحجار من حيث تضعها الحمير والجمال إلى حيث يريدها البناءون، فظل يعمل وسط قطيع من الهنود والأفارقة من شروق الشمس حتى غروبها، ثم يأوى ككثيرين إلى حفرة بلا معالم حتى يتضح النهار. كان الجميع يعتقد أنه أحمق لا يجيد الكلام، لكن بنيانه القوى منعهم من التندر عليه، وكان نصيب أول من فعل ذلك طرقة بقبضة اليد على الجبهة كادت تودى بحياته، فضربوا عليه العزلة مثلما ضربها على نفسه. ومرت شهور

وهو يعمل مع الدواب ولا يستريح إلا مع راحتها. حين رآه حميد الدين يئن تحت ثقل حجر كبير لم يعره انتباهًا، حتى انثنت قدمه ووقع الحجر عليه، يومها شعر بالمهانة والضعف فامتلأت عينه بالشرر وأخذ يصرخ فيمن أمامه، حينها اخترق الرجل الحلقة التى حوله وصرف الناس عنه، وظلا يدوران فى شوارع جدة التى لم يكن يعرفها، قال إنه لم يخلق لمثل هذا العمل، فابتسم الرجل قائلا: وماذا تريد، أميرًا أم إمامًا؟ فنظر معترضًا على هذه السخرية، لكن حميدًا الذى يكبره بأربعين عامًا على هذه الأقل ربت على كتفه قائلا: اسمع يا ولدى.. كى تصبح سيدًا فلا بد أن تنجح فى عمل ما، ولا تولول كالصغار حين يتركون أمهاتهم ليعملوا تحت إمرة رجال لا يبشُّون فى وجوههم، لأن أحدًا لن يعطيك ما تريد إلا إذا أعطيته ما يريد. كانت الكلمات أشبه بدواء ناجع لجراحه، فعاد إلى عمله كمن ولد من جديد، عاد يكلم الناس ويفرح لفرحهم ويغضب لغضبهم، فصار كل البناءين لا يرغبون فى سواه للعمل معهم. بعد مضى عامين أو ثلاثة أصبح رئيسًا للعمال، يأمر وينهى ويوزع العمل والكل يرضى بحكمه، وتجمع لديه قدر من المال يمكنه أن يحلم من خلاله، فأغلق عينيه وتخيل ما ستكون عليه جدة بعد الانتهاء من الميناء، لا بد أن سفنًا كبيرة ستجيء وتروح، ولا بد أن تجارة أكبر ستفد إلى المكان، وأن المدينة ستتسع وأعمالها ستزيد، يومها قال لنفسه أنه لا بد أن يصبح من الملاك، فحمل ما

معه من مال فى خرقة وذهب إلى الشيخ سعد صديق الأمير. كانت أحلامه يومها تتجسد فى قطعة أرض على حدود المدينة ولا تبعد عن الميناء سوى بضع مئات من الأمتار. قال: أريد أن أبنى بها بيتًا. ففكر الرجل قليلا ثم قال: لا بد أن تمتلك صكًا من الإمارة بذلك: قال لهذا جئتك. لكن سعدًا لم يقل له إن الصحراء تحت سيطرة الأعراب، فأخذ ما معه ووعده بصك مدموغ بعد يومين.

كان فرحه غير محدود وهو يقطع الليل بحثًا عن الأحجار وأخشاب السفن القديمة ليقيم سورًا حول الأرض، وكان أغلب أصدقائه فى العمل ينهون أعمالهم قبل موعدهم ليساعدوه فى بناء حجرة تقيه المطر والبرد، لكن فرحه تبدد حين عاد من عمله ليجد قطيعًا من الأغنام والجمال يملأ المكان، وثمة أناس فى حجرته. قال إنها ملكه فضحكوا، قال إنه اشتراها من الأمير فأشاحوا بوجوههم عنه، أخرج الصك وأعطاه لكبيرهم، كان عجوزًا نحيلا لا تبدو عليه أمارات المودة، فنظر إلى الورقة بحذق ثم انفجر ضاحكًا: ماذا تعنى هذه؟ فأجاب: إن البيت الذى تجلسون فيه الآن بيتي. قال الرجل: ومن الذى أعطاك إياه؟ قال: الأمير. قال أحدهم بحسم: اذهب إلى الأمير وقل له أن يأتى ليطردنا. فأدرك أنه لا معنى لأمير أو ملك لدى هؤلاء، وأنه لا بد أن يحمى حقه بنفسه. كان حنقه شديدًا ولم يكن يدرى ما الذى بوسعه أن يفعله، فولد الغضب بداخله من جديد معاوية الذى تركه على

قمة الشعيب، فنزع الباب من مكانه وألقى به عليهم، ثم دفع بكتفه الجدار حتى تهاوى وسقط السقف على الجميع. حين انتبهوا من الصاعقة التى أصابتهم وجدوا الثور الذى هدم المكان يهرول بشيخهم ناحية الميناء، رأوه يطرحه أرضًا ويبصق فى وجهه، لكنهم لم يسمعوه وهو يقول له: غدًا سأعود ومعى قطيع من الذئاب، ليس للغنم والإبل، ولكن لكل من يفكر فى رعى الغنم والإبل.



(١٠)

خريف ١٩٧٥

لا أعرف هل أمى هى التى أقنعت خالى بأن أدير مكتب لندن أم أنه هو الذى غذى الفكرة فى ذهنها من أجل ابنته. تعللت يومها بالدراسة لكنها لم تقتنع، تعللت بأن خالى وإخوتى يديرون أموالنا وأموالهم بعناية كبيرة، وليس هناك ما يستدعى أن نغضبهم لأجله، لكنها رأت كل ما تعللت به حرصًا على بقائى فى المتاهات التى أدمنتها. قالت: لا بد أن تتعلم كيف تدير أموالك بنفسك، فلم تعد صبيًا ولم يبق إلا ثلاثة أعوام على انتهاء الوصاية رسميًا. كنت أعرف أنها عنيدة وإذا قالت شيئًا فعلته حتى لو كان فيه هلاكها، قلت: ألن تغضبى إذا خسرتم هذا المكتب بسببي؟ أدركت أننى رفعت الراية البيضاء فابتسمت قائلة: لن تكون أقل من أبيك أبدًا.

حين عدت إلى لندن بحثت من جديد بداخلى عن عمارة بن الوليد الماجن، لكن وعدى لها وخوفى من غضبها أصبح شوكة تقض مضجعى، فكان علىَّ أن أمر على المكتب كل عدة أيام ولو لساعة، وكان على مجتمع المال والأعمال كما يقولون أن يتعامل مع شاب لم يكمل العشرين بعد بشعره الطويل وملابسه الممزقة، كنت أرغب فى الحفاظ على عمارة من ناحية، ورضاها ويأسها منى من ناحية أخرى، لكنها كانت أكثر حنكة منى، فلم تتأثر بما أفعل، ولم تتشغل بما يردها عنى، ولا أعلم هل المال يجلب المال حقًا، أم أن عمارة الشاطر المغامر هو الذى لم يرد لى الخسارة، فما رميت إلا وأصبت، فاستهوانى الأمر يومًا بعد يوم، وصرت أمر على المكتب فى الأسبوع ثلاث أو أربع مرات، وكلما ربحنا صفقة دبرت رحلة لمنطقة لم أرها فى أوروبا من قبل، فأحمل أصدقائى وأغزو بهم الصحارى والغابات، لم تشغلنى الجامعة فى شىء! فما الذى يمكن أن يدرسه العلماء بنظاراتهم السميكة وكتبهم الغليظة التى لا تفهم أكثر من حرص رجال أعمال متواضع، وهل كان عمارة طالب علم فى روما أو المدائن حين أنتج أسطورته؟ هل كان إلا مغامرًا كتب تاريخه على هواه؟ فأرسل لأهله قائلا اخلعونى فقد خلعت نفسى منكم، واتركونى وعمّرًا على السفينة المتجهة إلى بلاد النجاشى، وخل بينى يا ابن العاص وبين امرأتك، فهى مهرة لست فارسها وما ينبغى لها، وإن تركنا البحر فخذ وجه النجاشى فى حضنك،

وأعطنى جاريته الرومية، اتركنى يا ابن العاص وأرسل للعبد من خلفي قل: هذا ابن عمنا جاء بعطر وزيت ومال بجاريتك، قل له إن: ابن عمنا أخطأ ونحن نخشى على أنفسنا أن يصيبنا شيء من غضبك، أما أنا فأسطورتى قد اكتملت، وأتممت اليوم ذكرى، فصرت إلهًا للعشق، وسيدًا للهب المزدوج، ومبتغى كل أنثى فى ليلة عرس ألق، حتى وإن قيل تاه فى البرية، لا يلوى على شىء، ولا يمسسه شىء، لأننى الآن فكرة لا تنتهى، ولو نفخ فى إحليلها ألف ساحر وساحر.

(١١)

مـر يـومـان ولـم يـظـهـر الـشـبـح فـظـنـوا أنـه خـشـى سـطـوتـهـم ورحل، لكن مـحـمـداً كان مـحـتـجـزًا فـى مخفر الشرطة، فبعد أن تركهم توجه من فوره إلى بيت الشيخ سعد وبرك على صدره إلى أن أعـاد له نـقـوده، لـكـن الخـدم كـانـوا قـد أسـرعـوا إلى مـخـفـر الـشـرطـة وأحـضـروا الجـنـد، فـى الـصـبـاح انـتـظـره رفـاقـه فـى المينـاء فلم يأت، ذهـبـوا إلى حـجـرته فـى الـظـهـيـرة فـوجـدوا الأعـراب يتوعدونه بـالقتل، عادوا فـأخـبـروا حـمـيد الـديـن ليـبـلغ الـشـرطـة عن غـيـابه، لكنه فـوجـئ بـاحـتـجـازه لـديـهم، حـاول أن يسترضى الشيخ سعد لكن الأمر كان قد أصبح أكبر مما يـتـوقـع، فـقـد ذهـب الأعـراب إلى الأمـيـر يـشـتـكـون من يـمـنـى ضرب صـبـيـانـهم وسـرق أغـنـامـهم واسـتـولى على مـضـاربـهم، وقال إنه لا يعترف بالأمير أو غيره، فخشى حميد الدين على

مصالحه مع الإمارة، فعاد يسب ويلعن وجه الشؤم وجالب المصائب.

فى الصباح أخذه الحرس إلى الأمير خالد مسئول أمن الإمارة، وكان الأمير فى ذلك الوقت مشغولا بجواد عصى أسقط سائسه عن ظهره وطاح بكل ما فى وجهه، كان الهرج والمرج قد سيطرا على المكان، وتفرق الناس ما بين خائف ومضطرب لأجل السائس، يومها ألقى الأمير نظرة على الجواد الهائج وقال اقتلوه، لكن السجين رأى غير ذلك، فهو نوع نادر من الجياد، لم يوضع على ظهره سرج قط، ولو أحسن سائسه التفاهم معه لاستطاع ترويضه. هكذا قال للأمير، فضحك الأمير قائلًا: وأى خبير أنت؟ قال أنا من حضرموت، عايشت هذا النوع حياتى كلها، ولو منحتنى الفرصة لجعلتك تمتطى ظهره بعد ساعة واحدة. تأمل الأمير حديثه وهيئته وبنيانه، واستوعب أنه الرجل الذى أقلق الأعراب فى مقامهم السنوى، فقال مناورًا: وهل تستطيع؟ قال لو لم أفعل فعلقنى على بابك حتى أموت ولا أرجع إلى بلادى، فابتسم الأمير دهشة من ثقته الزائدة، ثم أومأ بالموافقة، فخلع محمدٌ ملابسه وأخذ يناور الجواد حتى اقترب منه، ثم فك سرجه ومسح على عنقه ثم تركه من جديد، تعجب الواقفون من سيطرته عليه ثم تركه له، لكنه كان واثقًا من قدرته على خلق الألفة بينه وبين الجواد صغير السن، ودون أن يهجم عليه مد يده وأخذ يسايره فى المشى

والركض، يبتعد عنه تارة ويقترب منه أخرى، حتى تشكك الجواد فى نواياه، واستسلم للعب معه، فراح يتشمم اليد الممتلئة بالسكر ويسير بجانبه كراقصين على قمة جبل، دامت الملاطفة والتودد أمام الجميع والأمير يرقب من كرسيه فى الظل حركة أليفين التقيا فى بلاد غريبة، بعدها استسلم الجواد كأنه يعطى إذنًا لصاحبه بالركوب، فامتطاه دون سرج أو لجام، ودار به عدة دورات قبل أن ينزل عنه ويدلكه بالماء البارد والحجر الناعم، ثم وضع له عشبًا على سور الحديقة وتركه يستريح. سأله الأمير بتعجب عما فعل، فقال هل يغضب الحبيب حبيبته؟ هكذا الخيل يا سيدى، تغضب وترضى، ولا ينبغى التشكك فى نواياها الطيبة. فهم الأمير من حديثه أنه خبير بالحب، لكنه لم يرد أن يتباسط معه قبل أن يحقق فى شأن الأعراب والشيخ سعد. قال لو كان الأمير مكانى ما فعل غير ما فعلت، ثم شرح القصة من بدئها حتى وقوفه أمامه، قال لا يغفر لك إلا ما فعلت مع الجواد، وما أظنك إلا قاطع طريق أو سائس خيل. لم يجد محمد ما يرد به عليه، لكن خالدًا أردف: أما الشيخ سعد فلا شأن لك به، وأما الأعراب فلا شأن لنا بك ولا بهم.

يومها فهم من لهجة الأمير أنه غير راغب فى وجود الأعراب، فخرج من القصر عازمًا على حسم الأمر، لكنه ما إن وصل إلى أصحابه حتى علم أنه فقد عمله، وليس له مكان بينهم، فراح يتجول فى المكان وقد ضاقت الدنيا عليه، قادته

قدماه إلى رصيف الميناء، حيث الذين يعملون فى شحن السفن وتفريغها، وجدهم نائمين على الرصيف كالذباب، حتى دوت صرخة بعثت الحياة فيهم، فقد وصلت سفينة تحتاج إلى العشرات كى يفرغوا شحنتها، ساعده بنيانه القوى على المزاحمة حتى وصل إلى رجل يفاوض بضعة رجال فى مقدمة الجميع، قال الرجل خمسين فقالوا مئة، قال ستين فقالوا تسعين، فأقسم أنه لا يستطيع أن يدفع أكثر، لكنهم أبوا وانفضوا من حوله، لكن شخصًا قوى البنية فتح يده قائلًا: وأنا وافقت. نظر الجميع نحو الغريب الذى يرونه لأول مرة وضحكوا قائلين لصاحب السفينة: دعه يفرغها وحده. ثم انسحبوا فانسحب الميناء خلفهم، وبقى الغريب وصاحب السفينة قابضين على يد بعضهما البعض، شعر الرجل أنه اختار الشخص الخطأ، لكن أبى الذى علم أن النقود ستكون بالجنيه المصرى قبض على الفرصة بأسنانه، وأقسم أنه سيفرغها قبل نهاية الليل لو اضطر للعمل وحده، ثم خرج إلى رفاقه فى توسعة الميناء، وأخذ يتفق سرًا مع عدد منهم كى يتبعوه، حين عاد بهم إلى الرصيف نادى فى عمال الميناء قائلًا: إن خمسين رجلا فى طريقهم إلى هنا، ومن يرغب فى العمل فليصعد السفينة قبل أن يأتوا. فلم تمر دقائق حتى بدأ الأقل شأنًا فى التسلل نحوها، وأخذوا يرشدونه إلى طريقة العمل، فشعر زعماؤهم أن الأمر خرج من أيديهم وليس أمامهم غير اللحاق بقائد لا يعرفونه.

كان العمل الجديد يعنى الرهان على الغيب، فلا أحد يعرف متى ستأتى سفينة ولا متى ستقلع، وحده محمد الحالم بما بعد التوسعة رأى أن مستقبله هنا، فجلس ينتظر مع المنتظرين على الرصيف، بينما ذهنه شارد فيمن استولوا على حجرته، وكيف يمكنه الخلاص منهم، بينما القادة القدامى للميناء لم ينسوا أنه سلبهم ملكهم، ولا سبيل لاسترداده بغير الخلاص منه، فراحت المناوشات الخفيفة تدور بينهم وبينه، ولأنه ذو يد لا تخطئ وقلب لا يعرف الخوف فقد كان النصر فى جانبه، لكنهم علموا بأمر الأعراب معه، ومن لا يستطيع حماية بيته فلا يجب أن يبدو أسدًا أمام الناس، هكذا راحو يتندرون عليه حتى ضاق صدره، وقرر العودة إلى عمله القديم.

سأل عنه الأعراب فقيل إنه فى الخان، وما كاد محمد يدخل الخان حتى انطلقت عدة رصاصات أصابت إحداها كتفه، فأغلق الناس الخان على أنفسهم، وفر من أطلقوا النار نحو أغنامهم وإبلهم، ولما رأى الناس لا يجرءون على الاقتراب منه احتمل على نفسه وذهب إلى عجوز يداوى حمير الميناء، أعطاه ما معه من مال وطلب منه مداواته، حين تماثل للشفاء كان الحنق قد أنضج بداخله معاوية القديم، فانتظر حتى نزلت الظلمة إلى الأرض وهجم على حراس الغنم فحصد منهم جماعة ربطها فى حبل أمام الخان، وكتب على الباب: هؤلاء أهل الغنم وأنا صاحب الحجرة.

فى الصباح استرد الأعراب أسراهم وهاموا على وجوههم بحثًا عنه، لكنهم لم يجدو له أثرًا، حتى نادى رجلٌ بالقرب من الميناء إن الأعراب نالوا من غريمهم ومزقوا أعضاءه، كان الرجل يجرى مستغيثًا وعلى ثيابه أثر دم وفى عينيه هلع بلا حد، فقبض عليه الأعراب واستداروا به حيث جثة غريمهم ليتأكدوا بأم أعينهم، وتبعهم كل من يعرف ومن لا يعرف بالأمر نحو خنادق الميناء، هنالك وجدوا بالفعل الملابس ممزقة والدم يملأ المكان، لكنهم لم يجدوا الجثة، فراحوا يشعلون المشاعل ويبحثون عنها فى الخنادق، وظلوا ساعة من الزمن ما بين الشك واليقين يبحثون فى الخنادق حتى رأوا على البعد أغنامهم وإبلهم تنعر فى الصحراء وقد اشتعلت النار فى أجسامها، وحين هرعوا لينقذوا أموالهم من الروح الشريرة التى أصابتها، كان غريمهم قد اتخذ طريقه من جانب آخر نحو الخان، وكان كبيرهم الذى لا توحى ملامحه بالطيبة محمولا على كتفيه ولا يعرف أى مصير ينتظره، لم يكن أمامه غير أن يصلبه على باب الخان كاتبًا على الحائط: هذا جزاء من مزق الصك ولم يعترف بالأمير. ولم يكن أمام الأعراب غير أن يهرعوا إلى الإمارة ليجثوا على أقدامهم معترفين بذنبهم وطالبين حمايتهم من اليمنى الذى قضى على كل شيء، فصالحهم عليه الأمير، وكتب له صكًا بالغرفة وما حولها من أرض.

يومها خرج والدى من بيت الإمارة فوجد جدة كلها فى انتظاره كبطل أعاد للمدينة شرفها، واعتذر له حميد الدين

قـائـلاً إنه أصـبـح عـجـوزًا بمـا يـكـفى، ويـحـتـاج من يـعـاونه فى العمل، لـكن سـفـيـنـة كبيـرة كانت قد وصلت الميناء، فهتف فيه رجـال الـشـحن قـائـلـين: أنت رئـيـسـنـا يـامـحـمـد ولا يمـكـنـنـا التفاوض على شيء بدونك.

* * *

(١٢)

كنا على قمة الجبل، ولا أعرف هل كان وجه أبى سعيد الذى ينبثق منه النور أم أن أشعة الشمس والصخور العاكسة للضوء هى التى جعلته مضيئًا بهذا القدر، رحت أتطلع إلى ذلك المشهد مشدوهًا حتى وقعت عينه علىّ فوضع وجهه فى راحته قائلًا: لم تنظر إلىّ هكذا؟ شعرت أننى أخجلته ولم أستطع أن أخبره بما أرى، فقلت: بالله عليك، من يكون أبو سعيد؟ لا أعلم ما الذى جعله يضحك حتى لمعت عيناه بالدموع، حين انتهى مسح على وجهه فرأيت كأن فراشات بيض وخضر ينمن على كتفيه، رأيت عينيه تشردان إلى ماض بعيد حيث البلاد التى ودعها منذ سنين طويلة، قال: أنا الابن الوحيد لرجل بكر أبيه، تزوج من نساء كثيرات ولم يعمرن معه لأنه كان دائم البحث عن الولد، حتى التقى بجماعة من التجار المصريين، كانوا يشترون الزيتون من حقولنا، وعاما

بعد عام قامت له معهم صحبة وصاروا إخوة، كل منهم مطلع على معاش الآخر، وفى يوم كان والدى فى مصر لأمر ما فاستضافوه فى ديارهم، وهناك لمحت عينه فتاةً مال قلبه لها، وتعلق به هاجس أنها من ستنجب له الولد، سأل أصحابه لمن هذه الفتاة فقال والدها ابنتى، قال أسألك بالله طلبًا لا ترده، فقال لو جئت على نفسى ما منعتها عنك، قال زوجنى ابنتك هذه، فأسقط فى يد الرجل. قالوا: أنت أكبر منها بعشرين عامًا، قال: أنا ما زلت شابًا لم أتخط الخامسة والأربعين. قالوا أنت كثير الزواج وتبحث عن ولد وهذا شيء بيد الله، قال لن أتزوج بعدها. قالوا: قد تطلقها، قال لن أطلق من سأكتب لها نصف ما أملك. قال: أنت متعجل، قال إنى أرى أن الله سيرزقنى منها ما أرجو.

عقدوا له عليها وعاد بها إلى ديارنا، أقامت معه عشر سنين يئس فيها وحفظ وعده بألا يطلقها أو يتزوج عليها حتى مَنَّ الله عليهما بى، ورغم انشغاله بما يجرى فى القدس وما حولها فإنه أقام حفلا دعا إليه كل من يعرف، وأطعم المساكين والفقراء وعابرى السبيل عدة أيام، وعمل على أن يترك لهذا الوريث ما يفتخر به من المال والشرف، فكرس نفسه أكثر لحماية الأرض ومقاطعة اليهود وجمع شمل الناس ونصرة المستضعفين، وحين مات جدى المصرى قال أبى لأخوالى لا أريد منكم ميراثًا بقدر ما أريد أهلًا لابنى الوحيد، ولما استشهد أبى جاءوا للعزاء وطلبوا عودة أمى معهم، لكن

عمى اعترض على تربية ابن أخيه بعيدًا عن أرضه وماله وأهلها، ولما كانت فكرة إقامة سيدة فى شبابها وحيدة مع صبى صغير تثير مطامع الجميع فقد عرض عمى الزواج منها، وافقت ووافق أهلها ولم نعد نراهم إلا من العام إلى العام.

كنت قد حفظت قدرًا من القرآن فى حياة أبى على يد محفظ عجوز، لكننى بعد وفاته تمردت على المعلم ورفضت الذهاب إليه، ولم يكن لعمى أن يجبرنى على شيء، فنصح أمى بدخولى مدرسة نظامية، لكن العناد كان جزءًا من التركة التى ورثتها، فرغم أننى انتظمت فى الدراسة وصرت شغوفًا بمعرفة القراءة والحساب فإننى لم أر فى عمى ما يستهوينى، وكلما حاول التقرب منى كنت أشعر بكراهية تجاهه، ربما لأننى كنت أراه متوافقًا مع الإنجليز واليهود. وقد زاد الأمر صعوبة بعدما أحضرت وعدد من زملائى إطارًا خشبيًا وورقًا وحبرًا وجلسنا نكتب عليه ما يعن لنا فى شتمهم، لكن ذلك لم يرق لمدير المدرسة فكسر الإطار ومزق الورق، اعترضنا على فعله فقام بفصلنا. قالت أمى إننى أعادى الإنجليز وثارت فى وجه عمى الذى استرضى المدير كى أعود للدراسة من جديد. فى العام التالى - وكان الأخير بالنسبة لى فى المدرسة الابتدائية - ضربنا عرض الحائط بما قاله المدير لأولياء أمورنا، ألغينا فكرة الإطار وقمنا بشراء ورق الكربون لننسخ من الموضوع عدة صفحات يتم تداولها بين طلاب المدرسة،

نجحت الفكرة بشكل جعلنا أبطالا سريين بين التلاميذ، فقررنا فضح من يتعامل مع اليهود أو الإنجليز، وضعنا أسماءهم فى صفحة أسميناها "الخونة"، وجاء على رأسها اسم المدير، وأصر أحدنا على أن تصل إليه نسخة من هذه الصفحة، فرشونا أحد السعاة ليأخذها فى مظروف قائلا إنه وجده على الأرض وعليه اسمه فأحضره إليه، بالطبع انكشف الأمر لأن العامل أخذ الرشوة والخطاب وأسماءنا وذهب إلى المدير بالقصة كلها، كان الفصل هذه المرة نهائيًا مع الحرمان من دخول الامتحان، وكانت تلك هى الكارثة الكبرى. ثارت أمى فى وجهى ولطمت خدها، وحين عاد عمى إلى المنزل ثارت فى وجهه وأعلنت أنها ستطلق إن لم أدخل الامتحان وأحصل على الشهادة، كان هذا أكبر ما يهدد مصالح عمى الذى يعيش وأولاده على جانب كبير من أرضنا، ورغم ثورته المضادة فإنه ذهب فى نهاية الليل إلى بيت المدير، ويبدو أن ثمة مصالح كبيرة بينهما هددتها أمى بثورتها، فاتفقا على دخولى الامتحان سرًا.. كنت أذهب متخفيًا بعد دخول الطلاب وبدء وقت الامتحان، فأجلس فى حجرة السكرتير كى أجيب على الأسئلة وأظل هناك حتى تفرغ المدرسة فأتسلل عائدًا إلى البيت، ويبدو أن الاتفاق الذى توصل إليه الثلاثى - أمى، وعمى، والمدير - كان حصولى بأى شكل على الشهادة ثم انتقالى إلى أخوالى فى مصر لأكمل تعليمى، فبمجرد أن عدت من المدرسة وجدت خالى سعدًا

يرحب بى فى بيتنا، آخبرتنى أمى أن ابنته ستتزوج وعلى الذهاب لحضور العُرس إلى أن تلحق بنا، فأخذنى حتى قبل أن أعرف نتيجة الامتحان أو أودع أيًا من أصحابى.

كان خالى يسكن بالقرب من مسجد السيدة فى القاهرة، وكان يذهب إلى الحضرة التى تقام فى المسجد كل اثنين وخميس، ولأنه أخذ على عاتقه أن يذهب بى إلى كل الأماكن الشهيرة فى القاهرة فقد دار بى جولة فى مساجد الحسين والسيدة نفيسة والسيدة عائشة والإمام الشافعى، وذات مرة أخذنى إلى طنطا حيث مسجد السيد البدوى، كان يرى فى الطريقة الرفاعية المنهج الصحيح للتمسك بالدين، فداوم على أورادها وأدعيتها، وعادة ما كان يستضيف مشايخها فى مولد السيدة. بانتقالى إليه عرفت أن ميراث أمى بيت لا أعرف مكانه، أما هو فلا أعرف بالضبط أين أملاكه التى تشمل ثلاثة أفدنة فى الشرقية يضع إيجارها على مرتبه من وزارة الأوقاف ليتفرغ لزيارة الأولياء واستقبال ضيوفهم.

بالطبع لم يكن هناك عرس، فالأمر كله كان حيلة لإبعادى عن اليهود والإنجليز، فبعد شهر جاءت رسالة من أمى بها شهادتى الابتدائية وباقى الأوراق التى دفع بها خالى إلى مدرسة عابدين القريبة من السيدة، كنت بمثابة فاكهة فى غير أوانها للمصريين، فالكل يرغب فى التعرف على الطالب الفلسطينى الذى مات والده على يد اليهود، كثير منهم

عاملنى بود وقلة هى التى أخذت على عاتقها النفور من تدليلهم لى، لم تمر شهور حتى تعرفت على أغلب الناس فى السيدة وعابدين، وصارت لى صداقات ومعارف فى كل مكان، كان من بين هذه الصداقات مجموعة من الجوالة التابعين لجماعة الإخوان، كنا نخصص يوم الجمعة للذهاب إلى الأحياء الشعبية لجمع تبرعات للفقراء، بعد عدة أشهر تعرفت على عدد أكبر من الإخوان وذهبت للقاء الشيخ البنا فى باب اللوق، خطب بنا خطبة الجمعة فى المصلى الواسع أسفل العمارة الخاصة بالجماعة، تحدث عن الجهاد وضرورته، تحدث عن فلسطين وما يحدث فيها، كانت نقطة انطلاقه الحديث الشريف "من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق"، لم يتسن لنا لقاء البنا فى ذلك اليوم، لكن التلمسانى قابلنا، كان ودودًا وعلى وجهه علامات السماحة والتقى، يومها سألنى عن فلسطين وأحوالها فحكيت كل ما أعرف، وعدنى بأن يقابلنى بالشيخ فى مرة قادمة، وأوصى بى عددًا من أصدقائه، بعدها شعرت أننى أنتمى إلى هذه الجماعة ومبادئها فى الجهاد، وأن والدى العجوز لم يمت لكنه جاء إلى مصر وتسمى بالتلمسانى، بدأت جولاتنا تنتقل من أحياء القاهرة إلى الريف، صرنا نستقل القطار يوم الجمعة ونذهب إلى خارج القاهرة، ويبدو أن الناس فى مصر كانوا يعرفون عن فلسطين وما يحاك لها أكثر مما يعرف الفلسطينيون أنفسهم، لكننى

كنت شاهد عيان، وكان الجميع ينصت لى وأنا أتحدث عن استيلائهم كل يوم على أرض جديدة إما بالقوة أو الخيانة أو الترهيب منهم، أتحدث عن رجال المعبد اليهودى بملابسهم السوداء ورءوسهم الحليقة، وعن الأسلحة البريطانية التى تذهب إليهم سرًا لنرى رصاصها فى صدورنا، عن المحاصيل التى صارت تفسد على الدوام، والفلاحين الذين غرقوا فى الديون، والتجارة التى بارت، والحلف البريطانى اليهودى على إخراجنا من ديارنا، ويبدو أن الحديث من شاهد عيان كان أقوى مما تقوله الصحف التى يتناولها المصريون، كانت المقاهى مجال عملنا فى المدن، والمساجد وحلقات الذكر فى الريف، وكنا نعود محملين دومًا بالمال والسلام لشيوخنا، وصارت الرحلة تتسع من الوجه البحرى إلى القبلى، وقد أعجب حماسى عددًا من الإخوة الأكبر سنًا، فحدثوا "حامد شريت" فى ضمى يوم المعسكر فوافق، كنا نذهب إلى منطقة المقطم فنتراص خلف سواتر رملية لنصوب على أهداف ثابتة ومتحركة، كنت أرى فى كل هدف منها يهوديًا طيبًا يغوى الناس بالدين كى يستولى على أرضهم صاحب المزرعة، وكان التدريب مشتملًا على عبور موانع واشتباك بالأيدى والعصى، ظللت أداوم على يوم المعسكر مدة عام، بعدها كانت الحرب العالمية قد بدأت، وكان البنا قد أعطى أوامره بتوسيع قاعدة التدريب، فذهبت المعسكرات إلى المنيا والمنصورة والإسماعيلية وبور سعيد وبنى سويف وأسيوط وغيرها من

الأقاليم، فيكفى أن يكون هناك مكان خفيٌّ عن الناس والحكومة ليصبح معسكرًا، فى ذلك الوقت كنت قد أوشكت على الانتهاء من التوجيهية وبلوغ السادسة عشرة، طلب منى الشيخ محمود عبد الحليم أن أذهب إلى المنيا لأدرب شبيبة الجوالة هناك، فرفضت حتى لا أضيع عامى الدراسى الأخير، فاعتبر ذلك عصيانًا لا يجوز من أخ فى التنظيم السرى، وأصر على أمره وأصررت على رفضى، حتى تدخل التلمسانى فأنصفنى.

حين أنهيت الامتحان انتهزت مشكلة وقعت بينى وبين زوجة خالى فذهبت إلى المنيا لتدريب الشبيبة ونقل الأسلحة من معسكرات الجيش البريطانى إلى أماكن تخزينها، وهناك فتحت محلاً للعطارة جعلته مركزًا لتكوين أسر جوالة جديدة، وقمت بالخطابة فى مساجد القرى مازجًا فى خطابى بين الصوفية الحقة والدعوة إلى جهاد المحتل فى مصر وفلسطين، وكان موقف السيد البدوى فى جهاده مع بيبرس ضد الصليبيين المثل الذى أضربه لجذب متصوفى القرى إلى الجهاد ودعمه بالمال أو السلاح، وكان استشهاد الحسين فى كربلاء أكثر ما يشد الحضور انتباهًا وخشوعًا وندمًا، وكان حديث رسول الله "من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من نفاق"، هو ذروة الخطاب الذى انتقلت به بين مساجد القرى الفقيرة لعدة أشهر.

مرة أخرى صدرت الأوامر بتوجهى إلى أسيوط، فسلمت

الأمـر لأخ جـاء بـدلا مـنـى وتـوجـهت من فـورى إلى هـنـاك، ولم تـمض شـهـور حـتـى اسـتـدعـيت إلى الـقـاهـرة، فـقـد تـوفـى خـالـى فـى إحدى المظاهـرات التى اعترضت على أحداث ١٩٤٢ حين حاصـر الإنجـلـيـز قـصـر عـابـديـن مـجـبـريـن المـلك عـلـى تـغـيـيـر الوزارة، زاد حقدى على البريطانيين وطلبت من التلمسانى أن نقوم بعمليات ضدهم، فابتسم قائلًا: هناك شيء آخر أريدك أن تـقـوم بـه. كـان هـذا الـشـيء إرسـال شـحـنـة مـن الأسـلـحـة إلى فلسطين، فتوجهت مع مجموعة من الإخوة إلى عزبة الشيخ فرغلى فى الإسماعيلية، حيث مخزن السلاح المدفون أسفل زريبة مهجورة وسط مزرعة مانجو، حمَّلنا العربات بالسلاح والـفـاكـهـة وعـبـرنـا الـحـدود عـلـى هـيـئـة تـجـار مسـيـحـيـين، حـين وصـلـنـا إلى بـغـيـتـنـا تـركـت الـرجـال وذهـبـت لـرؤيـة أمـى فـى القدس، كان الحال قد تغير، فأمى التى لم تعرف بموت خالى أصبحت شاحبة ومهمومة، وأصبح لها ثلاثة أولاد من عمى، حين بدأت فى الحديث عن فلسطين نصحتنى بعدم الخوض فـى ذلك أمـامـه، فـهـمت أنـهـا عـلـى خـلاف مـعـه لـتـعـامـلـه مـع الـبـريـطـانـيـين، قـالـت يـحـاول أن يـحـمـى مـصـالـحـه، وقـلـت تـأتـين مـعـى إلى مـصـر، قـالـت أولادى هـنـا وهـو لن يـقـبـل، قـلـت لـدى عمل على أن أنجزه.

كـان عـلـى أن أقـيـم مـعـسـكـرات لـتـدريـب الـرجـال فـى خـان يـونـس والجـلـيـل والـصـالـحـيـة، حـيـث وفَّـر لـنـا الإخـوة أمـاكـن الـتـدريـب، فـظـلـلـنـا قـرابـة عـام فـى عـمـل مـتـواصـل حـتـى أصـبـح

لدينا أكثر من مائتى رجل قادرين على استعمال البنادق وزرع المتفجرات، تلك التى علمنا كميائى من القاهرة كيفية عملها، وقمنا بعمل ورشة فى الخليل لتصنيع السلاح، لم تكن فاعليته كافية لكنها كانت خطوة على الطريق لأن يبدأ الرجال مشوارهم الصعب، كانت أولى العمليات التى ذهبت فيها تقوم على استهداف عدد من اليهود فى إحدى القرى التى اغتصبوها، كمنا لهم حتى الواحدة ليلًا، قطعنا الأسلاك الشائكة وأعملنا السلاح الأبيض فى الحراس، ثم تقدمنا مسافة تسمح بإلقاء عبواتنا الناسفة على مخزن السلاح لكنه لم يدو كما توقعنا، ورغم أن العملية فشلت لكن اليهود تصايحوا وجعلوها جريمة كبرى، واعتبرها الفلسطينيون نصرًا عظيمًا شجع الكثيرين على الانضمام إلى الرجال، كانت النتيجة سيئة بالفعل، فقد وصل البريطانيون إلى المعسكر الذى انطلقنا منه، وقبضوا على صاحب البيت الذى وجدوا فى حظيرته أكياس رمل وفوارغ أعيرة، وبدوره بعد التعذيب ألقى لهم بأسمائنا، فحمدت الله أن الرجل لا يعرف عنى أكثر من هذا، وأبلغت "السندى" فى رسالتى أن الرجال يحتاجون إلى الكتمان والتدريب على جمع المعلومات الصحيحة قبل حمل السلاح والخروج للقتال، فاعتبرنى أعترف بفشلى وجاء رده بالعودة إلى القاهرة، عدت أشكو للتلمسانى ما فعله السندى فأبلغنى أنه الذى طلب عودتى إلى مصر، وأن على أن أدفع بأوراقى إلى الجامعة .

كان عام ٤٤ الدراسي قد بدأ فى كلية دار العلوم، وكانت الجماعة تمتلك من المال والسلاح والمريدين الكثير، فساد اتجاه بين فقهائها بأنهم أكبر حزب على الساحة، وأن حزب الوفد عدوهم الرئيسى الذى يحول بينهم وبين الوزارة، ولا سبيل للوصول إلى السلطة دون إسقاطه، وشاع أن محمود العيسوى الذى قتل على ماهر من الإخوان، رغم أن العيسوى اعترف أكثر من مرة فى التحقيق أنه من أتباع الحزب الوطنى، لكن الجماعة رأت إلصاق الإشاعة بالإخوان إعلانًا جيدًا عن قدرتها فى جمع المال والسلاح والأتباع الذين يقدرون بخمسة وأربعين ألف جوال إلى جانب النظام الخاص.

مع بداية عام ٤٥ استدعانى التلمسانى إلى بيته وأخبرنى أن الجماعة قررت ضمى من جديد إلى النظام الخاص، ورغم أننى فرحت بالعودة إلى الجناح المسلح للجماعة لكننى قلت: لى شرط واحد. قال: هاته! قلت: أن توجه العمليات التى أكلف بها ضد اليهود والبريطانيين. فابتسم قائلًا: لن نختلف. بدأت فى حضور الاجتماعات وتنفيذ عدد من العمليات، وكان الإخوان أبعد ما يكونون عن الاتهام، وشهد نهاية العام رسوبى فى الامتحان وانفجار ضخم لأحد مخازن السلاح البريطانية فى الجبل الأحمر، لم تكن العملية بالتحديد تفجير للمخزن ولكن نهبه ثم تفجير جزء منه. ذهبنا إلى هناك بمعاونة بعض البريطانيين، وقمنا بتحميل

صناديق القنابل والرصاص وفجرنا ما تبقى، ثارت الاتهامات بين الحكومة والوفد ودارت علامات الاستفهام عن الفاعل حتى ألصقت فى النهاية بالشيوعيين المخربين.

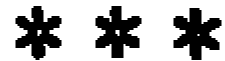
فى مايو من عام ١٩٤٦ احتفلنا بصدور العدد الأول من جريدة "الإخوان المسلمين" وبدت الحالة مطمئنة، فالجميع يضع الجماعة على قائمة أولوياته سواء بالرفض أو التفاوض أو التعاون، وهذا رفع من جماهيرية الجماعة، وكان علينا أن نرفع من تواجدنا أكثر بالهجوم على البريطانيين، فشهد هذا العام العديد من حوادث الانتقام منهم، لكن عدداً من زملائنا وقعوا فى قبضة البوليس السياسى، بالطبع لم يفصحوا عن هويتهم أو علاقتهم بالجهاز الخاص، فكل ما قالوه أنهم من مريدى الجماعة ولم يتلقوا أية أوامر من أى اتجاه، وهم مثل غيرهم يطالبون بالجلاء ورحيل الإنجليز عن مصر، لكنهم بعد عام من التحقيق حكم عليهم أحمد الخازندار بالإعدام والمؤبد، وشعر عبد الرحمن السندى أن الحكم موجه ضده هو، وأنه لن يكون رئيساً للنظام الخاص وهذا الرجل على وجه الأرض، فاتخذ قراراً باغتياله، ومن جانبى قمت بالهجوم على شيكوريل وعمر أفندى وهانو وغيرها من المحال بالإضافة إلى معسكرات الإنجليز ورجالهم وضباطهم.

لكن عام ٤٨ كان عام النكبة بحق، ففى بدايته اغتال الجهاز الخازندار، وأعلنت بريطانيا رفعها الحماية عن

فلسطين، فقامت عصابات اليهود بعدد من المذابح، وطردوا الفلسطينيين من الشمال واحتلوا جزءًا من القدس، وقررت جامعة الدول الحرب تحت قيادة الملك عبد الله، وكدنا ندخل القدس لولا أن عبد الله وافق على هدنة تسللت خلالها لأطمئن على أمى، فعلمت من عمى أنها استشهدت فى هجوم لمنظمة "إتسل" على القدس، ولم تلبث الهدنة أن انتهت، لكن الذخيرة التى كان يجب أن نقذفهم بها كانت تنفجر فينا نحن، بينما اليهود نظموا خطوطهم، وأتوا بمدفعية ومدرعات أخذت تقصفنا فى العمق، فقضينا أسوأ أيامنا تائهين فى الصحراء.

لم تكن الحرب على الجبهة فقط، فقد انتقل أوارها إلى القاهرة، فخرج الطلبة يندددون بالهدنة والأسلحة، ووقعت الاشتباكات الدامية بينهم وبين الشرطة، ولم ينته الأمر إلا بمقتل حكمدار القاهرة سليم زكى، وكان البوليس قد وقع - فى السيارة الجيب التى انقلبت على جبل المقطم - على وثائق بأسماء الجهاز الخاص، فلم يجد النقراشى غير الجماعة ليلصق بها مقتل الحكمدار، وأمر بتتبع أعضاء الجهاز، فضبط البوليس السياسى مخزن الأسلحة الذى فى عزبة الشيخ فرغلى، وآخر فى جبل المقطم، ورفع النقراشى دعوى قضائية لمحاكمة أعضاء الجهاز، وأصدر قرارًا بوقف الجريدة وحظر نشاط الجماعة فى شهر ديسمبر، فقرر الجهاز التخلص من كل شىء بقتل النقراشى ونسف المحكمة.

لم يكن أبو سعيد يحكى بقدر ما كان يبكى وهو يتذكر أحداث ٤٨، لكنه ظل متماسكًا حتى وصل إلى ما أسماه بعام الحزن، هذا الذى ضبطت فيه المجموعة التى ذهبت لنسف المحكمة يوم ٨ يناير، فقد كانت الأمور على أشدها عقب اغتيال النقراشى، وكان الجهاز يدفع بالأمور نحو الحافة بأقصى ما يستطيع، هذه الحافة التى هوى من عليها كل شيء باغتيال الإمام على سلم جمعية الشبان المسلمين فى وضح النهار.



(١)

خريف ١٩٧٨

عدت إلى بلادنا حيث أمى التى لم تنم منذ أن حدثتنى بأمر العودة، كانت الرياض كما تركتها لم تتغير، فقط أصبح وعى الناس بالسياسة والحديث فيها أكثر من ذى قبل، حين تركتها كانت غارقة فى صمت يشبه صمت المصريين حين انهزم جيشهم فى سيناء، كانت العلاقة وقتها بين المملكة ومصر متوترة إلى حد بعيد، كانت بعض الطائرات المصرية تقصف الحدود الجنوبية للمملكة، بينما الملك يساند بكل ما يملك الإمام البدر، تطاولت إذاعة عبد الناصر أكثر من مرة على سعود وفيصل، ومول الأخيران محاولات عديدة لاغتيال ناصر، لكن الناس كانت ترفض هذا وذاك، وقلة فى بلادى هى التى كانت ترى ناصر زعيمًا حقيقيًا للعرب. بسقوط

المصريين فى الهزيمة سقط الجميع، حتى الذين كانوا يناصرون الإمام انسحبوا مدركين أنهم أضاعوا أعمارهم هباء، كانت فرصة لأن يكف الملك يده عن تمويل البدر، بل إن إقامته كانت أشبه بمنفى فى أرضنا، فى حين حسم اليمنيون أمرهم لصالح الجمهوريين، وانسحبت بريطانيا من عدن، وكأن الجميع كان ينتظر هذا السقوط ليتوقف عن عبثه، لم تشهد الرياض فرحة مثلما حدث مع انتصار المصريين على اليهود فى ٧٣، يومها كان الجميع يطلق النيران فى الهواء فرحًا وابتهاجًا بالنصر، لكن السادات صاحب المفاجآت ألزم الجميع أماكنهم حين أعلن استعداده الذهاب إلى إسرائيل، تركته منذ سنوات والناس فرحة بانتصاره المجيد، وعدت لأراهم ينصتون إلى المذياع ثم ينفجرون لاعنين إياه، وها هو الملك خالد وصدام حسين عزلا مصر من جامعة الدول العربية ونقلا مقرها من القاهرة إلى تونس.

دفعت أمى من خلال اتصالاتها بأوراقى للعام الثانى بكلية الاقتصاد والعلوم الإدارية بجامعة الملك، لكن علاقتها بزوجتى أصبحت متوترة للغاية، زوجتى لا ترغب فى الإقامة بالرياض وأمى أخذت فى عنادها، وصرت موزعًا بين إرضائها ومصالحة ابنة خالى، وكلما أعيانى التعب والحيلة هربت إلى الدراسة، لكنها صممت على تسلمى أوراق الملكية كاملة، فقد وصلت إلى سن الرشد وعلى أن أتسلم أملاكى من خالى، لم أشأ أن أشعر الرجل بالحرج، ولم أرد أن أغضبها ،فصرت ما

بين المطرقة والسندان، حتى فوجئت به فى الجامعة يتحدث مع رئيسها، لم أشأ أن أشعره بوجودى فمررت كأى طالب دون النظر إليه، لكنه صاح بى فعدت وسلمت وسألته عن الأحوال، قدمنى إلى الرئيس قائلا إننى صاحب الشركة، بوغتُّ بالكلمة ولم أشأ أن أعقب، بعد أن أنهى حديثه المقتضب مع الرجل أمسك بذراعى فى ود وقال: لقد أصبحت رجلًا، تدارك كلمته بابتسامة كبيرة وقال: قانونيًا. قلت: وهل يفيد هذا؟ قال: بالطبع، فقد عبرت الستين من عمرى كما ترى، وما عادت أستطيع أن أفعل كل شيء وحدى. أدركت أن أمى قد لوحت له بانتهاء الوصاية فحاول أن يكون كريمًا ويسبقها، لكن الحرج الذى يملؤنا لا يدع مساحة للوضوح، حاولت أن أغير مجرى الحديث فقلت إن ابنته على خلاف دائم مع أخته، قال: أعرف، وهى زوجتك فافعل ما شئت. ثم انتظر لحظات قبل أن يضيف: لو أردت تطليقها فافعل، وإن أردت الزواج عليها فقد فعل من هم خير منا، لكن لا تهنها. بدا لى أن الخلاف الأكبر ليس بين أمى وزوجتى ولكن بينها وبين خالى، ساعتها لم أعرف ما الذى يجب علىَّ قوله حتى قطع الصمت الذى شملنا قائلًا: أرجو أن تمر علىَّ باكرًا كى ننهى إجراءات الوصاية. ثم تركنى ومضى دون أن يقبلنى كما تعود، شعرت أنه لو فعل لانهمرت دموعه أمامى كطفل.

حين عدت سألت أمى: هل خالى غضب منى فى شيء؟ قالت: وإن فعل؟! فهمت أن الخصومة بينهما بلغت حد ألا تبالى بغضبه، وإن كان الرجل لا يريد أن يخذل صديقه فى قبره. لم أشأ أن أتدخل فى أمورها مع أخيها فتركتها وصعدت إلى غرفتى. كان عبد الله يصرخ وأمه تبكى وأنا أسأل ولا أحد يجيب فى البيت، ظللت مع زوجتى حتى هدأت وفهمت أن أمى قالت لها أنت وأبيك عالة علينا، طلبت منى الطلاق يومها فتضاحكت وجلست ألاعب عبد الله حتى نام، ظلت هى على غضبها فتركتها ورحت أفتت حزنى على جواد فى الحديقة، حين رأتنى أمى أحادث بعض الخدم صرخت فىَّ أن أصعد إليها، قالت: إلى متى ستظل طفلًا؟ لقد كبرت وعليك ألا تتعامل من اليوم مع هؤلاء بتلك الطريقة، حاولت تهدئتها لكنها فاجأتنى بأن أذهب إلى المحامى كى نتحدث فى أمر رفع الوصاية، أخبرتها بما حدث بينى وبين خالى وأننا سنذهب غدًا، قالت: يجب أن تسرع فى هذا الأمر. سألتها عن السبب فلم تزد على أن قالت "الناس تسرقنا"، أدركت أن ثمة من سعى بالوشاية بينها وبين بهاء الدين، ولما شعر الأخير من أسئلتها المتزايدة عن العمل أنها تتعالى عليه وتشعره أنه موظف لديها قرر الانسحاب، لكن علاقته بأبى جعلته يؤثر الصبر حتى يسلمنى كل شيء.

ذهبنا إلى المحامى وقمنا بتفويضه فى إنهاء الأمر، كان خالى حزينًا وهو يوقع على الأوراق، سألته عما حدث بينه

وبين أخته فأخبرنى أن إخوتى لا يريدونه أن يدير العمل، وقدموا لها أدلة على أن فروعنا فى الخارج تشهد خسارة دائمة، أكد لى أن الأمر ليس بيده، وربما تحدث تجاوزات لكنه لا يستطيع الاستغناء عن أصحابها، أكد أيضًا أننا لا نستطيع أن نتهرب من دفع الضرائب ولا أن نتآمر على العاملين معنا كى لا ندفع مكافآتهم، وثمة منافسة عنيفة لفروعنا فى أمريكا الجنوبية من قبل شركات أكثر قوة. وأنه لا يحب الشركات المتعددة الجنسيات لأننا لا نعرف ميول أصحابها ولا أغراضهم، ولا يود أن يفاجأ بأنه مرغم على أشياء تتنافى مع مبادئه. احترمت صراحته وسألته عن السبب الذى لا أعرفه فى الخلاف بين ابنته وعمتها، قال: إن شكوكها نحوى جزء من خلافها هذا. وأضاف أن ابنته ليست سوى عمتها فى شبابها، بيروتية الهوى وترى الرياض سجنًا يموت من فيه أحياء. فأضفت: تود أن تكون سيدة مجتمع. فتمتم قائلًا: نعم. أدركت أن أمى لن تعيش مع امرأة لا تختلف عنها سوى فى عشرين عامًا من العمر. قلت: أنت المسئول أمامى عن كل شيء، وأنا المسئول الوحيد الآن عن الشركة، فلا تراجع امرأة من اليوم فى شيء. يومها نظر فى عينى بفرح وهو يقول: كأنه ما زال حيًا.

(١٤)

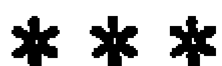
تحققت نبوءة أبى... فانتهت التوسعة وجاءت السفن الكبيرة من كل مكان، وصارت جدة مدينة لا تهدأ طيلة العام، وصار القادمون يبحثون عن أماكن للإقامة والتخزين، كان عمله بالميناء يدر عليه دخلًا وفيرًا، وكان ما حدث بينه وبين الأعراب قد جعله مقدَّمًا على الجميع، يتفاوض ويوزع الأجور والأدوار والكل يسمع ويطيع، لكن أحلامه ظلت ترفرف نحو صورة الرجل المهاب حميد الدين، ذلك الذى ذاب كما تذوب القوافل فى الرمال، بعدما أهداه بيتًا يشبه بيوت الأمراء، يومها جمع محمد رجاله وشحنوا عدد وآلات الرجل ووقفوا فى وداعه، كان بوده أن يسأله كيف يبنى بيتًا آخر لكنه خشى أن يفسد جلال الوداع بسؤال كهذا، لم تمض شهور حتى تعرف على تاجر مصرى يبحث عن مكان ليخزن فيه شحنة غلال، كان الرجل يحضر سفينتين كل عام، إحداهما قمح

والأخرى أرز، ولم تكن هناك أماكن مجهزة لمثل هذا التخزين، استضافه معاوية للمبيت عنده فبهره شكل المنزل، قال كأنه قطعة من مصر، وأعجبته المساحة التى ضرب معاوية سورًا عليها، قال تؤجرها لى، قال ضع فيها ما شئت هدية منى، حين باع الرجل ما معه من غلال وبدأ يجهز نفسه للرحيل صارحه معاوية برغبته فى أن يبنى جزءًا من الأرض، لكنه يحتاج إلى بنائين وأدوات وحمير، ضحك الرجل وقال هذه هدية منى، لم يصدق معاوية الرجل وظنه يمزح، لكن نفسه ظلت تتمنى أن يفى بوعده. مر عامان ولم يأت المصرى، ففقد الأمل وبدأ يعيش حياته كواحد من أهل الميناء، يمضى نهاره بين العمال على الرصيف، وليله ساهرًا فى الخان أو باحثًا عمن يريد مكانًا للتخزين، حين تجمَّع لديه مبلغ تزوج بنت شيخ الأعراب كى يقيم عرى التآخى والصداقة بينه وبين أعدائه القدامى، كانت هديتهم لزواجه عشرين رأسًا من الغنم وثلاثة حمير استخدمها فى نقل البضائع، وسرعان ما أصبح معروفًا أنه صاحب حمير ومخزن، لكن المطر كان يفسد البضائع، والفئران والثعالب والذئاب كانت تروح وتجىء فى المكان طيلة الوقت، فبدأ الناس يبحثون عن أماكن أفضل، ولم يكن أمامه سوى تأجير منزله لهم، وفى يوم رست فى الميناء سفينة قادمة من مصر، ونزل صاحبها يسأل عن محمد بن عوض، حين ذهب إليه وجده يقول: تأخرت عليك لكنه المرض. كان الرجل قد أصيب فى حادث أقعده عن

العمل، فنذر أن يطعم أهل بيت الله الحرام لو عادت إليه عافيته، وما إن أتم الله شفاءه حتى جهز سفينته بكل شيء، ولم ينس هديته، فعلى السفينة جاء البناءون بأدواتهم وخمسة حمير. رحب أبى بالقوم وأنزلهم بيته وشحن الغلال إلى البيت الحرام، لم يكن المصريون معتادين على استخدام الحجر فسألوه أن يأتيهم بطوب، شعر أن أمره باء بالفشل حتى قال أحدهم نضرب من الرمل طوبًا ونقيم له قمائن كما نفعل فى مصر، جاءه نفر من أهل زوجته الأعراب وبعض رجاله فى الميناء وأقاموا عرسًا وهم يصبون القار على الطوب ويشعلون فيه النار. قال أريد بناءً كبيرًا من دورين، وقبل أن ينتهى البناء كان قد اتفق مع عدد من التجار على تخزين بضائعهم، فأخذ مقدم الاتفاق وأرسل المال مع المصرى كى يبعث له سفينة محملة بالأخشاب والنجارين المهرة من بلاده، لم يمر شهران حتى دخلت الميناء سفينة باسمه، فجهز المبنى كواحد من أكبر الأماكن المعدة للتخزين فى جدة، بعدها كانت الأموال تجرى فى يده دون أن يعلم كيف ذلك، ألقى ما معه على سفن أخرى وقمائن جديدة وراح يبنى من جديد، وكلما سمع عن شيء فى البناء استحدثه ودخل فيه، لم يعد الميناء يشغله إلا مع قدوم سفينة تخصه من هنا أو هناك، وزاد عماله من الهنود والأفارقة والمصريين والسوريين كلما زاد طلب الناس أن يبنى لهم بيوتهم وما يحتاجون إليه.

فى مساء يوم ثلاثاء كان يجلس مع زوجته فى شرفة بيته، فجاءه الخادم مسرعًا ينكب على وجهه، قال الأمير بالباب، فنهض على عجل ليرحب بضيفه الكبير، كان ذلك الأمير خالد الذى لم ينس أنه الذى روض الجواد المشاكس. قال: نريد أن نرصف الطريق الذى يربط بين جدة ومكة؛ فهل تستطيع القيام بهذه المهمة؟ لم يكن أمامه سوى أن يقول نعم، فهذه هى المرة الأولى التى يطلب منه الأمير شيئًا، وإن كان لا يعرف كيف ترصف الطرق. لم يكن أمامه سوى السفر إلى القاهرة بنفسه، بعدها عاد بسفينة محملة بعدد وآلات ورجال، نصبوا أشياءهم على الرمل والصخر وبدأوا فى عمل لا ينتهى، فالطريق طويل والرجال تعبوا من الحر والرمل والظمأ، فعاد إلى القاهرة من جديد ليحضر أناسًا وآلات وموادًا جديدة، وطلب من صديقه المصرى أن يرسل له كل من له خبرة فى هذا الأمر، وأما قليلو الخبرة فأعمال البناء تستوعب كل شيء، والمصريون أكثر حنكة من غيرهم، لكن المال بدأ ينفد، والأمير أخذ يغضب، والعمل لا ينتهى، قرر يومها أن يبيع منزله ومخازنه ولا يذهب مولولا للأمير. باع نصف أملاكه حتى وصل الطريق إلى قرب مكة، فكر أن يبيع الباقى ليفى بوعده لولا الملك عبد العزيز الذى استدعاه قائلًا: ثلاثة أعوام والطريق لم ينته بعد. فوقف لا يعرف بم يجيب، لكن خالدًا تدخل قائلًا: لقد باع الرجل كل ما يملك ولم يتقاض منا للآن شيئًا. احمر وجه عبد العزيز من

المفاجأة، واستدار نحو رئيس خزانته قائلًا: هل استعبدتم الناس أم أننا مملكة جياع يتعطفون عليها بأموالهم؟ ثم صرخ فيه: ادفعوا له أمواله وكل ما يأمر به يجاب على الفور. ساعتها جاءت السفن التى تعطلت وجاء الرجال والقار والأحجار، ولم تمر شهور حتى كانت عربات الملك والأمراء والحاشية أول ما يمر على الطريق، وأصبح والدى واحدًا من مسئولى الإنشاءات الكبار فى المملكة.



(١٥)

الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه، الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على عبده الذى اصطفى، محمد بن عبد الله وآل بيته الغر الميامين، الحمد لله عدد خلقه وزنة عرشه، ونجوم كونه، الحمد لله لا يعدل معها شيء فى ملكه.

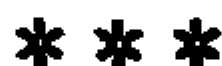
كان دورق الماء يهتز فى يد الصبى وهو يضع الماء على قدمى الشيخ، فصاح فيه: انتبه. شعر الغلام أن الكلمة خرجت على غير عهده بها من الرفق، فتجمعت تقاسيم وجهه واختنق صوته بالبكاء، رفع الشيخ وجهه إلى السماء وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ما عدت أحتمل عناء طفل بجانبى، اللهم لا تؤاخذنا واغفر لنا. جفف أعضاءه ببردته وألقاها على سجادة الصلاة، ثم توجه إلى الطفل وأخذه من يده إلى باب الكهف، وضعه أمامه وانهال تقبيلا على يديه: ما بك يا سيدى وابن سيدى، ما بك يا حبيب يا ابن الحبيب، هل

يغضب السادة والأحبة بلا سبب؟ انفكت أسارير الغلام الذى مسح الدمع عن وجهه قائلا بتلعثم: أأأخاف. فزع العجوز قائلًا: منى؟! تلجلج الفتى من جديد: للللللا. لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، ما لى وغلام لا يقدر على الكلام، ما عدت أحتمل التفسير والتخمين واستكمال الجمل، ضعفت همتى وقدرتى على حمل الأمانة، رحم الله أباه وأمه، تركته له قطعة من لحم، فتركه لى قبل أن يبلغ الفطام، فهل هذا قدر السادة؟ ثم رفع يديه وعينه معلقة إلى السماء: ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا، واحلل عقدة من لسانه كما حللتها من لسان موسى كى يُفقه قوله، ربنا إنا فى أرض ضاقت علينا بما رحبت، فآته من لدنك فصاحة وحكمة وعدلا، واجعله مباركًا أينما كان، ربنا إنى قد أوكلت أمره إليك وأنت أحكم الحاكمين.

شعر العجوز أن الفتى نام على ساقيه، وأن الظلمة والبرد يحلان على المكان، فهم أن يحمله إلى الداخل لكن قوته لم تسعفه، فراح يسحب نفسه ثم يسحبه، حتى انتفض الغلام مفزعًا وأمسك بعنقه من جديد "إنى خائف"، توقف العجوز منتبهًا إلى نطق الفتى دون تلجلج ولا عقد، كبر وحمد الله فرحًا، لكن خوف الغلام لم يتركه لحاله، فعاد يكبر فى أذنه ويسأله: ما الذى يخيفك يا على؟ قال: "أرى رجلا ربعة يطالبه أصحابه بالخروج، فلما خرج حُبسوا فى المسجد فلم

يجدهم، يُقتل فى معركة بسهم طائش فى ظلمة ليل طويل، فيدفنونه ويجرون عليه الماء، لكن أعداءه يخرجونه من قبره فيصلبونه عاريًا ويرسلون برأسه لملك بعيد، فيقول حرِّقوه وذروا ترابه من على مركب فى بحر وريح سموم". بكى العجوز: لا حول ولا قوة إلا بالله، ما لك وما لهذا يا علىّ، صغير أنت يا بنىّ على كل هذا الإرث، هذا جدك زيد، خرج لنصرة دين الله، لكن يوسف بن عمر نادى فى أهل الكوفة من لم يدخل المسجد فلا عاصم له، فدخلوا ولم يخرجوا حتى سأل جدك عنهم، قيل حبسوا، فقال ما هذا بعذر لمن أعطانا بيعته. هذا زيد وقد سئل ذات يوم عن رأيه فى الشيخين فقال: ما سمعت فيهما إلا خيرًا، وما سمعت أحدًا من أهلى يذكرهما إلا بالخير. قيل فما قولك فى ولايتهما وعلىّ على الأرض؟ قال تجوز تولية المفضول فى وجود الأفضل، قيل فيما خروجك إذًا؟ قال ما هؤلاء كهؤلاء. قيل فما رأيك فى الولاية ووراثتها؟ قال لا ولاية بلا خروج. قيل ويحك.. أخرجت أباك من الولاية؟ قال هذا الأمر عندى. ففارقته جماعة وتمسكت به جماعة. هذا زيد وقد خذلته الكوفة مثلما خذلت الحسين، قتل فى المعركة بسهم طائش فى الظلمة. فرجع أصحابه مختلفين فى أمره، قالوا نجتز رأسه ونرمى بجثته فى العراء، قال ابنه يحيى: لا أترك جثة أبى للذئاب، فحفروا حفرتين ودفنوه فى إحداهما ثم أجروا عليهما الماء، لكن غلامًا لبعض القوم دل يوسف بن عمر

عليه، فجاء بجنده وأخرج الجثة ثم صلبها فى الكُناسة، وأرسل برأسه إلى هشام بن عبد الملك مثلما أرسل ابن زياد برأس الحسين ليزيد، هذا زيد الذى قال عنه المصطفى لجدك الحسين "يخرج رجل من صلبك يقال له زيد، يتخطى وأصحابه يوم القيامة رقاب الناس غرًّا محجلين". هذا جدك يستقبله رسول الله قائلا: "قد عملتم ما أمرتم به فادخلوا الجنة بغير حساب".



(١٦)

خريف ١٩٧٧

تيقنت أن خالى بهاء الدين على معرفة بأبى سعيد، لم يقل لى ذلك أى منهما، لكن المصادفة وحدها هى التى قادتنا جميعًا لذلك، حين قابلت أبا سعيد كانت الأمور قد بدأت تفسح لى صدرها فى المملكة، وكانت فروعنا فى الخارج قد بدأت تزدهر من جديد، لاحظت أن ما قاله خالى عن منافسة بعض الشركات الأخرى لنا صحيح، لكن هذا لا يهدر كل الأموال التى تلوح بها أمى، انتدبت محاسبًا من قِبلى وأمرته بإعادة النظر فى محاسبات الفروع خلال السنوات الخمس السابقة، على أن يتم ذلك كأنه إجراء روتينى لمعرفة أسباب تراجع النشاط، بعد شهور أسر لى الرجل أن خالى سحب من الرصيد أكثر من مرة، وأن هناك محاسبات لم تكن تسجل

فى الدفاتر ولا تدخل حسابات البنوك. شعرت يومها أن رأسى تطحن تحت رحى الهواجس، فهل كانت أمى على حق والرجل يخون الأمانة التى تركناها فى يده؟ وهل كان أبى لا يجيد معرفة الرجال كى يجعله مكمن أسراره ويؤمنه على أموالنا، أم أنها الدنيا تغر الناس وتغير طباعهم؟

لم يكن أمامى سوى العزلة من جديد، تركته يفعل ما يريد وعدت إلى غرفتى وكتبى لأطالع سير الصحابة والتابعين، وكيف لم تستطع الدنيا أن تجر أيًّا منهم إلى شباكها، فأبو بكر أنفق كل ما يملك وقال لو كانت إحدى قدمى فى الجنة ما أمنت مكر ربى، وهذا عمر بن الخطاب يحمل جوالا من دقيق ويهرع فى الظلمة ليصنع حريرة لأطفال امرأة قالت إن الله سيحاسبك يا عمر، هذا عبد الرحمن بن عوف يسمع امرأة تمدح لجارتها عظم القافلة التى جاءته، فيقول والله هى للمسلمين جميعًا، ويأمر بتوزيعها على الفقراء والمعوزين، وعثمان يجهز جيش العسرة حتى يقول رسول الله ما على عثمان بعدها من شيء، لكن عليًّا هو الذى أدهشنى، فقد أنبَّته بنت الرسول لأنه لا يدخل عليها بما يدخل الناس به على أهل بيوتهم، فخرج حزينًا إلى المسجد، يطرح جسده على التراب وينظر إلى السماء، ورسول الله يسأل: أين على يا فاطمة؟ فتخبره بما جرى بينهما، فيتغير وجهه: الله الله فى زوجك يا بنت محمد، الله الله فى أخى وابن عمى، أتذكرين حين قلتِ كأنك ادخرتنى لفقير قريش. أتذكرين بم

أجبتك؟ فتبكى فاطمة وهى تقول: والذى بعثنى بالحق ما تكلمت فيه حتى أذن لى الله من فوق سبع سماوات؟! فيتركها ويخرج، فيرى عليًا نائمًا على التراب فيوقظه: قم أبا تراب، أتغضب من زهراء بنى هاشم؟ أتذكر حين سألتنى يوم عرسكما: أأنا أحب إليك أم فاطمة يا رسول الله؟ فابتسم على وهو يقول: هى إلى أحب وأنت على أعز.

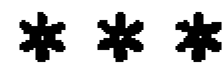
أخذتنى تلك العلاقة بين نبى الله وختنه، فهو الذى يداعبه ويصالحه ويلوم ابنته لأنها طلبت ما يدخل به الناس على زوجاتهم، لكن عليًا فقير، فالله الله فى على يا بنت محمد، الله الله فى هارون لولا أنه لا نبى بعدى، يحارب على التأويل مثلما حاربت على التنزيل، جيش هو وحده، ليس بفرَّار ولا جبان.

فى لحظة من الكشف تذكرت أن أمى وخالى ينتميان إلى الشيعة، لحظتها وددت لو أننى أرتدى ملابسى وأهرع إلى غرفة أمى لأسألها عن حبها لعلى، لكن الساعة كانت قد تجاوزت الواحدة، وهى لا تحب السهر، فأجلت الأمر للصباح وعدت إلى القراءة من جديد .

كان من المفترض أن أصلى الفجر وأنام، لكننى لم أصل ولم أنم، فقد شعرت بألم شديد يعتصر جانبى، عالجته فى البدء باليانسون والمرطبات، غير أنه أخذ فى التزايد حتى أننى مع بزوغ النهار صرت أصرخ فى جنبات القصر،

فانتفض الجميع وجاءوا بالطبيب، أعطانى مسكنًا وأمر بنقلى إلى المستشفى، لم تمض أيام حتى كانت الطائرة تقلنى إلى فرنسا وسط همهمات الأهل بالشفاء، كان خالى وبعض إخوتى يهرولون بهستيرية غير معهودة، رأيت عينه محمرة من البكاء، لحظتها تطايرت من ذهنى كل الأسئلة، وشعرت أننى على وشك النهاية، كان يربت على كتفى ويبكى، فتذكرت عليًّا ورحت أبحث عن التراب الذى على كتفى، فابتسم قائلًا: هل يبكى الرجال يا أبا عبد الله؟ حين وصلنا إلى باريس كان كل شىء معد فى غرفة العمليات، هنالك سقط الزمن منى لعدة ساعات، كنت أتألم ألمين، أحدهما من الخارج والآخر من الداخل، حتى أننى ما كنت أبدأ فى آهة حتى أقطعها لأدخل فى الأخرى، حين انتبهت رأيت أمى وخالى وإخوتى وعبد الله وأمه حول السرير، كان الجميع مبتسما، والطبيب يهمس فى أذنى "عمر الشقى بقى"، لم أفهم مقصده حتى حكوا لى أننى فقدت كليتى وأعطيت كلية جديدة، وكنت على وشك الموت لولا تدخل رجل لا نعرفه، أجرى تحاليله على عجل وانتظرنى، يومها عرفت أن خالى على علاقة بأبى سعيد منذ أيام والدى. كان الرجل قد اتصل به قائلا إنه فى ورطة، فأرسل أبو سعيد عددًا من تابعيه لهم نفس فصيلة دمى، تسابقوا فيما بينهم على من يهبنى كليته، حين ضيقت على خالى فى معرفة من هذا الذى ضحى بحياته من أجلى ومن أين أتى به، قال لا أعرف، وحين قلت له إن المال جعل جبروته

يشترى حياتى على حساب الآخرين، بكى وتركنى أكمل حنقى عليه وحدى، لكننى فى اليوم التالى وجدت أبا سعيد فى هيئة طبيب يدخل من باب الغرفة، كانت سعادتى ودهشتى شديدتين، هنأنى بالسلامة وتسامر معى قليلا ثم قال: بهاء الدين واسطة بيننا وبين معاوية، وما فعله ويفعله ما هو إلا عن وصية منه.



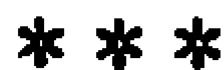
(١٧)

قلت لمجد الدين ـ وكان باكستانيًا ـ ما الذى دفعك لإعطاء كليتك لرجل لا تعرفه ولن تنال من ورائه مالأ؟ قال: رغبة السيد. قلت ومن السيد؟ قال: سيدى عبد الله أبو سعيد. قلت أتنادونه السيد؟ قال: نعم، فهو من آل بيت رسول الله، نسبه يعود إلى سيدى على زين العابدين بن الحسين كرم الله وجهه. قلت كيف عرفت ذلك؟ قال: شيوخى يعرفونه، رأيتهم مرات يقبلون يديه ويقدمونه فى مجالسهم عليهم. قلت: ومن شيوخك؟ قال: أنا أتبع الطريقة القديانية فى باكستان، جمعت بين العلم والمعرفة على يد عدد من شيوخها، وذات يوم رأيت رجلا غريبًا يرتدى ملابس تشبهنا، لم أكن رأيته من قبل، فدخل حلقة الذكر على استحياء كأنه يتحسس مواطئ قدميه، حين رآه سيدى أبو يسار وقف كمن لدغه ثعبان وهم على يده يقبلها، ثم أخذه ودخلا الدار، بعدها أرسلنى إلى

عدد من شيوخ القديانية والرفاعية والقادرية كى أقول لهم: سيدى عبد الله هنا. فى مساء اليوم التالى وجدت وزير الأوقاف، وكان تلميذًا لأبى يسار، كثيرًا ما جاء وكثيرًا ما صنعت له البن، وعددًا من مساعديه وشيوخ القبائل والطرق، بعد ساعات جاء رجال لا أعرفهم لكن أغلبهم من علية القوم، كان الجميع يأتى على استحياء مثلما دخل الرجل، فيتلقفهم أبو يسار ليدفع بهم إلى حجرة الضيافة، كنت يومها صبيًا فى العاشرة من عمرى، ولم أكن مكلفًا من قبل أبى يسار بشيء، فقط يرسلنى فى إحضار أعلام الطريقة وتقديم البن لضيوفه، وكان يبيح لى الدخول والخروج على زوجاته لأننى كنت صبيًا دون الحلم، يومها صرف الرجال جميعًا وصرفنى أيضًا غير أننى بكيت وتشبثت بالبقاء، فنادى الغريب أبا يسار: من الغلام؟ فقال: ابن لى فى الطريقة يلازم فرشتى ويرفض الآن أن يتركني. قال: مؤتمن؟ فأومأ شيخى بالإيجاب، قال اتركه. فلصقت إلى جانب الباب كجرو صغير حتى غلبنى النعاس، حين استيقظت وجدتنى نائمًا فى الغرفة والرجل قائم يصلى، قمت فتوضأت وصليت خلفه الفجر وعدت إلى فراشى، فى الصباح لم أر الرجل فى البيت الذى دبت فيه الحياة كسابق عهده، شيوخ ومريدون وأعلام وذكر، سألت أبا يسار عن الرجل فقال واحد من عترة رسول الله، ويقول إنك تعطى الله حقه وتنام. شغلت بمقولته ونسيت أن أسأل عن الآخرين، لكننى أدركت فيما بعد أن الأمر سر

وعلىَّ أن أتعامل على أنه لم يكن. دارت الأيام وبدأت فى تحصيل العلم على يد عدد من الشيوخ فى مدرسة الدين، كنت أحفظ عن ظهر قلب كل ما تسمعه أذناى، لكننى فوجئت به ذات يوم يدخل على استحياء أيضًا غرفة شيخ الشيوخ، يومها تسللت من حجرة دراستى وجلست أرقب باب المدير، حين خرج كان عدد من الشيوخ يتبعونه كزائر كبير، هتفت: سيدى عبد الله. فتوقف الجميع كمن أسقط فى يده، استدار الرجل بهدوء ناحيتى وابتسم، أدركت أنه قد سمح لى بالتقدم فلثمت يده، قال: كيفك وكيف أبو يسار؟ قلت أصابته سحابة على عينه. قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، اسمك مجد وشيخك يسار، فلييسر الله لنا أمرنا ويمنحنا مجد هذه الأمة، ويرشدك لما فيه الخير. أمن الجميع خلفه وتركنا ورحل مثلما أتى، لكن بركته بقيت تهب على، فقد عاملنى الشيوخ معاملة لا يلقاها طالب مثلى، وصرت أدخل وأخرج علىَّ المدير وقتما أشاء، وكلما هممت بتركه كرر صيغة الدعاء "اسمك مجد وشيخك يسار فلييسر الله لنا أمرنا ويمنحنا مجد هذه الأمة"، لم نلتق حتى تخرجت وأصبحت شيخًا فى المدرسة، رأيته يدخل علىَّ حجرة الدرس فلم أعرف كيف أتصرف، انكببت على يده ألثمها وهو يسحبها خجلا أمام الطالبان عندى، أخذنى وعدنا إلى غرفة المدير. قال: هناك حبيب لى يحتاج إلى كلية وإنى أراها لديك فهل تمنحها له؟ لم أفكر وقلت نفسى فداك وفداه. على الطائرة وجدت أربعة

غيرى متوجهين إلى نفس القبلة، فتمنيت من الله أن يكون طلب سيدى عبد الله عندى، فى المستشفى أجرى الأطباء تحاليلهم وبقيت أنتظر رؤيتك، لم أرك حتى جاءنى السيد وطمأننى قائلًا: قريبًا تلتقى به. وها نحن نتحدث منذ ساعات وأنت لم تنطق سوى ببضع كلمات. قلت: يا مجد لقد صرنا الآن إخوة، فاصبر عسى أن يجعل الله مجد هذا الدين على أيدينا.



(١٨)

حين عدنا من باريس كان الوضع قد تغير تمامًا، وكأن الأمر كان يحتاج لمرضى هذا حتى تنتهى مشكلاتى، فأمى عادت فرحة بى وكأننى ولدت من جديد، أما علاقتها بخالى بهاء الدين وابنته فقد عادت أفضل مما كانت، فوجدتها تطلب منى أن أعيد أم عبد الله إلى بيتها لتعيش معها، قالت: إن البيت بدون عبد الله لا يعنى شيئًا. قلت وأمه؟! قالت: الولد بدون أمه لا يساوى الكثير. لم يكلفنى الأمر أكثر من مهاتفة إلى بيروت كى تعود أم عبد الله فى اليوم التالى، أما خالى فقد أصبح أكثر نشاطًا ويسرًا فى التعامل، صار شخصًا مرحًا طيلة الوقت لا تفوته فرصة دون أن يعلق بمزحة، صرت أشعر أن العالم عاد لراحتى من جديد، فرحت أقرأ المزيد والمزيد حتى ظنوا أننى سأدخل فى نوبة اكتئاب جديدة، وجدت أمى تقترح علىَّ ذات صباح أن أذهب إلى

أمريكا لدى إخوتى، قالت: لقد عملت هذا العام أكثر مما ينبغى وعليك أن ترتاح قليلًا. قلت: سأذهب لكن دون أن أرتبط بأحد. رحت فى جولة على عدد من الولايات الأمريكية، لكننى أعجبت بتكساس وزاد إعجابى بفلوريدا لشيء ما لا أعرفه، هناك أقمت بضعة أشهر بلا عمل سوى التنزه والتعرف على عالم جديد لم أره من قبل، وهناك توطدت علاقتى بمهندس طيران مصرى، نصحنى أن أتعلم الطيران، ضحكت لأننى تذكرت محاولات عباس بن فرناس حين صنع جناحين من ريش ثبتهما بالشمع، فلما أشرقت الشمس ذاب الشمع وسقط ابن فرناس من على قمة الجبل. قال: الأمر ليس بهذا الشكل الفكاهى، فهناك معاهد لتعليم الطيران المدنى، يمكنك خلال خمسة أشهر أن تقود طائرة بنفسك حتى بلادكم. قلت لو حدث هذا فتأكد أننى سأكون هدهد "منطق الطير". وجدته فغر فمه ورفع حاجبًا فاستدركت قائلًا: فى الغد أذهب معك. قدمت أوراقى وبدأت أتردد يومين أسبوعيا لمدة شهرين، بعدها قالوا إننى أحتاج إلى مرحلة أكبر، وافقت وبدأت فى الانتظام لولا الحادث الذى غطى على كل شيء، فقد توقفت أجهزة الإعلام أمام مشهد مقتل الرئيس المصرى السادات. كان المشهد كاريكاتوريًا إلى حد بعيد، فهذا الرجل الذى أربك حسابات الجميع يموت هكذا وببساطة فى يوم احتفاله بنصره ووسط جنده، ويفر الذين قتلوه دون أن يصاب أىٌّ منهم. تصورت

للحظات أن هذا جزء من مشاهد السادات التمثيلية، وانتظرت أن يقف على قدميه من جديد ليعلن أنه سيؤدب هؤلاء الأوغاد، لكن الإرسال لم يكتمل، فقد تدخل المذيع والمحللون وأشاروا بأصابع الاتهام نحو الجماعات الدينية التى حاولت اغتياله فى حادث الفنية العسكرية منذ ثلاث سنوات، يومها اتصلت بخالى بهاء فرد على بكلمات قصيرة وسريعة تفيد أن كل الأمور بخير، فهمت أن لأبى سعيد علاقة بالأمر لكنه على كل لن يمسه شيء. شغلتنى الأحداث وما توالى فيها من اتهام لجماعة الجهاد فى مصر، كان الإسلامبولى المتهم الأول، لكن المشهد الذى اعتلى كل ذلك هو سيطرة الجماعة الإسلامية على أسيوط فى جنوب مصر، كانت كل هذه الحملات الإعلامية لا محبة ولا كراهية فى الجماعة الدينية هنا، ولكن تعلقًا برمزية السادات الذى مثل لمخيلة الأمريكيين بطلا من القرون الوسطى، بطلا يحارب وينتصر ويجلس على مائدة السلام، ظلت صور هذا البطل والأفلام التسجيلية عنه تحتل أجهزة الإعلام طيلة أسابيع بعد الحادث. فى ظل كل هذه الأحداث فوجئت باتصال من أبى سعيد، التقينا بعده لقاءً عابرًا علمت فيه أن موت السادات لم يكن مطلوبًا من طرف واحد. ومن ثم فقد اشترك فيه الجميع، لكننا أضعف الحلقات وأوسعها - هكذا قال - ومن ثم فإننا المؤهلون لتحمل المسئولية أمام الجميع على الأقل لعدة سنوات قادمة. قال أيضًا إن هذا لن يكون بلا

مقابل، إذ لا بد أن تدفع باقى الأطراف فاتورتها. فهمت أن هذه هى الصيغة التى تم على أساسها الحوار، وأن المرحلة القادمة ستشهد توسعًا فى العمل، لكنه أكد فى النهاية: علينا أن نتحد لأنها لحظة عصيبة سنواجه فيها ضربة كبيرة فى واحدة من أهم مراكزنا. بعدها حزمت حقائبى وعدت إلى ديارنا كى أقرأ وأتابع عن بعد فى انتظار أن يجيء دورى.

* * *

(١٩)

أرسل عبد الله بن على بن الحسين للهاشميين كما يفعل كل عام ليأخذ منهم البيعة لابنه محمد، فقد أجمعت الأمارات المتواترة لدى آل البيت عن صفة المهدى المنتظر الذى سيملأ الأرض عدلا مثلما ملأت جورًا وظلمًا على أنه محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية، وكانت أمارة زمن خروجه قد حانت بوفاة يزيد الناقص وتولى مروان الحمار، فجد عبد الله فى جمع الهاشميين لتجديد البيعة، وجاءوا جميعًا إلا جعفر الصادق، فأرسل له عبد الله قائلاً: لقد حضر بنو هاشم إلا أنت، فلم التأخر وهذا ليس عهدنا بك؟ فجاء أبو جعفر وخطب عبد الله فى الناس عن سنة المصطفى التى تحولت، وولاية الأمر التى سرقت، والمهدى وصفته وأوان خروجه، وما قالته صفية عن علىّ عن رسول الله عن الأمارات التى اجتمعت فى ابنه محمد، ثم نظر فى

عيون الحضور قائلاً: فهلموا نبايعه على كتاب الله وسنة رسوله والخروج معه متى خرج. فتدفق الهاشميون يقبلون يد محمد مجددين له البيعة، ولم يبق غير جعفر الصادق الذى ظل يؤخر نفسه حتى صاح فيه عبد الله: ما بك يا ابن عمى، لم لا تبايع ابن أخيك على طاعة الله والرسول والاجتهاد برأيه؟ لكن جعفرًا تمهل حتى قالها عبد الله من جديد. فقال: يا أبا إبراهيم لو كنت ترى أن الأمر غيرة على دين الله وسنة رسوله التى تبدلت فأنت كبيرنا وأعلمنا، وما كان لنا أن نبايع محمدًا وأنت موجود، أما إن كان الأمر غير ذلك فالله يعلم وأنت تعلم وأنا أعلم أن ابنك هذا مقتول على أحجار الزيت، وأن الأمر ليس لك ولا لولديك، لكنه لهذين، وأشار بسبابته ناحية العباس وأبى جعفر ابنى محمد بن على بن عبد الله بن العباس. هنالك كان العباس والمنصور أول الخارجين من البيت، نافضين الدعوة للعلويين من عنقهما، وكان أخوهما إبراهيم الملقب بالإمام رجلا ذا فراسة وذكاء ويصلح لتدبير كل أمر، فأخذ يرسل الرسل إلى خراسان مؤكدًا على ألا تصل الدعوة لعربى قط، حتى وقعت عينه على أبى مسلم فأمره بأن ينطلق إلى خراسان قائلًا: اذهب إلى فلان وفلان فخذهما وادع فى المسجد، فلما ذهب أنكراه لصغر سنه، فأرسل إبراهيم من يوبخهما ويأمرهما بالتزام أمره، فنصب أبو مسلم راية السحاب ولواء الظل ودعا جهرًا لبنى العباس، فجاءته فى اليوم الواحد أكثر من ستين قرية،

حتى انقسمت خراسان بينه وبين نصر بن يسار نائب مروان الحمار، وجديع بن على الكرمانى وشيبان بن سلمة الحرورى زعيما الخوارج، فانحاز الكرمانى لأبى مسلم وانحاز شيبان إلى نصر، فقتل الأخير يسارًا بالحيلة، وقتل أبو مسلم شيبان صبرًا، وأصبحت خراسان أولى ممالك العباس.

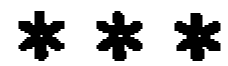
رفع مجد وجهه من على الكتاب ونظر إلىَّ قائلاً: فيم تفكر؟ لم يكن فى ذهنى ما يمكننى أن أدلى به، فكل الأمور مختلطة وكل الأشياء متشابكة، العباسيون يدعون للعلويين ثم ينقلبون عليهم، وعبد الله بن على يعرف أن ابنه مقتول على يد العباس وأخيه ويدعوهما ليجددا البيعة له، وأبو جعفر يسمى ابنه المهدى ويجد فى طلب النفس الزكية، حتى إذا ما أجهزت جيوشه عليه بكى فى مجلسه قائلاً: الله يعلم إنه لكاذب، وإننى لكاذب، وإنه ليس المهدى، وإن ابنى هذا ليس بالمهدى، وما لقبته هكذا إلا تيمنًا أن يكون هو.

ظلت الصور تتواتر على مخيلتى حتى توقف مجد عن حديثه وراح يسألني: ما بك يا رجل؟ غالبت البكاء ورفعت رأسى بابتسامة وقلت: لمَ قتل المنصور أبا مسلم؟! فضحك وهو يمشط لحيته الطويلة بأنامله قائلاً: ولمَ قتل أبو جعفر محمدًا وهو ابن عمه؟! ساد صمت بيننا إلى أن رفع مجد وجهه نحو سحب كانت تمر فى ذلك الوقت على رءوس الجبال كحمامات بيض ثم قال: إنه الملك! أتدرى حين شاور

المنصور أصحابه فى قتل أبى مسلم ماذا قالوا؟! لم يجب مجد لكننى كنت أعرف الإجابة "لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا"، أو تدرى ماذا قال موسى الهادى حين وصله نبأ مقتل إبراهيم بن عبد الله؟! هذه المرة أجبته: الله يعلم أنهم أحق بها منا، لكنه الملك! فأكمل مجد: ولو جاءنا رسول الله وحاربنا عليه لحاربناه وقتلناه. حين سمعت منه الكلمات اقشعر بدنى، وشعرت أن أذنى أصابها سقر، وما أدراك ما سقر، فشملتنى رجفة اهتزت لها مفاصلى وساحت عينى بالدموع. فلكزنى فى كتفي: لمَ البكاء يا رجل والحديث مضت عليه قرون؟ هربت نفسى من الحزن قائلًا: تطاردنى هيئة أبى مسلم وهو يترك منعته فى خراسان قادمًا على أبى جعفر ليصلح ما بينهما من شقاق، فقد اغتر بما فتح الله على يديه، بينما المنصور حاك له المكيدة كى يستخلص ملكه لنفسه كما تستخلص الشعرة من العجين، فجعل الأمراء يبشون فى وجهه، ويطلبون منه الوساطة لدى الخليفة، والخليفة يضع الحرس خلف الستار ويسأل: يا أبا مسلم، ما الذى دفعك إلى تقديم اسمك على اسمنا فى رسائلك؟! وأبو مسلم يقتله الحرج: ألا يشفع لى ما فعلت لتوطيد ملككم؟! فيجيبه المنصور: والله ما زادنى جوابك إلا تغيظًا، ولا منقذ لى إلا قتلك. فيقول: ادخرنى لأعدائك. لكن المنصور يضحك: وهل هناك من هو أعدى لى منك. ثم يصفق بيده، فيخرج

الحرس المختبئ بالسيوف، فلما انتهوا من تمزيقه قالوا: الآن أصبحت الخليفة وحدك لا شريك لك.

أنتبه على صوت طائرة تحلق فى أجواء قريبة منا، الجو صحو، والصحراء فسيحة، والجبل شاهق، والعربة كلت من الصعود، أقول: يا مجد ماذا لو صرتَ أمير المؤمنين؟ يضحك، ثم يجيبنى: لن أكون أبا جعفر ولن تكون أبا مسلم. فأمد يدى نحوه وجسدى يرتعد: نتعاهد؟! فيتلقفها بكلتا يديه: هذا عهد الله بينى وبينك.



(٢٠)

أستطيع أن أعترف الآن أننى لم أر فى ذلك الوقت غير جزأين من العالم، أحدهما يقع فى الجنوب الشرقى حيث الجزيرة العربية، والآخر فى الشمال الغربى حيث أوروبا والولايات المتحدة، أما الشمال الشرقى والجنوب الغربى فما كنت أعلم عنهما الكثير، وأعترف أيضًا أننى لم أفكر قط فى دخول أماكن مجهولة كالهند وباكستان، لكن خالى بهاء الدين طرح الأمر كنوع من المزحة، كنت يومها ما زلت أتحدث عن فتنتى بالعالم الأمريكى المفتوح اقتصاديا، والحياة السريعة المتنوعة الأنشطة فى كل شيء، حتى أن الكسب فيها يعد الأكبر والأسرع بعد الاتجار فيما هو ممنوع، لكن بهاء الدين اعترض على الافتتان والحماس اللذين أتحدث بهما وكأننى كريستوفر كولومبوس، قال إن هذه البلدان لا تحتاج إلى فاتحين جدد لأنها انتهكت، وبقدر ما يكسب الناس هناك فهم

ينفقون، قال أيضًا إن أمريكا أصبحت نموذجًا مثاليًا للبوتقة، فكل من يدخلها ينصهر فيها، يعتقد أنه جاء ليربح فيكتشف بعد سنوات أنها التى ربحت منه كل شيء، حتى أن بقاءه فيها يصبح فى ذاته أكبر مكسب له. كانت كلماته واثقة وكأنه أحد مؤلفى كتب الفلسفة أو الاقتصاد، قللت من سخونة التوتر الذى بدا على الحديث: أفتنا يا سيدى ألفونسو أين يمكننا أن نستكشف العالم إذًا؟ قال هنا.. فى الشمال. لم تشر أصابعه التى امتدت بهدوء زاحف نحو الغرب، لكنها أشارت إلى مكان لا تكاد تتضح أسماء مدنه من بين الألوان الحمراء والصفراء شديدة الدكنة، قلت: فى هذه الجبال؟! قال نعم. طرح يومها أسماء كنا نعرفها إجمالا بجمهوريات الاتحاد السوفيتى، قال: لو شئت دبرت لك رحلة لهذه الأماكن. ضحكت: ليس من هوايتى تسلق الجبال.

لم يكن فى مخيلتى عمل واضح يمكن المغامرة من أجله فى هذه الصحارى التى يحدثنى عنها، لكن رسالة جاءتنى من أبى سعيد تقول إنه قادم قريبًا ويريد لقائى، تعجبت من الرسمية التى تعامل بها الرجل معى، حدثت خالى فقال لا أعرف عن أموره الكثير، فهو دائم التنقل والسفر. كان علينا أن ننتظر ثلاثة أشهر حتى أراه مصادفة بين ثلاثة من الأمراء وكأنه فى مهمة رسمية، لم أحاول الاقتراب منه أو الحديث معه، لكنه ترك مائدتهم وجاء لمصافحتى، قال موعدنا غدًا فى مكتبك تمام الثانية عشرة. ثم عاد لمائدته من جديد.

أبلغت بهاء الدين فى جنيف بما فوجئت به، قال إن ما حدث له دلالات مهمة، أولها أن الرجل أراد أن يجعل العلاقة وكأنها علنية، وثانيها أنه أراد أن يعفيك من خطأ الاقتراب منه. فى الصباح ذهبت إلى مكتبى فوجدت الأمر مختلفًا تمام الاختلاف عما أعرفه، وجدت كميات من باقات الورود تحف المدخل، والمنطقة مليئة بالحرس من كل جانب، أما العاملين فى المكتب فبدو كما لو أنهم فى يوم عيد، لا أحد مهمل أناقته، لا أحد يتراخى، لا مكان ولا رائحة غير نظيفة، ترددت فى أن هذا مقر المجموعة لولا أن عددًا من الرجال المهندمين هجموا على الباب ليفتحوه لى، غاصت قدمى فى السجاد الإيرانى من باب السيارة جتى الكرسى الدوار. حين جلست وجدت الهاتف يرن، كان خالى بهاء يسألنى عن رأيى، صرخت فيه: ماذا حدث؟ قال إنه علم أن أبا سعيد جاء ليعقد صفقة معى بحضور عدد من الحاشية والأمراء، وأنهم من جانبهم اتصلوا به فى جنيف حين لم يجدوه هنا.. فأمر أن يكون المكتب بهيا كما أرى وكما أرادوا. فاستغرقت فى الضحك وأنا لا أود أن أكذب الرجل ولا أود أن أفضح مؤامرته علي. قلت: نعم معك كل الحق. أغلقت الهاتف وأخذت أنظر من زجاج النافذة إلى مشهد الشارع البهى. أخيرًا جاءت عدة سيارات سوداء يحفها عدد هائل من موتوسيكلات الحراسة، هرعت إلى الباب ثم الشارع وأخذت فى استقبال الضيوف، كان الجميع ملتفًا حول أبى سعيد كأنه

ملك غير متوج، كان ولى العهد وعدد من الأمراء ورجالهم يملأون المكان، كان كل شيء مرتبًا بعناية غريبة لا أعرف كيف استطاع بهاء الدين تدبيرها بهذا الشكل، صافحت الجميع فأغلبهم أصدقائى، وصافحت أبا سعيد بنوع من التوجس والغرية، عرفنى ولى العهد به قائلاً: الشيخ أبو سعيد صديق باكستانى. بعد عدة دقائق قال أحد الأمراء: أمر صاحب السمو بتكليفك ببناء عدة قصور ملكية جديدة. رحبت وشكرت ولم أزد على هذا، قال أبو سعيد: هل لشركتك فروع فى الخارج يا أبا عبد الله؟ قلت: نعم.. وأخذت أذكر بعض المكاتب. قال: فلمَ ليس لكم مكتب فى بلادنا؟ أبديت علامات الدهشة وقلت ربما لأن أعمالنا فى باكستان وشرق آسيا ككل قليلة ولا تحتاج إلى مقر دائم. قال إن العمل هناك كثير ونحن نحتاج لعدد من الرجال المخلصين أمثالك كى ينهضوا ببلادنا. شكرت له كلماته وسكت. فقال من جديد: هل تتعاون معنا يا أبا عبد الله؟ قلت: يسعدنى. قال: بإمكانك زيارتنا للتعرف على المكان ونتناقش حول طبيعة العمل. قلت: إن شاء الله. قال: إذًا موعدنا بعد شهرين.. هل يناسبك؟ قلت: لا مانع. قال ولى العهد: لا تعتقد أن بناء القصور الملكية له علاقة بأبى سعيد، فهو فقط صديق والأمر جرى كما رأيت. قلت: هذا كرم معهود منكم. ساعتها وقف ولى العهد فوقف الجميع وانفض الأمر فى خمس دقائق. فى المساء فوجئت بأن نشرة الأخبار تقول إن

سمو ولى العهد تفقد بعض الشركات والمجموعات الاقتصادية اليوم فى المملكة، وكلف شركتنا ببناء عدد من القصور الملكية الجديدة، ولم يرد ذكر أبو سعيد أو صورته فى شيء.

* * *

(٢١)

توقف علىّ عن القراءة فى المصحف الذى بين يديه، وتوجه نحو العجوز كى يرفع إناء الماء عن الأرض، فمنذ فزع من نظرة العجوز حين صاح فيه "انتبه" وهو لا يحمل له الدورق، فأخذ العجوز يحضر الماء فى إناء واسع ليأخذ منه بأطراف أنامله ويمسح على أعضائه، وحين ينتهى يترك الصبى ما فى يده ويرفع الإناء من على الأرض. أغلق المصحف وتقدم نحو الإناء والماء المراق، رأى جزءًا من الرمل المبلل على هيئة رجل جالس، ترك الإناء وراح يجتزئ الرجل من مكانه لكنه تهدم فى يديه، شعر للحظة أن هذا الرجل صنعه العجوز وسوف يسأله عنه، ترك الإناء وأخذ يعيد تشكيل الرمل من جديد. أعجبته القطعة التى شكلها فراح يصوغ قطعًا جديدة على هيئات مختلفة، لكن النوم ضربه فجأة فلم يرفع الإناء ولم يخف ما صنع، نام على الأرض

الباردة دون فراش ولا غطاء، حين علت غمغماته انتبه العجوز فقام يهزه كى يذهب إلى الفراش، لكنه غارق فى سبات عظيم، فكر العجوز أن يحمله فانحنى ليقبض على إبطيه. رأى التماثيل تسعى وتتحرك كأنها تمارس الحياة، دقق فى وجه واحد منها فوجده السلطان عبد الحميد جالسًا على عرش الخلافة فى الأستانة وأمامه جمال الدين الأفغاني. قال السلطان بنظرة ساخرة:

- قل لى يا شيخ جمال الدين، ماذا نفعل إذا كان هذا حال المسلمين، وقد اجتمعت عليهم الأمم كما اجتمعت الأكلة على قصعتها، هل نسلمها لهم ونحمل رحلنا ونمشى؟

- ما هذا قصدت يا مولاى، ولو تأذن لى أن أقدم تصوراتى لحال السلطنة لفعلت.

- هات ما عندك.

جلس الأفغانى على مقعد فى مواجهة الخليفة ونشر جريدة بها خريطة الإمبراطورية العجوز وراح يدور بأنامله على حدودها من الشيشان وأفغانستان فى الشمال حتى اليمن فى الجنوب، ومن عمان والبصرة فى الشرق حتى تونس فى الغرب، ثم عاد ليتوقف بإصبعه أمام قطعة مستطيلة يشقها ثعبان طويل مكتس على جانبيه بالخضرة، قال: أتعتقد يا مولاى لو أن مصر ظلت إمارة ترسل لها الولاة مثل باكير باشا ومحمد باشا اليدكشى وأمثالهما لجمع المال

من غير وجه، وتوزيعه على رجال الدولة هنا كما هو معروف وغير خاف على جلالتكم، هل هو خير لمصر وأهلها وللسلطنة؟ أم جعلها خديوية كما كانت قبل أن يلتهمها الإنجليز.

صمت السلطان وكأن حبات العنب الذى يبتلعه قد توقفت فى حلقه، شعر الأفغانى أن حديثه أغضب السلطان، فثمة ذكرى أليمة تركتها مصر للسلطنة، حين قطعت جيوش إبراهيم باشا آلاف الهكتارات فى طريقها لقنص كرسى الخلافة، يومها لم يجد السلطان أمامه سوى الاستعانة بالغرب وجيوشه ليقفوا على أبواب الإسكندرية مرغمين محمد على باشا على سحب جيوشه من أمام القسطنطينية. كادت الدموع تنهمر من وجه السلطان أمام هذا القادم من كابل ليحدِّثه عن خديوية مصر، غمغم الرجل ومسح العبرة التى تكاثفت على جفنيه قائلا:

- لو قلنا إن وجودها خديوية أفضل من بقائها ترسل الأموال فنوزعها على الحاشية، ماذا بعد؟

هنالك نشر الأفغانى جريدته من جديد قائلا:

- السلطنة كما تعلم جلالتكم تتألف من ثلاثين ولاية، فلم لا تبدأون بجعلها عشر خديويات فقط؟

تقطب وجه الخليفة فجأة وشخصت عيناه فى مواجهة الرجل الذى يحفر أسفل عرشه، لكن الأفغانى أسرع قائلاً:

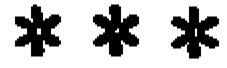
وعزة الحق ما ساقنى إلى ما قلت إلا الإخلاص والحرص على ملككم، والرغبة فى أن ينتظم العقد، وما أرى من سبيل إلى ذلك إلا ما قلت.

شعر العجوز أن بردًا يجتاحه فطوى أعضاءه على نفسه ونظر إلى الذى جمع خريطته بين يديه ووقف ينتظر جوابًا على شرحه الطويل، لملم فضل عباءته على صدره ونظر بحزن وصمت نحو السلطان الذى قال: يا شيخ جمال الدين، إن دولتنا قوية ولا تحتاج إلى هذا التخريف، ولن أبكى كالنساء ملكًا لا أحافظ عليه كالرجال.

كانت الدمى تتحرك أمام العجوز كأنها ممالك الأرض، بينما الأفغانى يحمل جريدته ويدور بين الناس داعيًا للخليفة ومحذرًا من الغرب، والناس يتحزَّبون من حوله، ولكل طريقته ومنهاجه. فهذا محمد بن عبد الوهاب فى الدرعية يطلبها فى سيرتها الأولى، لا أضرحة ولا حلول ولا شجر، وهذا محمد بن نوح فى المدينة يدعو لوحدانية كاملة، وذاك ولى الدين الدهلوى فى الهند يبطل صلاة الجمعة لأنهم مرابطون على حدود الإسلام، ويقيمون بين قوم يعبدون الشجر والقمر والبقر، وهذا الألوسى فى العراق، والمهدى فى السودان، والسنوسى فى جغبوب يتطهر مع أصحابه فى أشد بقاع الأرض قسوة ليعود فيفتح الدنيا من جديد. وفى ركاب الأفغانى تلميذ يقول بالشيئين معًا، يقول بالغرب والشرق

معًا، يقول بشطرى متوسط معًا، فيخرج من عباءته وهابيون رشيديون مهديون، ومن طرفها الآخر حزميون متأنقون متفرنسون، والخليفة فى نزعه الأخير يصرخ فى جنوده: ادخلوا حربًا لا تبقى ولا تذر.

كانت الدمى تسعى فى كل اتجاه كأنها فى متاهة، والخليفة على كرسيه يلف تبغه وينظر إلى جده الفاتح ثم يبكى، بكى العجوز لبكائه وضعفه، بكى لصمته كل هذه السنين وغفلته عما حوله، ونظر فى عينى الصورة المعلقة على صدر العرش فرأى ملكًا يعرفه، نصحه كما نصح الأفغانى سلطانه ألا يستعين بالفرنجة على مسلم مهما كان خروجه، لكنه أبى، فضيع حرم الله وقدس الله وأمن الله، فانتفض من بكائه يقتلع الدمى ويقذفها فى وجه الخليفة الصامت صارخًا: قاتلوهم حتى يكون الدين كله لله.



(٢٢)

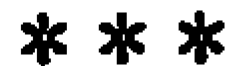
أصبحت العلاقة بينى وبين خالى بهاء الدين أكثر ثقة وقوة، بل يمكننى القول إننى اكتشفت الرجل من جديد، مثقف واسع الاطلاع، دمث الخلق، عالم بطباع النفس البشرية، تاجر دءوب ماهر يفهم من يتعامل معه من الكلمة الأولى، أما علاقاته فهى خارطة تسعى على الأرض، لا يمكنك ألا تجد له معارف وصلات فى أى مكان، لا يمكنك أن تتوقع مَن صديقه بدءًا من رئيس المكان حتى أصغر عامل فيه، كريم إلى حد الإسراف، أنيق حتى أن من لا يعرفه يعتقده واحدًا من نجوم السينما، لبق بدرجة متحدث رسمى، ومتواضع إلى حد عشق الحياة بكل ألوانها ومن فيها، قضى شبابًا نزقًا حتى أننى كنت أراه الوحيد الذى عاش حياته كاملة دون سؤال عن جنة أو نار، لكن ورعه يصل إلى خشية الله فى ذرة تراب. حين اختاره والدى كان صاحب مكتب

للاستيراد والتصدير فى بيروت، وكانت أموره متعسرة، تعامل معه فى عدة صفقات، كانت تقريبًا كل عمل مكتبه، فى النهاية صارت الديون تحاصره من كل جانب، لم يكن أمامه سوى أن يستنجد بالرجل الذى توطدت علاقته به، فدفع دَيونه كاملة فى مقابل المكتب نفسه، لكنه رفض أن يكتب عقدًا بذلك، كانت وجهة نظر والدى أنها أفضل الطرق لحثهَ على العمل بجد، أما بهاء الدين فقد اعتبر نفسه قد أضاع المكتب ولم يعد أمامه سوى أن يعمل موظفًا فيه، دارت العجلة وأصبح المكان واحدًا من أهم مكاتب الاستيراد والتصدير وتشغيل العمالة فى بيروت، توسع الأمر ليدخل هذا المكتب فى العديد من الأعمال الأخرى كالمقاولات والتعليب والوساطة فى الصفقات وغيرها، لكن أيًّا منهما لم يغير وجهة نظره. حين رأى أبى أخته فى إحدى زياراته لمنزلهم شغل بها، ولمح بهاء الدين ذلك فى عينيه، قال: يا صاحبى أنت متزوج من كثيرات ولك العديد من الأولاد وأخشى أن يعرضك هذا للرفض فتفسد علاقتنا. ضحك أبى قائلًا: لا عليك، اسألها فقط. كانت موافقتها السريعة مدهشة لبهاء الدين الذى أخذ يشرح ظروف أبى وسفره الدائم وزيجاته العديدة وأطفاله الكثيرين، لكنها لم تسمع لكل ذلك فعقد عليها فى المساء، لم يتوقف أحد فيما بعد أمام فكرة شيعى وسنى سواى، فقد توارى الأمر وصارت هى حريصة كل الحرص على ألا تثير أمر طائفيتها فى مجتمع سنى يصل فى

كثير من الأحيان إلى التشدد، أما أبى فلم يكن يهمه شيء، ولم يكن هناك من يستطيع الاعتراض أو التفوه بغير ما يريد أن يتفوه به.

بعد عملية نقل الكلى ومصارحة أبى سعيد لى بأمر بهاء الدين صار خالى الفردوس الذى أبحث عنه على الأرض، أستطيع أن أقول إن العلاقة بيننا لم تعد علاقة خال بابن أخته، ولكن صديقين أنقذ كل منهما حياة الآخر، وصارت أحاديث العمل أقل الأحاديث بيننا. قال إن علاقته بأبى سعيد جاءت من خلال أبى، كانا قد تعارفا منذ زمن حين أراد أبو سعيد ترميم وبناء عدة مساجد فى أوروبا، لم تكن أحواله ميسورة وكان الدعم الذى يجيئه من بعض الحكومات العربية والإسلامية قليلا فى ذلك الوقت، فتوجه الرجل من فوره إلى جدة يطلب مقابلة والدك، ولا أعلم لمَ حظى بمحبة وحفاوة شديدة منه، ففى أول لقاء بيننا أخبرنى أن أتكفل بكل ما يريده على ألا نظهر فى شيء. فى البدء استفدت من كون المكتب ما زال باسمى والعملاء يتعاملون معى على أنه ملكى فأخذت فى تدبير أمور الرجل، أصبحت حلقة الوصل بينهما، ولا أعلم هل كان أبوك يلتقيه أم لا، لكنه كان دائمًا يؤكد على أن نفعل ما يريده دون أن نظهر فى شيء، وكان هذا أمرًا عصيبًا فى البدء، فكل الحسابات تجرى بطريقة طبيعية ومعروفة للجميع، والعملاء لا يعرفون سوى توقيعاتنا نحن، لكننا بمرور الوقت أخذنا نغير من عادات ومسارات أموالنا

وحساباتنا بتعقيد يصعب من خلاله معرفة من أين جاءت وأين صبت وكيف أنفقت ومن قام بصرفها ومن قام بإيداعها، وكان هذا التعقيد يسمح لنا بإمداد الرجل بكل ما يريد فى أى مكان ومن خلال أى شخص، وأيقن الجميع فى النهاية أننى وحدى المسئول عن ذلك من وراء أبيك، ودارت شبهات حول علاقتى بالرجل وغيره، ووصلت رائحة هذه الشبهات إلى الشخص الذى لم نكن نتصور وصولها إليه، وهو أمك، وكان كلانا كما رأيت على حرج من أن يفصح للثانى عن سره، فأخذنا ندفع بالعجلة سويًا دون اتفاق نحو تحملك المسئولية بنفسك. قلت: ومن ثم فقد رتبت أمر الرجل كى يلتقينى فى باريس؟ فأجاب: لم يكن أمامى سوى ذلك. قلت: لكن الأمر أخذ وقتًا طويلًا. قال: لم نكن نتوقع قبولك الأمر فأخذنا نتحسس الخطى حتى يطمئن قلبك.



(٢٣)

توقفت الطائرة فى روما قبل أن تتخذ طريقها مجدداً إلى باكستان، صحبنى بهاء الدين فى النصف الأول من الرحلة ثم تركنى بصحبة واحد من كبار المهندسين وفريق عمل لا يزيد عن عشرة رجال، حين وصلت كان فى انتظارى عدد من الباكستانيين يرتدون الصديرى الرمادى على قميص وسروال وعمائم بيضاء، نظرت فى كل الوجوه من على سلم الطائرة باحثًا بينها عن أبى سعيد، لكنه لم يكن هناك، استسلمت لقدرى ونزلت. كان فى مقدمتهم رجل ربعة أبيض الوجه يبتسم بألفة شديدة كأنه يعرفنى منذ سنوات، حين صافحته جذبنى إلى صدره وتعلق يقبّلنى، حين انتهى أعادنى أمام ناظريه وقال: ألا تعرفني؟ لحظتها دققت فى وجهه، إنه هو، نعم هو، صحت وأنا أضمه إلى صدرى بقوة: مجد الدين! قال: نعم مجد يا رجل. أخذنى وراح يعرفنى على الشيوخ

الذين معه، جميعهم عجائز بلحى طويلة وشوارب محفوفة وعيون شاخصة، بدا لى أنه الشاب الوحيد بينهم، خرجنا من المطار واستقللنا عربات جيب أخذت تقطع عشرات الكيلو مترات فى الجبال. سألته عما يحدث وما الذى أتى به، قال إنه أصبح مديرًا لمدرسة الطالبان، ومن ثم فقد صار شيخ الشيوخ كما يقولون، وقد أمره أبو سعيد بالمجيء لاستقبالى. سألته عن الرجال والصحراء والجبال فقال: هذه بيشاور. ضحكت وقلت: أعرف. قال: منطقة تجمع المجاهدين الوافدين من العالم الإسلامي. عرفته على رفيقى المهندس فرحب به قائلًا: عليك أن تهتم بكل شيء، لا تترك كبيرة ولا صغيرة دون دراستها. أومأ الرجل بابتسامة لا تنبئ عن شيء. سألته: ما علاقة مدرسة الطالبان بالجهاد؟ قال: نتناول الغداء ثم نتحدث. وصلت بنا السيارة أخيرًا إلى منطقة قاحلة على ظهر جبل صغير. ترجلنا وسرنا بضع خطوات حتى وجدنا مدخلا يشبه دبر البعير، دلفنا منه إلى خارطة كبيرة أسفلها عدد من الصناديق الخشبية، كان المكان كما لو أنه حفر فى عنق الجبل، دلفنا منه إلى غرفة بها منضدة وجهاز لاسلكى ومجموعة من البنادق والرشاشات. قلت: ما كل هذا؟ قال ضاحكًا: غرفة قيادة. على الغداء قال إن مدرسة الطالبان غيرت منذ سنوات فلسفتها، فلم تعد مجرد مدرسة لتعليم الطلاب أصول الفقه والحديث والشريعة والمذاهب، لقد صارت بفضل أبى الأعلى المودودى وسيدى

عبد الله أبى سعيد معملا لتخريج مجاهدين مناضلين ضد السوفيت الملاحيد، لكن سيدى عبد الله رأى أن الجهاد ليس شأنًا داخليًا على شهوده العيان القيام به، ومن ثم قام بجولات فى العالم الإسلامى وغير الإسلامى لإقناع الحكومات والتنظيمات والجماعات بمدنا بالمال والرجال والسلاح، وصار عدد المجاهدين الوافدين من بقاع الأرض أكبر مما تحتمله إمكاناتنا فى التدريب والإقامة، فرأى أننا بحاجة إلى مكان أوسع وتجهيزات أكبر لنقل الجهاد إلى مرحلة نستطيع فيها دحر عدونا، وأظنك المرشح لهذا العمل بحكم خبرتك وما لديك من مهندسين وفنيين. قلت: لكننى لم أعمل فى الصحراء من قبل. قال: أبوك عمل بها ويكفى أن بهاء الدين معك. قلت: تريد قاعدة لاستقبالهم وتدريبهم ثم توجيههم إلى أماكن القتال؟ قال: بالضبط .. قاعدة! ثم ضحك، سألته: علام الضحك؟ قال: كنا نتحدث ـ سيدى عبد الله وأنا ـ عن هذا الحلم ولم نجد الكلمة التى تعبر عما نحلم به، وها أنت قد نطقت بها. قلت: مصادفة تستحق الضحك حقًا. قال: بل الإلهام. ضحكت من مبالغته. قال: لا تعجب فأنت لا تعرف الصحراء، إنها تعرى الناس وتصفيهم، حتى أنها تجعل كل ملكة وهبها الله لواحد من عباده واضحة وضوح الشمس، فينطق ويفعل فى لحظة ما يبحث عنه الآخر سنوات. حل بعد ذلك صمت شغل خلاله مجد الدين بأشياء تخص الرجال، عاد بعدها متهلل الوجه، قلت: خيرًا؟ قال: كل

الخير، قدومك فأل حسن، لقد كبد الرجال اليوم ملاحدة الروس خسائر كبيرة. قلت: قد يرد الروس بعنف. قال: متوقع، لكننا نعرف الصحراء أكثر منهم ونعرف كيف نختبئ فيها حتى تمر حملتهم. سألته: هل يغزو أبو سعيد وهو فى هذه السن؟ قال: كان موسى بن نصير شيخًا فى السبعين حين فتح الأندلس. قلت: كان مع موسى طارق بن زياد، وقد عبر المضيق قبله. جذبنى مجد للحديث من جديد عن أبى سعيد: لو رأيته فى الميدان لأشفقت على الروس منه، كأنه سيف الله المسلول فى القادسية، يقتل من يقتل ويسبى من يسبى ويرسل بالأموال والبشارة إلى أبى بكر فى المدينة. حين انتهى من جملته نظر فى عينى كأنه عاد لتوه من زمن الفتوحات قائلًا: يا صاحبى من مات ولم يغز ولم يكن فى نيته الغزو مات ميتة جاهلية. شعرت لحظتها أن عمارة بن الوليد انتهى من حياتى إلى الأبد، وأننى أستقبل رجلا زاهدًا نذر نفسه لحرب القاسطين والمارقين والناكثين، فرأيت عليًا بن أبى طالب يخطب على منبر الكوفة: أمرت أن أحارب على التأويل كما حارب رسول الله على التنزيل، فصرخ بداخلى شخص ما: ما لى وما لعلى، ما لى وما لحرب لا أرضى فيها أحدًا، ولا يرضينى فيها أحد، فتختلف علىّ الأمم فى كل زمان ومكان!

حين التفت مجد الدين نحوى وجدنى أتداعى كجدار متهالك فاحتضنني: ما بك يا رجل؟ قلت لقد صرت كهلاً،

خذنى إلى حائط أستند عليه. توكأت على الرجل مجرجرًا قدمى نحو الكهف، أغفو وأصحو وحرارتى تعلو وتهبط، جسدى هنا ونفسى موزعة بين معاوية وعلى، قلبى يرتجف وأنا أرى عمار بن ياسر يحمل حجرين فيصرخ فيه رسول الله: ويحك يا عمار، يحمل الناس حجرًا وتحمل حجرين! تقتلك الفئة الباغية يا عمار، وأنت مذ ذاك مع الحق والحق معك. وتمر السنون وتشتعل الفتن، فأرى عليًا يخرج للزبير قائلاً: أتذكر يوم قلت لم يفارق ابن أبى طالب زهوه القديم، فقال لك رسول الله ليس به زهو وإنك ستقاتله وأنت له ظالم. فيلوى الزبير عنق جواده ويعود من حيث أتى، ليخرج فى الصباح من جديد فلا يجد غير عمار بن ياسر، فيقول: أتقاتلنى يا عمار؟ فيقول: أقاتلك وتقتلنى الفئة الباغية. فيعتزل الزبير الحرب: والله لا أقتلك ولا تقتلنى ولا أكون مع فئة باغية. وأسمع رسول الله: يا ابن ياسر إذا سلك على واديًا فاسلكه، وإذا صعد جبلا فاصعد خلفه، وإن رأيته سلك واديًا وسلك الناس غيره فاسلك مع على، فإنه لن يدليك فى ردى ولن يخرجك من هدى. فأرى عمارًا وقد بلغ الثمانين يمتطى جواده ويحمل سيفه قاطعًا الفيافى خلف على، لكن عليًا يعود وحده. فأين عمار يا علي؟ قتلته الفئة التى قال عنها رسول الله، وعمرو ومعاوية يقولان: قتله الذى أخرجه. فهل قتلك رسول الله يا عمار؟! لكن رسول الله يقول صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة، وعزائى أن العباس وولده

سيخطبون على منبرى هذا بعد أن تنزو عليه القردة من بنى أمية.

كان عليهم أن ينتظروا ثلاثة أيام حتى يجىء أبو سعيد على جواده كفارس من زمن غابر يلقى على وجهى رداءه ويمسح عرقى براحته ويتلو "يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين" فأنهض من مرضى كأن شيئًا لم يكن. وأدور مع رجالى فى جولة طويلة حول المكان، نجس الأرض ونأخذ الصور ونرسم الخرائط حتى شعرت أننى أنجزت ما لم أنجزه طوال حياتى، فتركتهم ورحت أناقش مع أبى سعيد صعوبة العمل فى مكان مكشوف، فطرق الرجل براحته على كتفي: هدئ من روعك يا ابن أخى، فكل ما نحتاج إليه مكان لتدريب الرجال. وراح يحدثنى عما استغلق علىَّ من أمر علىٍّ وعثمان وأبى بكر وعمر، كان كنافذة أطل منها على عالم غابر كأننى أعيش فيه، حتى نزلت الشمس من مركبها ورأيت من يسعى بجواده خلفنا، فاستدار نحوى قائلاً: غدًا نكمل ما بدأنا. لكن غدًا لم يأت إلا بعد شهور طويلة.

(٢٤)

بدأنا التفكير فى سحب جزء من أعمالنا وتوجيهه إلى شبه القارة الهندية، لكن الأمر لم يكن بالسهولة التى تصورناها، فأموال المجموعة متضاربة ومختلطة إلى حد بعيد، ولولا ما بذلته أمى وخالى من معارضات قديمة لهيمنة أخى الأكبر سالم لكنا ضيوف شرف كما يقولون، لكن سالمًا توفى فى حادث مشابه لحادث أبى، ولم يبق إلا مجلس الوصاية الذى كونه الملك للحفاظ على الإمبراطورية التى تركها صديقه. جعلتنا قوة أمى وعلاقاتها بنساء البيت الملكى قادرين على الوقوف فى وجه محاولات سالم للسيطرة على كل شيء، وحين توفى صرنا نحن الفاعلين الأقوى فى المجموعة، لكن هذا كان ظاهريا، لأن الحسابات تقدم بشكل سنوى لمجلس العائلة، ثم مجلس الوصاية الذى يبلغ ولى العهد بكل شيء، أخذت فى تدارس كل هذه الأمور مع بهاء

الدين، يومها كان الرجل يدخن بشراهة وكأنه مقبل على أكبر مشروعات حياته، سألته: هل يمكن أن نلغى مجلس الوصاية، فطأطأ رأسه قائلا: ممكن. قلت: فلم لا نفعل؟! قال: لا بد من موافقة الملك شخصيا. تعجبت من اهتمام الملك الزائد بأمورنا، فابتسم قائلا: لأن والدك صاحب فضل عليهم. وجدتها فرصة للخروج مما نحن فيه، فتظاهرت بأننى لا أعرف القصة: كيف ذلك؟ ويبدو أنه كان يريد أن يستلهم من روح صاحبه الحل الأمثل لمشكلتنا، فرفع وجهه نحو شيء مبهم فى سقف الحجرة قائلًا: كانت الحرب بين ناصر والبدر على أشدها، وسعود قد فتح خزائنه لمناصرة البدر ضد ناصر، مما جعل الخزانة تفرغ، وشعر الأمراء أن رواتبهم مهددة، فرأوا أن يخلعوا سعودًا ويجعلوا فيصلا مكانه، لكن كيف يحدث هذا، لم يكن أمامهم سوى البحث عن رجل لا ناقة له ولا جمل، وعلاقته بسعود طيبة، ولم يكن هناك سوى والدك، فذهب إليه قائلا إن من سيجلس على الكرسى لمدة شهر من الآن سيواجه بثورة لا يعرف من أين ستأتيه، فقد فرغت الخزينة، وأصبح الأمراء مهددين بوقف رواتبهم، وهذا لا يرضيهم بأى شكل، فما بالك بالجنود والسفارات والعاملين فى الدولة، وما بالك بالغرب الذى يدعمنا فى مواجهة ناصر، ذلك الذى يريد أن يستتب له الأمر فى اليمن كى يقفز على الرياض، ولا نعرف ما الذى يدبره من المكائد للجالس على هذا العرش، ولا ما الذى سيدبره الأمراء لمن قطع رواتبهم،

وفى النهاية لن يمر شهر حتى تشهد البلاد ثورة أو انقلابًا أو تدخلاً أجنبيًا، وسوف يرتبط اسم جلالتكم بكل هذه المآسى لو لم تبحثوا عن شخص غير مدرك لحقيقة الأمر، فإذا وقعت الواقعة رأى الجميع أنه المسئول عنها، وأنه ليس هناك أفضل من جلالتكم لإدارة المملكة، ساعتها سيطالب الجميع بعودتكم لتنقذ البلاد من إفلاسها وما يتهددها. يومها فكر الرجل بعمق وحزن ثم سأل عن مصيره، فأخبره أنه يمكنه أن يصل مع الأسرة إلى حل يضمن له الحياة كملك. وافق الرجل كمن يوقع على شروط استسلام، فأعلن فى اليوم التالى تنحيه عن الحكم وتولى فيصل الحكم.

حين رأى خالى اهتمامى بحديثه استطرد فى سرده قائلًا: كان فيصل مرعوبًا من أن يكون ملكًا فى مثل هذه الظروف، وهنا جاء دور والدك للمرة الثانية، فقام بدفع رواتب العاملين ومستحقات الأمراء، وسدد التزامات المملكة وكأن الخزينة تفيض بالأموال، ولم يكن هذا كل شيء، فقد قام بجولات مكوكية ليقنع عددًا من شركات البترول بالتنقيب عن آبار جديدة وتوقيع عقود يدفع بمقتضاها ما يمول الخزينة الفارغة، كان والدك أشبه برئيس وزراء المملكة أو ولى العهد، يتصرف ويأمر ويفعل ما يشاء، وبدوره كان يقاتل كما لو كان أمام التحدى الحقيقى فى حياته، فلم تكن أمور المنطقة مغرية لأى من شركات البترول فى ظل الحرب الكلامية بين ناصر والمملكة، لكن والدك كان يلوح للشركات

الغربية بطلبات عقود روسية، وفى اليوم التالى يلوح بطلبات عقود مشابهة من الولايات المتحدة أمام مجالس إدارة الشركات الروسية، وظل الرجل ينفق على المملكة حتى اكتشفت هذه الشركات حقول بترول جاءت أكبر من كل التوقعات، ولم تنس الأسرة الحاكمة هذا الجميل فأعطته كل عقود الإنشاءات وتركته يتحرك كواحد من البيت الحاكم.

كان الرجل يسرد وقائع تاريخ كان شاهد عيان عليه، وكنت سعيدًا بالسماع عن بطولات أبي. فأخذت أحثه على المزيد، قلت: هل هذا كل ما فعلت المملكة للرجل الذى جاهد بماله ونفسه من أجلها؟ فابتسم قائلًا: لا تكن ظالمًا فما فعلته وتفعله كثير، فقد أعادت له أمواله كاملة حين استقرت الأمور، وساعدته كى يصبح هذه الإمبراطورية التى تنافس فى العالم، ومع ذلك فحين ذهب والدك ليقول لفيصل إنه فى سنوات فقره نذر لله أنه لو أعطاه المال والولد ليجددن الحرمين ويوسعهما على نفقته الخاصة، ضحك قائلًا: ونحن هل ليس لنا فى هذه المكرمة من شيء؟ فابتسم: كل شيء ملك جلالتكم. قال الملك: إذًا نفعل كل ما تريده بالنصف. قال: يا مولاى هذا نذرى أنا. قال فيصل: وأنا خادم الحرمين، فماذا نفعل؟! قال: إذًا أجدد المسجد الأقصى وحدى. قال: لك ما تريد.

كانت حالة بهاء الدين النفسية قد صارت على عكس ما كانت عليه فى بداية اليوم، صار مرحًا منتشيًا يرد على

الهاتف بأريحية كبيرة، ويعامل الناس بلطف شديد، حين لاحظت هذا التغير على وجهه ونعومة النفس الخارج من سيجاره قلت: لكننا ما زلنا للآن فى ورطة، فسحب نفسًا طويلا ثم نظر إلى النافذة قائلا: ليس هناك مستحيل. قلت: كيف؟ قال: غدًا أذهب إلى ولى العهد لأقنعه بأن العمل مع المجاهدين محاط بالشبهات، وقد يوقع الملكة فى مأزق لو تسرب خبر عن دورها فى ذلك، ومن الأولى أن نرفع الوصاية عن الذين بلغوا سن الرشد، حتى يكون دخول أبى عبد الله دخولًا لا تشمله الوصاية ولا الرعاية الملكية، فإذا وقع ما نخشاه كانت المملكة وسيادتها بعيدة عن الشبهات، خاصة وأن علاقات الروس بمجنون العراق على أفضل ما يكون. حين سمعت عباراته ورأيت طريقة أدائه عدلت من جلستى، واتخذت موقف الملك قائلا: معك حق، أنت داهية يا بهاء، وأنا سأجعلك وزيرًا للخارجية.

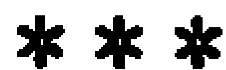
(٢٥)

"لا يعلم الغيب إلا الله" قالها مجد وسكت. كان وجهه وصوته ممتلئان بالحزن، شعرت أن الرجل يعانى من مشكلات عصيبة على الجبال، لم أشأ أن أدخل فى تفاصيل قد تزيد من حزنه، فرحت أنظر نحو الرجال الذين يبنون منزلا من ثلاثة طوابق، قال أبو سعيد: أريده من الخارج كبيوت الباكستانيين ومن الداخل كبيوت المصريين. لم أفهم ما يعنيه بالضبط لكننى قلت لك ما تريد. وأدليت برغبته للمهندس المسئول، حين بدأ البناء فى الارتفاع كان الرجال يرونه أول منزل لسكناهم فى هذه البلاد، لم أشأ أن أحرمهم من رغبتهم فأمرت ببناء بيت آخر فى بيشاور على نفس النموذج. قلت لمجد بعد برهة: لكم عندى مفاجأة. قال: هاتها. قلت: لا تحتفظ المفاجأة بقيمتها لو أفصح عنها قبل أوانها. كان عليهم أن ينتظروا عدة أيام حتى ينتهى العمال من

البناء، أخذتهم إلى البيت الذى طلبه أبو سعيد وقلت: هذا ما أردت. أعجب الرجل به فقال: سنقيم هنا إن شاء الله. قلت: لكن المكان لن يتسع لكم وللقادمين بأسرهم، قال نتحمل بعضنا بعضًا حتى يأتى الوقت ويفتح الله علينا المدن. قلت: تعال معى. ركبنا عربة كانت بالقرب من المبنى، وذهبنا بضع مئات من الأمتار، قلت: لا يحسن أن يكون القادة وأسرهم على مقربة من القادمين الذين لا نعرف عنهم الكثير، ربما كان من بينهم من جاء لصالح الروس أو غيرهم. قال: معك حق لكن ماذا نفعل؟ قلت: هذا هدية للمجاهدين وأسرهم، أما المنزل السابق فهو للوافدين من كل مكان، يقيمون فيه حتى يخرجوا إلى القتال. ضحك الرجل قائلا: ونحن أين وضعتنا؟ قلت: لا ضير أن تنتظر نساؤكم فى إسلام أباد، فهذا أحوط لهن وأنجى. تمتم مجد الدين: نعم لا أحد يعرف الغيب. قلت: هل كان هذا ما كنت تفكر فيه منذ أيام؟ قال أبو سعيد: لا، فمجد عاتب عليك ولا يريد محادثتك فى شأن يخصك. قلت: ما هو؟ قال: اتصالك بغيره من المجاهدين وأنت تعلم ما بينه وبينهم من خلاف، فهم يرون مجدًا ورجاله دخلاء على الجهاد، يستقطبون منهم المجاهدين ولا يحققون شيئًا، فيهدرون الجهد والمال بلا معنى. لم أكن أعلم بكل هذا الخلاف القائم على الأرض، كنت أتصور أنهم أشقاء فى الجهاد، ومثلما يأتى المجاهدون إليه فهناك من يذهبون إليهم. قلت: فلماذا لا توحد الجهود؟ قال: لأن الأمر يدار

بشكل قبلى، ومجد من البشتون الأكثر عدداً والأوسع مساحة، لذا يريدون تحييده، حتى إذا ما انتهت الحرب لا ينازعهم مكاسبها. أدركت أن الصراع الخفى أكبر من المعلن. قلت: إن لقائى معهم لم يكن إلا لرأب الصدع. فتهلل وجه مجد قائلًا: هل كنت معهم من أجل هذا فقط؟ قلت: وهم يحتاجون لما نحتاج إليه، يريدون السلاح والعتاد والرجال وأماكن للتحصن خلفها، وهذا عمل لا يمكننى أن أتأخر فيه عن أحد. عادت أساريره إلى تجاعيدها من جديد، فغمزت بعينى لأبى سعيد ناحية الوجه المكفهر. قال له: لا تغضب.. إنه يعمل فى صَالح الجميع. قلت مازحًا: هل يضيركم أن يرجع الناس بالأموال وترجعون وفيكم أبو عبد الرحمن؟ قال: وهو ينظر إلى أبى سعيد: ما زال يمزح! قلت وكأن العبارة كان يجب أن تصاغ هكذا: ما زال ابن أبى طالب لم يفارق زهوه القديم! ضحك أبو سعيد ونظر ناحية مجد قائلًا: وإنك ستحاربه وأنت له ظالم. هنالك انتبه مجد من شروده ورفع رأسه ناحية أبى سعيد قائلًا: لو كان آخر يوم فى حياتى ما فعلت، ولو أجبرنى العالم على هذا لقطعت يدى قبل أن تمتد إليه. قال أبو سعيد: إنَّا نمزح. قال مجد: وأين أنا من الزبير. قلت: وهل أنا علىّ؟! قال: مجد أو لست ابن امرأة منهم؟ قلت: بلى. قال: والإمامة بالوراثة والنص؟ قلت: بلى. قال: فقد نص عليك أبو سعيد. قلت: ماذا؟! قال أبو سعيد: من اليوم عليك أن تجهز نفسك كى تأتى إلى هنا، وجودك أصبح

ضرورة معنا، وهناك أمور لا أرى من يصلح لها غيرك، فقد شغلنى حمل السلاح، ولنا مريدون ودعاة ومصالح فى شتى البلاد. قلت: يمكننى أن أفعل ما تريد من هناك. ضحك قائلًا: نحن كالزيدية نشترط وجوب خروج الإمام حتى تتم إمامته. قلت: هل هذا ما أغضب مجد؟ هنالك توقف أبو سعيد عن السير ورفع ذراعيه، ثم أخذنى تحت إبطه الأيمن، وآخذ مجدًا تحت إبطه الأيسر وجعل وجهينا متقابلين: لا يعلم الغيب إلا الله، ربما تكون الإمامة فيك، وتكون الإمارة فى مجد، أوليست تجوز تولية المفضول مع وجود الأفضل؟!



(٢٦)

كان علينا أن نتحرك فى أكثر من اتجاه، فراح بهاء الدين ينثر رجاله كى يقيموا مؤسسات اقتصادية فى شتى أنحاء العالم تحسبًا لتوقف التمويل فى أى وقت، من جانب آخر رحنا نجهز لعدم تواجدى فى المملكة وإقناع أمى بأن الأمر جد ميسور ولا خوف علىَّ فى شىء. أما فى بيشاور فقد بنينا معسكر الوعد الحق ومعسكر القادسية، واستأجرنا عدة بيوت لسكنى الأسر بعيدًا عما يدور على الجبهة وأخبار القتال، كما استأجرنا منزلا فى مكة لاستقبال الوافدين من شتى البلدان، وفيه يتم تزويدهم بالوثائق والمال ليتوجهوا إلى بيشاور عبر طرق ومسارات مختلفة، اتفقنا أيضًا على استئجار بيوت مشابهة فى اليمن وبيروت والجزائر لتلقى المعونات ومساعدة من يريدون التوجه للجهاد، أما القاهرة فقد كان لنا فيها رجال وتقاليد موروثة منذ علاقة التلمسانى

بأبى سعيد، فعن طريقه وقفت الجماعة بجانب أسر من اعتقلهم عبد الناصر، ولما كان دخول مصر غير ميسور للرجل فقد بعث بمواطنه صالح سرية، كان ذلك فى منتصف الستينات، قال له أبو سعيد: اذهب فقد حرثت الأرض وتهيأت للزرع؛ فنزل سرية فى زى طالب علم لتجهيز المجتمع للثورة الإسلامية، فراح يضرب فى كل مكان مؤسسًا ما استطاع من جماعات، بعضها قال بهجرة المجتمع واعتزاله لإعداد العدة وفتحه من جديد، وبعضها قال إن المجتمع صالح لكن فساد الراعى يفسد الرعية، وعلى من يريد تغيير البدن البدء بتغيير العقل، كانت فرصة سرية لتفجير كل هذه الأفكار كبيرة بعدما وصلت أفكار سيد قطب إلى طلاب الجامعات والمدارس، فقال إن الجهاد يجوز فى الداخل والخارج، وقد أوقف أبو بكر مجاهدة الروم والفرس حتى يجاهد المرتدين، وكان خالد بن الوليد السيف الذى يسره الله له، فمن لم يكن خالدًا فعليه أن يتمنى أن يكون خالدًا، ومن لم يغز ولم يكن فى نيته الغزو مات ميتة جاهلية، ومن لم يستطع فقد قال الله "ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا".

كان سرية حكيمًا يعرف كيف يصب الكلمات على الزيت فى جوف الظلمة الناصرية، ولم يجد السادات غير التلمسانى ورجاله ليقضى بهم على فلول الزمن السابق، فخرج الصابرون من السجون، وانتشروا فى الأرض يزرعون ويحصدون، لكن السادات ما لبث أن غره نصره فاتخذ وجهة

غير التى أرادها الجميع. وكان التلمسانى أميل للمهادنة حتى تكتمل العدة، لكن سرية رأى السادات خرج على العهد، والتلمسانى تخاذل عن خطى الإمام. فأرسل التلمسانى لأبى سعيد قائلا: "صاحبك يفقدنا الكثير، فاسحبه قبل أن تقوم فتنة لعن الله من فيها"، فجاء الأمر لسرية بالخروج وتسليم الأمر للرحال، لكن سرية رأى أن أوان القطاف قد حان، فدفع بحصاده فى الفنية العسكرية، ولأمر قدره العزيز العليم فشلت خطته، وخرج من مصر بلا نجاح يذكر، وكان "الرحال" أقل خبرة ودراية بالعمل، فهلك التنظيم الذى قاده فى فتنة الزاوية الحمراء، وأمر أبو سعيد بعودة الشيخ الضرير من جامعة الملك عبد العزيز ليقوم على جمع الشمل وتهدئة الأوضاع، فأصبح التمويل فى يد الرحال والإمارة فى يد الضرير، وأعاد الرحال تنظيمه القديم على جماعتين، إحداهما يقودها هو والأخرى يقودها زميله القديم عبد السلام فرج، وفى الوقت الذى أدار الضرير الأمر بحكمة أصدر عبد السلام كتابه عن الفريضة الغائبة، فاشتعل السادات غيظًا وأهان التلمسانى أمام الجميع على الهواء، فغضب الأخير قائلا: "لو أن غيرك قال ما قلتَ لشكوتُه إليك، لكن أما وإنك أنت الذى قلت فإننى أشكوك إلى الله"، وكانت هذه الكلمة بمثابة القول الفصل، فقام أبو سعيد بجولات مكوكية بين الشرق والغرب، وأقنع الجميع بأن الرجل قد خرج عن النص، وكما قيل يؤتى الحذر من مأمنه. لكن

الجماعة فى الصعيد أيضًا خرجت عن النص، معتبرين وقوف عبد السلام والزمر عند ما فعلوه خيانة للإسلام، وما كانوا يعلمون، وما كان للضرير أن يخبرهم، فكانت النهاية التى ما كان سيكون بعدها نهاية لولا أبو سعيد الذى راح فى جولات جديدة ليصوب الخطأ ويعيد الأمر إلى نصه القديم.

(٢٧)

الشيخ الضرير

توقفت الحياة عند حدود زيارات خاطفة إلى أفغانستان، ليس هناك من جديد، الرجال يتابعون عملهم فى كسل، فشهور الشتاء تكاد تكون بلا عمل، والحلم أصبح محدودًا مع شدة اشتعال النيران، وحده أبو سعيد الذى ظل مؤمنًا بكل شيء ويستحثنى على المجيء، قال إن وجودى معهم سيحسم أشياء كثيرة وسيضبط كفة الميزان، لا أعرف بالضبط عن أية كفة كان يتحدث! أما خالى بهاء الدين فقد ترك لى إدارة المجموعة لأصبح على دراية بها، وشغل هو بفكرة الدفع بالمجاهدين إلى الأرض الأفغانية، فى الشهور الأخيرة طرح علىَّ أن ندفع بهم إلى جهات كالشيشان وألبانيا، تخوفت من أن يُغضب هذا أبو سعيد المحاصر فى الكهوف، حين التقيت

بالرجل بدا واثقًا من النصر رغم سوء الأحوال، قال: كله جهاد والأمر ليس وقفًا على مكان بعينه، ولا تخف لأن نصر الله قريب. أمدتنى كلماته بالثقة رغم ما يشوبها من يأس. رحت أدفع بالعجلة فى الاتجاه الذى أراده خالى، كانت الأموال تتدفق علينا من جهات بعضها غربى وبعضها شرقى وبعضها من منظمات، كان الكل مؤمنًا بعملنا على نحو أو آخر، وكان بهاء الدين يدير الأمر بعبقرية لم أكن أتوقعها، كأنه اقتصادى أغفل وجوده البنك الدولى فقرر هو أن يكون بنكًا موازيًا، يلعب فى كل شيء، ويمول كل شيء، ويجنى أرباحه وفوائده دون جهد، صارت الأرقام تتضاعف والحسابات تتداخل وتتشابك، ووحده الذى لا يخاف منها، وحده يمسك بخيوطها كأنه عقل مركزى لا حدود له، كنت آخذ من أمورها على قدر وأترك على قدر، وكان حريصًا على أن يعطينى مفاتيح الأشياء، ولم يمنعنى كل ذلك من المشاكسة معه كلما أتيح الوقت لذلك. سألته ذات مرة عن عبد الله الشيعى، نظر بعينيه المجهدتين من العمل قائلا: فاتح إفريقية لأبى سعيد؟! قلت: نعم. قال: رجل عظيم لولا أنه انصاع لوساوس أخيه أبى العباس. قلت: ألا ترى أنه كان على حق؟! وضع ما فى يده وخلع نظارته ليمسح شيئًا عن جفنيه قائلا: كل ميسر لما أتى له، وهو كان ميسرًا حين نقله أبو سعيد من اليمن إلى المغرب قائلا اذهب فقد حرثت الأرض ومهدت، ولا تحتاج إلا لمن يلقى البذور، فذهب وكأنه شيخ ضرير، يخطب

ويعظ حتى فتن به الناس، قالوا كأنه أنت لولا ...! فقال: لولا ماذا؟ قالوا كان قبلك شيوخ يقولون إن أوان المهدى قد جاء، وإنا نراك هو لولا أنه مبصر، فقال هكذا ... وعدل من نظره، وظهر السواد وذهب البياض فهللوا ثم قالوا لولا ... فقال أن فكه لا يطبق على أخيه؟ فقالوا: نعم. فرفع اللثام عن وجهه قائلا كهذا؟ فهتفوا: نعم، فقال: والثالثة أن ساقيه رفيعتان كخيطين انفتلا على بعضهما؟ فلما وقف ورفع الثياب عن جذعه هللوا وقالوا: الآن أيقنا أنه أنت. فقال: لولا أننى لست المهدى، لكننى كبير دعاته فهلموا ندعو الرجال للخروج، فانتشرت دعوته فى قتامة وسلجماسة كما النار فى الهشيم، فنازع بنى الأغلب على ملكهم، وأرسل إلى عبيد الله المهدى أنْ قد استتب الأمر لك، فلما تولى الرجل أمر دولته حسده العباس قائلا لأخيه عبد الله: كان أمرًا زمامه فى يدك فأعطيته لغيرك. وراح يقول إنما المهدى يحيى ويميت ويشفى المرضى، فاسألوا صاحبكم إن كان يفعل؟ فبلغ عبيد الله ذلك فأرسل العباس واليًا إلى إحدى الولايات، وأرسل البريد قبله أن إذا حضركم فلان فاقتلوه، فجاء قتله فى يوم قتل أخيه عبد الله، هذا الذى أقبل على بيت الإمارة فوجد الحراس يشهرون سيوفهم عليه، فصاح: ويحكم إننى الذى وليتكم، فقالوا: إن الذى وليته علينا هو الذى أمرنا بقتلك.

كانت دمعة تكاد تفر من عينى بهاء الدين وهو يحكى، فوارى نفسه عنى ومسحها فى صمت، حين استدار كانت

عينه لا تزال مشربة بآثارها، قال: هكذا الأمر، وهكذا يسر لكل منهما أمره، هو الداعية لا شيء، وكان أمره ميسرًا فى مناط عمله، فلما خرج عنه خرج الأمر عليه، ولا تحسب أنه كان يمكنه أن يقيم دولة بنفسه، فقد خرج على المهدى كثيرون فقضى عليهم، حتى أنه حين اختط "المهدية" اتخذها لسانًا فى البحر، وجعل أسوارها عالية كالجبال، وجعل أسفلها مخازن للغلال من كل صنف، فلما اكتملت صعد بقائد جنده أبراجها وقال: أوتر قوسك. فلما أوتره قال شده ما استطعت ثم ارم، وحيث سقط السهم قال: إلى ها هنا ينتهى الأعرج صاحب الحمار. فلما كان فى نهاية أيامه انتفضت إفريقية وخرج عليه أبو يزيد الخارجى، فأخذ منه ملكه وحاصره فى المهدية، وحيث انتهى السهم وقف الخارجى لا يستطيع التقدم، فمات المهدى والمدينة محاصرة، وتولى ابنه القائم من بعده، ثم تولى المنصور والمهدية محاصرة، لا يستطيع الأعرج دخولها ولا يعفى الناس من شره، حتى ضجر منه أعوانه وخرج له المنصور بجيوشه فقضى عليه، واستتب له ملك جده. فهل كان المنصور يملك هذا لو لم يكن ميسرًا لأمره.

ضحكت من شدة تأثره بما يحكى ورحت أعابثه: فلم أنت حزين؟ قال: لا عليك - واستدار قبل النافذة - هذا تاريخى وأنا أولى به، قلت هذا تاريخنا جميعًا. قال: هم الشيعة، وكلما رأيتنى تضيق على أمرى حتى كرهت ما أنا فيه. أصابتنى جملته بالحزن وأدركت كم كنت قاس عليه، فقلت:

لك ألا أعيد عليك السؤال فى هذا الأمر ما حييت. جفف الرجل ما بقى من دموعه قائلًا: دعنا نلتفت إلى ما نحن فيه. واستدار بجذعه فحمل حقيبة صغيرة وضعها على المكتب، كانت أشبه بالحقيبة التى يحمل فيها أوراقه فلم ألتفت إليها، حين فتحها قائلا: هذا حاسب شخصى، أرسلت فى طلبه من أجلك. كانت أصابعه تعبث على مفاتيحه بينما الشاشة تغير من أوضاعها، رحت أنظر بتلهف وهو يقول: سوف تحتاجه هناك، يمكنك تدوين كل ما تشاء عليه، فهو كهذا بالضبط. وأشار إلى الجهاز الرابض على المكتب، أخذت أعبث فى أزراره فوجدت ملفًا باسم الرجل الضرير، شدنى مسمى الملف فضغطت عليه، طالعتنى صورة شاب ضرير بلحية مشعثة وزى أزهرى، نزلت بالسهم إلى أسفل ورحت أقرأ:

الاسم: عمر عبد الرحمن

السن: ٤٦ عامًا.

مواليد: ٣/ ٥/ ١٩٣٨.

محل الميلاد: الجمالية - البحيرة - ج. م. ع.

الشهادات:

كلية أصول الدين ١٩٦٥.

ماجستير فى الشريعة والقانون ١٩٦٧.

عالمية الأزهر ١٩٧٢.

الخبرات: معيد فى عدد من المعاهد الأزهرية فى جنوب مصر.. من ١٩٧٢ إلى ١٩٧٧.

سألت بهاء الدين عن الرجل فقال: ألا تذكره؟ فأجبت بالنفى، قال إنه شغل أجهزة الإعلام فترة طويلة، إنه أحد المتهمين فى مقتل السادات ومفتى جماعة الجهاد فى مصر، خرج من قضيتين يصعب على أى شخص أن يخرج من إحديهما سالما. سألته عن جمعه للمعلومات عنه فقال إنه لم يجمعها لأنها موجودة لديهم منذ طلب أبو سعيد تعيينه فى جامعة الملك، وها قد خرج من سجنه سالما، ويريد العودة إلى المملكة. قلت: وهل تبحث له طريقة للخروج من مصر؟ قال: إنه يسأل هل يمكن أن يكون مكانه فى الجامعة ما زال شاغراً؟ المشكلة ليست فى ذلك، سألته: فيم إذاً؟ قال: إنه لن يأمن على وجوده فى بلادنا، ولن يكون طريقه إلى أفغانستان كالآخرين، ومن ثم فإلى أين أين يذهب، وهل ستقبل السلطات هنا بوجوده؟ قلت له: لا عليك، فسأقنع الأمير أننى أحتاجه لجمع المجاهدين.

(٢٨)

الطريق إلى أفغانستان ليست كالطريق إلى إسطنبول التى خرجت من بلادى إليها ثم منها إلى باكستان، فالطريق هنا ممرات ضيقة عبر صخور يصعب الوصول من خلالها إلا للعارفين بالمكان ودروبه، بالطبع لم أتحمل مشقة البحث عن هؤلاء لأنهم كانوا فى انتظارى، فتوجهنا من بيشاور إلى بيت استقبال الوافدين الذى أطلق عليه أبو سعيد "بيت الأنصار".

كنت أعرف أن هذه الرحلة ليست كسابقاتها، وأنها قد تمتد إلى شهور، وأن علىَّ العمل كمجاهد وليس زائر، لم أقلق من عدم استقبال مجد أو أبى سعيد لى، فربما اتفقا على أن أخوض المغامرة كما يخوضها غيرى، هكذا عللت الأمر وشحذت نفسى لأن أتعلم بأسرع مما يتوقع الجميع، ليس لإثبات مهارة أو رغبة فى القيادة ولكن لأننى أتحمل من المسئوليات أكثر مما يتحمله الآخرون، فما يعتبرونه فعل حياة

أو موت كان على اعتباره خطوة لا بد من إنجازها لألتفت لسواها.

كنت قد تركت وضعًا ملغمًا فى بلادى، فقد غضبت منى أمى بعدما تعلقت بشقيقة أحد أقاربنا فى حضرموت، ولأول مرة منذ سنين رأيتها تغضب لأجل ابنة أخيها، كان الأمر فى البدء مجرد شائعة سرت فى ردهات العائلة، وكنت لا أنفى ولا أثبت، لكن زوجتى زادت فى عنادها وأمى هددتنى أنها ستتزوج هى الأخرى إذا تزوجت أنا، كان الأمر صادمًا بالنسبة لى، فأنا أعرف أنها منذ زمن ترفض طلب واحد من معارفنا القدامى للزواج منها، لكنه فى الآونة الأخيرة بدأ فى معاودة زياراته للمملكة ومن ثم منزلنا، رددت على زياراته بزيارة إلى بيت صديقى وأخته فى حضرموت، وقمت بافتتاح شركة لنا هناك كنوع من توثيق التبادل المالى، فازداد جنونها، بينما خالى المجهد من الانشغال فى كافة الاتجاهات بدا وكأنه لا يريد التدخل فى أمر عائلى، كنت أرى فى عينيه إشفاقًا علىَّ، وكثيرًا ما كاد يقول لى "ترفق بنفسك وتراجع"، لكنه خشى أن يكون حملا على أحمالى، فهو الوحيد الذى أعتمد عليه، وهو الوحيد الذى لو تخلى عنى لشعرت أن فقارات ظهرى تتهشم، لكنه لم يقل شيئًا، حاولت أن أستشيره فبدا أنه اتخذ قراره منذ زمن، رحت أعالج الأمر مع أمى لكنها قالتها صراحة: ها أنت تكافئنى على صبرى بالزواج على ابنة أخي. قلت لها إن هذا غير صحيح. فأخرجت لى

جريدة يمنية نشرت خبر افتتاح الشركة، قالت: وهذا.. أليس مهرها؟ شعرت أنها تتجسس علىَّ، وتعاملنى كطفل فى حجرها، انتصبت واقفًا: نعم هذا مهرها. غادرت المنزل وبداخلى رغبة جنونية لدفع القاطرة إلى الحافة، اتصلت بصديقى فأحضر شقيقته وأتممنا الزواج، شعرت أن الجميع استقبل الصفعة بكظم غيظ، كنت متعاطفًا مع ابنة خالى أكثر من أمى، أما خالى فقد خرج عن حياده قائلا: لقد أخطأت ودفعت بالعجلة لقهرها، وها هى أمك تحبس نفسها فى حجرتها بلا طعام أو شراب. شعرت بذنب قوى تجاهها، فرحت أطرق باب حجرتها كالمجنون، قلت لن أرحل حتى تفتحى، ولم تفتح إلا فى صباح اليوم التالى، فوجدتنى نائمًا أمام الباب بملابسى على الأرض، حين أيقظتنى رحت أضحك وأنا أعابثها، قلت: حتى تعرفى أننى عنيد ويمكننى أن أنفذ ما أقول. قالت: وأنا أكثر عنادًا منك وسأنفذ ما قلت. دفعنى هذا إلى الجنون، قلت: سأقضى عليه يوم أن تصبحى زوجةِ له. قالت: افعل.. فقد صرت شخصًا غير ابنى الذى ربيته. أوجعتنى جملتها، وشعرت أنها ما زلت ترانى طفلها المدلل، تركتها ورحت أجأر فى الخدم الذين ارتعدوا كقطط أمام وحش لا يعرفونه، قلت: لن يخرج أحد من المنزل أو يدخل دون إذن. كان الجميع يعرف أن الحديث موجه إليها فأحنوا رءوسهم فى صمت، تركتهم ورحت أخوض الصحراء بعربة مكشوفة لا أدرى إلى أين، حين تعبت من السعى وراء

الرمال وسرابها اتصلت ببهاء الدين ليقابلنى فى مطعم بجدة. قرأت من ملامحه أنه علم بما حدث، قلت: تريدنى أن أطلقها! قال: عنيدة. قلت: ما زالت ترانى طفلا فى حجرها! قال: هكذا كل الأمهات. قلت: ما العمل؟ قال: تسافر. قلت: بيشاور؟ قال: أى مكان يمكنك أن تفكر فيه بهدوء.

شعور غريب كان يجتاحنى والعربة تخب بنا بين الجبال، شعرت أننى أريد أن أنسى كلماتها التى ترن فى أذنى، فبداخلى رغبة جنونية لأثبت لها أننى لم أعد طفلا تملى عليه الأوامر، لكننى كنت أحلم أن يكون هذا عن قناعة منها، قلت لنفسي: ستقتنع أننى على حق، ولا أظنها ستنفذ تهديدها لتهزأ بى أمام الجميع. واجتاحنى يقين أننى سأخرج من كل هذه الحرب سالما، حين وصلت إلى هذا اليقين بدأت أصفو من جديد. أستطيع القول إننى نسيت كل شيء، ورحت أتجول بين الرجال كشاعر هائم بالمكان، كان الجميع يعاملنى بدماثة شديدة، أصروا أن ألقى خطبة الجمعة فى مسجد "بيت الأنصار"، وجدتها فرصة لدخول المكتبة التى لم أرها من قبل، كانت حالتها فقيرة رغم ما بها من أمهات الكتب التى أحضرها المجاهدون معهم، بعضها يحمل على صفحاته أسماء وتوقيعات وأرقامًا ورموزًا، وبعضها يحمل خطوطًا أسفل السطور وتعليقات على الهوامش، أغلبها لابن تيمية والغزالى وابن كثير ومحمد بن عبد الوهاب وابن حزم والبنا وقطب وأبى الأعلى وأبى سعيد والشوكانى والسيوطى وابن

الجوزى والخطابى وابن حنبل والأفغانى والتلمسانى والهضيبى والصابونى والقرطبى، مددت يدى وقبضت على كتاب "الدرر البهية فى المسائل الفقهية" للقاضى اليمانى محمد بن على الشوكانى، راحت عينى تجرى على فصوله حتى وقفت أمام "كتاب الجهاد والسير" فوجدتنى أقرأ: "الجهاد فرض كفاية على كل بار وفاجر إذا أذن الأبوان، وهو مع إخلاص النية يكفر الخطايا إلا الديْن ويلحق به حقوق الآدميين، ولا يستعان فيه بالمشركين إلا لضرورة، وتجب على الجيش طاعة أميرهم إلا فى معصية الله، وعليه مشاورتهم والرفق بهم وكفهم عن الحرام، ويشرع للإمام إذا أراد غزواً أن يوارى بغير ما يريده، وأن يذكى العيون ويستطلع الأخبار ويرتب الجيوش ويتخذ الرايات والألوية، وتجب الدعوة قبل القتال إلى إحدى ثلاث خصال إما الإسلام أو الجزية أو السيف، ويحرم قتل النساء والأطفال والشيوخ إلا لضرورة، والمثلة والإحراق بالنار والفرار من الزحف إلا إلى فئة".

أعجبتنى كلمات الرجل فعدت أقرأ من جديد لكننى توقفت أمام "إذا أذن الأبوان"، فتذكرت أننى لم أحدث أمى فى أمر الجهاد مطلقًا، وكل ما دار بيننا كان عن توسيع الأنشطة إلى أرض المجاهدين، أما أن أكون مجاهدًا وأحمل السلاح فهذا ما لم تعرفه وربما لا يعرفه أحد سوى بهاء الدين، قلت لن أفعل شيئًا حتى أستشيرها. لكن ذلك يتطلب

العودة ومصالحتها، قلت سأفعل، ولو طلبت طلاق اليمنية لطلقتها.

خرجت من مكتبة المسجد فوجدت أبا العباس، وهو جزائرى جاء منذ عام، يقيم حلقة الدرس فى حديقة البيت، كان الرجال ملتفين حوله وهو يذكر لهم فضل الجهاد وضروراته، حين رآنى انتصب واقفًا لاستقبالى، أقسم ألا يتم حديثه حتى ألقى كلمة أحفز فيها الرجال على الجهاد، وقفت مكانه وأنا لا أدرى بم أتحدث، فهذه المرة الأولى التى يطلب فيها منى الحديث جهرة أمام جمع من الناس، تذكرت أننى وافقت من قبل على أداء خطبة الجمعة بدلا من مجد وأبى سعيد المشغولين على الجبهة، فكرت فى كلمات الشوكانى التى قرأتها فرحت أقول: إن الله فرض الجهاد أنواعًا، وأن إعلاها هو الجهاد بالنفس والمال، وقد يسَّرنى الله لأبدأ بالثانية، لكننى لست على فضل كفضلكم، وليس أمامى سوى أن أنزل الخنادق مثلكم، وأحمل السلاح كما تحملون، حتى إذا فاضت روحى إلى بارئها أكون قد وفيت ما علىَّ، ولا أقف أمام الملكين عاجزًا حين يقولان لى ماذا فعلت وأنت ترى أرض الإسلام تنقص من أطرافها؟ ماذا صنعت لإعلاء كلمة الله فى الأرض؟ سأقول إننى لم أدخر وسعًا، فلم أجلس فى بيتى وأستأجر من يجاهد بنفسه وروحه فى سبيل الله بدلاً مني. أيها الإخوة فى الله وسبيله الأعظم لإعلاء كلمته وضاحة تعلو كلمات المشركين والمنافقين، من كان منكم ذا

فضل فليجاهد بفضل الله عليه، ومن لم يكن فليذكر سعة الله فى صحته وولده وآهله وصحبته، ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون، وليس من هاجر كمن تقاعد، ولا من شهد بدرًا كمن لم يشهدها، وها هى دار هجرتكم، وها هى بدركم، وزمانكم، فهاتوا برهانكم إن كنتم مؤمنين.

حين انتهيت هتف الجميع لا إله إلا الله والله أكبر، وراح العباس يقبل منكبى ورأسى قائلا: كلنا فداء لا إله إلا الله. أمنت على كلامه وقلت له أن يسأل الناس بعد مجلسهم عمن له حاجة فنقضيها له، حين فعل جاءتنى العديد من طلبات النفقة على الأهل والأبناء فى ديارهم التى هاجروا منها، فقلت للعباس أن يأخذ أسماءهم وعناوينهم كى نفعل ما يعيننا الله عليه.

مرت خطبة الجمعة أيضًا بسلام، تحدثت فيها عن صحابى جليل وهب حياته للجهاد فى سبيل الله حتى أنه حين عزله عمر ابن الخطاب لخلاف بينهما جلس فى بيته وهو حزين رغم أنه ما من جزء فى جسده سلم من ضربة سيف أو طعنة رمح أو رمية سهم، وحين حضرته الوفاة كان يبكى قائلا: أيموت خالد على فراشه كما يموت البعير؟! فلا نامت أعين الجبناء.

فى اليوم التالى جاءنى مجد وقال: ألن تبدأ التدريب مع الرجال؟ قلت: لا مانع. ذهبنا إلى معسكر على مبعدة بضع

كيلو مترات من بيشاور، ولأول مرة أمسكت بالسلاح، كان المسئول عن تدريبى رجل يدعى مهيار، كانت فى عينه نظرة لا أعرف معنًى لتفسيرها سوى أنه كان يرغب فى أن يثبت لى أننى سليل القصور والمخادع الحريرية ولن أصمد، وضع أمامه خرقة وبضربة واحدة رأيت الرشاش قد أصبح قطعًا، وفى غمضة عين تحول إلى رشاش من جديد، شعرت رغم انطباعى السيئ عنه أنه ساحر، حاولت أن أعيد ما فعله لكننى فشلت، رأيت فى نظره ابتسامة فرح بفشلى. قلت: تمهل علىَّ فهذه أول مرة أقبض فيها على سلاح. قال: لتعلم أن كل شيء هنا درس فى ذاته، فالسرعة والدقة والمهارة والتعلم من الخطأ أساسيات الحرب، لو فشلت ستموت، فاللعب مرة واحدة ويجب أن تكون الفائز دائمًا. وضعنى الرجل فجأة فى مواجهة الحياة والموت، وكأنه أخذ تعليمات بكشف ضعفى وتعريتى، صاح فىَّ أن أنتصب وأمرنى بالجرى أمامه، مع برودة الهواء شعرت أننى بالكاد ألتقط أنفاسى، كدت أصيح فيه: أنت لا شيء ولا أرضى بك ماسحًا لحذائي. لكن أى حذاء وأنا فى هذا الجلباب والسروال القصيرين! حين انتهيت من اللفات التى أمرنى بها لم أجده، فقد أوكل رجلاً آخر بإحضار عصير لى، بعد أن ارتشفت رشفات سريعة شعرت أن الآخرين لا ينالون مثل هذه المنحة، أمرت الرجل بإكماله وطلبت منه أن يعلمنى فك السلاح وإعادة تركيبه، قال الرجل إن الأمر هين، وأخذ فى فك الأجزاء

قطعة قطعة، حين وصل إلى النقطة التى ضرب فيها مهيار السلاح بيده قال لى اضرب فإذا بالرشاش يستحيل أجزاءً فى يدى، قال ليست المشكلة فى تفكيكه لكن كيف تعيد تركيبه. أخذ فى وضع القطع من جديد منبهًا إياى على أيها فى البدء وأيها يليه، كانت عيناى تحدقان كأنهما ستبتلعان الأرض والقطع وأيدى الرجل، كنت أخشى أن يغيب عنى شيء فيبطل السحر فى يدى، بدأت فى تركيبها على مهل حتى لم يبق سوى الخزينة التى فشلت فى وضعها مكانها. قال: هذه لم أقل لك عنها، أمسك بها وبيدى وهو يقول: لا بد أن تضعها مائلة لأعلى كزاوية حادة، ثم تضغط لتتفرج الزاوية هكذا.. فستسقط فى مخدعها. سألته: لماذا نقوم بهذا الفك والتركيب؟ قال: لتنظف السلاح وإلا صدأ وتعطلت القذيفة فانفجر فى يدك. ورأيت فى عينيه أنهم لا يرغبون فى تعذيبى أو النيل منى، لكنها الصحراء التى جعلتهم أكثر جدية مما يطيق رجل مثلى، حين ظهر مهيار على البعد صحت فيه أن يأتى، فجاء يتمشى على مهل. قال: قف. وكلفنى بدورات جديدة، صرخت: لم تعاملنى هكذا؟ قال: لأنك الآن جندى، وعليك أن تعلم أن مهيارًا هذا لا يعمل فى حديقة بيتكم، مهيار قائدك وعليك أن تخاطبه بالسيد مهيار، وعليك أن تنصاع لأوامره بالحرف الواحد. درت الدورات كعبد ذليل لا يعرف لمَ يتعمد سيده تعذيبه. قال: قف. فك السلاح، أعد

تركيبه، قف، أحسنت، انضم إلى الرجال، فوجدتنى أركض نحو مجموعة ممن سبقونى إلى التدريب منذ أيام.

فى المساء طلبنى مجد الدين فى غرفة مدير المعسكر، حين ذهبت وجدته لا يتمالك نفسه من الضحك، قلت: أنتم تهينون الناس هنا. قال: هذه حياة العسكرية، لكنك وأنت جندى مدهش. نظرت إلى هيئتى التى ما عدت أعرفنى فيها ورحت أضحك، صرت أحكى له ما فعله مهيار وهو يضحك، فى النهاية دخل مهيار وهو يتعثر فى خطواته، قال: معذرة يا أبا عبد الرحمن. شعرت أننى الآن القائد، فقلت: لا عليك أنا الذى أخطأت. قال بلهجة الحكماء: ليس هناك خطأ، لكنها الأيام الأولى، كل الرجال يكرهون التحكم فيهم، وعلينا أن نحيلهم إلى جنود ينصاعون للأمر لا مدنيين يتصرفون حسب أهوائهم. علمت منه أنه كان جنديًا بدرجة رقيب فى بلاده، وأنه فصل من الخدمة بسبب ميله الإسلامى، ولما ضاقت به الأحوال تقدم إلى جمعية الجهاد الإسلامى، وهناك دبروا أمر مجيئه، فأوكل له أبو سعيد مهمة تدريب الرجال وإدخالهم حياة الجندية.

كانت الحياة فى المعسكر تتمثل فى الاستيقاظ المبكر لصلاة الفجر ثم التدريبات الرياضية ثم الإفطار فالتدريب على استخدام السلاح الخفيف، ثم صلاة الظهر والغداء ودرس دينى يمتد حتى صلاة العصر، ثم التدريب على إطلاق

النار تليه تدريبات رياضية ثم صلاة المغرب فالعَشاء فصلاة العشاء، وعلى الجميع أن يكون نائمًا فى فراشه بعد ذلك بساعتين لا أكثر. فى البدء شعرت بمعانة كبيرة، لكننى كلما رأيت فى عين الجميع أننى لن أفلح فى مهمتى كنت أعاند نفسى وأنتصب كرجل لا يهزم، تجالدت حتى انتهت دورة التدريب التى استغرقت أسبوعين، كان علينا بعدها الانتقال لمرحلة جديدة: لكننى طلبت إيقاف تدريبى حتى أنهى بعض المهام فى بلادى، خمن الجميع أننى لن أعود، فتركوا لى فرصة الهروب بشكل يحفظ لى رجولتى، حين عدت وجدت خالى فى انتظارى بالمطار على غير عادته، أخذنى إلى البيت وأخبرنى بأسوأ ما كنت أتوقع، فقد نفذت أمى تهديدها وتزوجت.

* * *

(٢٩)

قلت: مبارك زواجك. بدت دمعة فى عينها فوارتها عنى قائلة: أشكر لك مجيئك. كنا كقائدين خرجا من المعركة مهزومين، لكن أيًّا منا لا يريد الاعتراف بذلك. قلت: أنا راحل إلى أفغانستان. قالت: عمل جديد؟ قلت: جهاد. صكت وجهها بفزع ورددت الكلمة كأنها صدى الموت، قلت: لا تفزعى؛ هناك الكثير من الإخوة، وأنا رجل قادر على حمل السلاح فى سبيل الله. باحت عينها بالبكاء فتحضرت عينى بالدمع، قالت: ما كل هذا العناد؟ كان بإمكانى الزواج وأنت صبى وما كنت ستمنعنى، وقد تزوجت من قبلى عابدات زاهدات. قلت: الأمر لا علاقة له بزواجك. قالت: بل لأنك عنيد. قلت: لى رجاء واحد، لا تجعلى زوجك واحداً من العائلة مهما حدث.

تركتها لأجد خالى منتظرًا فى العربة، قال إن هناك شخصًا يود أن ألقاه. لم تكن لدى رغبة فى ملاقاة أحد، لكن بهاء الدين أصر، قلت: افعل ما تشاء. طلب الرجل وحدد له ميعادًا بعد ساعة فى المكتب. كان شخصًا هادئًا يكبرنى بأعوام قليلة، أقرب للقصر منه للطول، عيناه تلمعان بهدوء وسكينة شديدة، شعرت نحوه بطمأنينة كبيرة على نقيض ما حدث مع الشيخ الضرير المتجهم، فقد امتعضت حين رأيته، فأنهيت لقاءه بسرعة مؤكدًا أنه سيلقى منا كل مساعدة يحتاجها. أما هذا فرغم أننى لم أكن فى حال تسمح بالجلوس مع غيرى إلا أننى شعرت بارتياح له، أستطيع القول إننى نسيت أمامه ما لدىَّ من هموم، فهو قائد تنظيم يتبع تنظيم الجهاد المسئول عن قتل السادات، لم تكتشف السلطات نشاطه الذى دام أكثر من خمسة عشر عامًا إلا حين ألقت القبض على صبى كان يحمل بعض أغراضه. رغم هدوئه البادى للعيان غير أن كلماته تحمل حسمًا وعزمًا لا يخرجان إلا عن رجل عنيف، رجل يحمل مبضعًا ليس لعمله ولكن لتفكيره، فالثورة لديه لن تأتى من الشارع ولكن من التدبير والتخطيط والاغتيال. ذكرنى حديثه بحسن الصباح صاحب "ألموت"، فهو أيضًا كان صاحب هدوء وتدبير وحسم ويعشق السرية والقوة والاغتيال، لم يعرف نظام الملك أنه على مذهب الشيعة إلا بعد خروجه من سمرقند، بعدها اتجه للرى ثم القاهرة ليعطى عهده للمستنصر بالله، لم يتوقع أحد

أنه الرجل الأكثر دهاء حتى فوجئوا به ينقل عهد الإمامة من المستعلى لأخيه نزار، ورغم أن الجمالى قبض عليه وسجنه فى سرداب مظلم يحيطه الحرس من كل جانب فقد استطاع الهرب إلى الإسكندرية، ومنها اتخذ طريقه على ظهر سفينة إلى عكا، ورغم أن السفينة غرقت بمن فيها فإن أحدًا لا يعرف كيف نجا ليتخذ طريقه من جديد إلى إيران ثم طالقان، ليستولى على قلعة ألموت غير البعيدة عن السلاجقة وغريمه نظام الملك.

تفرست فى وجه الرجل ولحيته الصغيرة ثم قلت: كيف خرجت؟ قال: قدمت طلبًا للسلطات بأننى مسافر إلى جدة للعمل فى إحدى المستشفيات فوافقوا. قلت: كيف؟ قال: رفعت قضية على وزير الداخلية لرفع قراره بمنعى من السفر. أعجبتنى ثقته وحرصه على أن تبدو الأشياء طبيعية، لكن صورة الصباح ومطابقتها عليه لم تفارق عينى فسألته عنه، قال: كان ذكيًا يعرف طبيعة المكان وأهله وكيف يكتسب ثقة من يلقاه، فعل ما أراده سامحه الله. أعجبتنى جملته الأخيرة فتذكرت الضرير حين سألته عن الشيعة فامتعض كمن لدغه عقرب وكفر الجميع، قلت: بلغنى أنك رفضت إمامة الشيخ الضرير؟ قال: الإمامة للعالم السليم وهو لم يكن سليمًا، قلت: لكنه كان الأمير. قال: الإمارة كانت لعبد السلام ولا يجب أن يخلفه رجل جبن أمام السلطات ونفاها عن نفسه، وعلى كل هو من الجماعة الإسلامية وليس الجهاد.

حين خرج وجدت خالى بهاء الدين مبتسمًا، قلت: علام كل هذا؟ قال: صاحبك يتصرف كأنه صاحب سر، ولولا مهاتفة بعض الأصدقاء فى شأنه ما التفتُّ إليه. قلت: لا ضير منه، ولو أصبح فى كفتنا فلن يعدله سوى الصباح. قال: ومن الصباح؟ قلت مهربًا نفسى من الحزن الذى طفا عليها: كان فى سالف العصر والأوان رجل خدع نظام الملك وبدر الجمالى واستولى على قلاع الهند، وبنى جنة الله على الأرض، فكانت له اليد الطولى فى الحرب. قال: ما زلت تعبث بتاريخي. قلت: لم يعد تاريخك وحدك، فها نحن نصنع ما صنعوا، وكلٌّ ميسر لما أتى له. قال أترى أنك نزار وهذا الحسن؟ أشرت بيدى وأنا على وشك البكاء نافيًا: بل أنا المستنصر صاحب الشدة يا بدرًا الجمالى.



(٣٠)

خريف ١٩٨٥

لأول مرة منذ زمن أجد أبا سعيد فى انتظارى على أرض المطار، ألقيت بنفسى على كتفه ورحت أنشج بالبكاء، ربّت على كتفى قائلا: تشجع يا رجل، فوراءنا مهام كثيرة. بدا لى أنه على علم بما حدث لكنه لم يشأ مخاطبتى فى شأن يخصنى، دار بى جولة بين الصخور المؤدية إلى بيت الأنصار. قال: سمعت أنك قطعت شوطًا طيبًا فى التدريب. ندت عنى ابتسامة ساخرة. قال: لقد فعلت ما لم نكن نتوقعه، هل تريد استكمال التدريب أم الصعود إلى الجبهة؟ قلت: الجبهة. ندت عن الرجل ابتسامة ساخرة، حين رأى أننى لمحتها من جانب فمه أردف قائلا: تدريبك لم يكتمل. قلت: حدثنى عن أوضاع الجبهة. انصاع للجدية التى أتحدث بها وقال: الجبهة ليست واحدة لكنها جبهات، نحن لا نتولى مسئولية القتال فيها لكننا

نمد ونعاون كل من يريد المعاونة، مجد ورجاله كما تعلم حديثو عهد بالقتال، وأنا لم أرد أن أكون ضيفًا يجلب المصائب، فاكتفيت بأن أكون فى معية من يحتاج للمعاونة. قلت: يعنى دورنا يتوقف على الإمداد. قال: مجد حاول أن يكون جبهة منفردة لكن هزائمه المتتالية أقنعته بأن يلعب أدوارًا صغيرة، أغلبها الإمداد والاتصال، أما المواجهة فقد تركها للآخرين. صمت قليلا قبل أن يأخذ نفسًا سرعان ما أخرجه من أعماقه قائلا: إننا ضيوف. قلت: نقدم لهم المال والرجال ويعتبروننا ضيوفًا؟! قال: إنهم يعتبرون مجدًا ورجاله دخلاء على الحرب. قلت: تلك قسمة ظالمة، إننا شركاؤهم وإن لم يعترفوا بذلك انفردنا بمقاتلينا وننظر أى الفريقين أعلى. قال: لا أنصح بذلك. قلت: لكننى جئت من أجل ذلك.

بدا لى أننى وأبو سعيد لأول مرة على خلاف، وكان علىَّ أن أعود للتدريب من جديد، طلبت من الرجال أن يتعاملوا معى كأدنى رجل معهم، وأن يكلفونى بأصعب المهام فى العمل، أُخذ الجميع بما أقول لكنهم انصاعوا فى نهاية الأمر، كنت أركز فى البداية على التدريبات الرياضية بشكل واضح، حتى إننى بحثت عن رجل طلبت منه تعليمى فنون القتال باليد، أستطيع القول إنه كان ساحرًا من نوع جديد، أنهكنى ضربًا وطعنًا ورميًا على الأرض، لم يكن أحد يصدق أننى هذا الرجل الذى يُسحل على الرمال ويقف على حجر بالساعات، لكننى كنت كلما تلقيت ضربة أو صفعة أصبحت أكثر صلابة.

كان يومى مقسمًا إلى استيقاظ مبكر لصلاة الفجر، يعقبها تمرينات رياضية، ثم هدنة الإفطار والتدرب على رمى المفرقعات وتفجيرها، وهذه كانت أنواعًا غريبة وكثيرة، منها ما يشتعل بالكبريت ومنها ما ينسف بالبطاريات الجافة، كنا نعجنها بأيدينا من مواد الـ تى إن تى، آر دى إكس، سى فور، سى ثرى، والبيتان، على هيئة أحبال صاعقة تسمى كروتكس، وأحيانًا على هيئة أصابع ديناميت يوضع فيها فتيل يشتعل السنتيمتر منه فى ثانية واحدة، وكنا نقدر زمن التفجير بطول الفتيل، وأحيانًا نضع فيها طرفى سلك متلامسين ونمد السلك حتى المكان الذى نكمن فيه، وهذه تنفجر بمجرد توصيل الطرفين الآخرين ببطارية ٩ فولت، كنا نشكل المواد حسب المكان أو الثقب الذى نود التفجير من خلاله، وكان هذا التدريب النظرى والعملى يستمر حتى الظهيرة، بعدها صلاة الظهر والغداء ثم القيلولة بالنسبة لى، وكانت لا تزيد عن ساعة، بعدها تبدأ تمرينات اليوجا التى تتطلب تحمل الشمس ووهج الظهيرة حتى صلاة العصر، ثم التدريب على فك وتركيب واستخدام أنواع من الأسلحة مثل الكلاشنكوف والآر بى جى والهاون، بعد زوال الشمس كنا نصلى المغرب ونتسامر على العشاء حول أخبار القتال على الجبهات، وكنت الوحيد المسموح له بالخروج من المكان بعد الصلاة، عادة ما كنت أذهب مع أدلة إلى قادة الحرب، كنت أحاول أن أقنع الجميع بأن يكون للمجاهدين القادمين من البلدان العربية

دور واضح غير التموين والاتصال، أستطيع القول إن الجميع سخر من العرب الذين لا يحسنون سوى الطعام ومغازلة النساء، ولا أعلم هل كان شاه مسعود ألطفهم أم أقساهم، فقد رحب أمامى بالفكرة دون أن يمدنى بأية معلومات واضحة عما يحدث، علمت فيما بعد أنه قال لرجاله "دعوه ينتحر وننتهى منه مبكرًا". فى ذلك الليل البارد الساكن إلا من طلقات الرصاص وزعاق النسور والغربان وأصوات التفجيرات كنت أعبر الممرات من هنا إلى هناك، وحين لا يكون العبور آمنًا كان القتال باليد يقضى على ما بقى منى، لكننى للحقيقة أقول إنه أفادنى كثيرًا، هذا ما أدركته حين أدخلنى الرجال فى دورة جديدة تسمى إعداد الكمائن والتخلص منها، وهذه كانت تتطلب سرعة وقوة ومهارة وعدم انخداع بهدوء الطبيعة، وكان الأمر يقوم على أن يكمن واحد لعدد من الرجال بآلياتهم، بالطبع كانت الطلقات نوعًا من اللعب، وكانت المعارك تدار فى أى وقت. مرة كان علىَّ أن أكمن لرجلين وفوجئت أن الكمين انقلب علىَّ وصرت أنا المحاصر، تذكرت مغاوية وفنونه فى الهروب، وجلست أقول: "رب إنى لما أنزلت إلىَّ من خير فقير"، وفجأة بزغت الفكرة فى رأسى، كان المكان أقرب إلى تجويف تحت تبة كمنت فيه لتثبيت الرجلين عند مرورهما، لكننى فوجئت بأن الرصاص يئز على عمامتى، ولو أننى تحركت من مكانى لقضى علىَّ، كمنت كفأر فى جحر لأكثر من ساعتين، وأولت الأمر لنفسى

على أنه نوع من تدريبات اليوجا، كنت آمل إما أن يتقدم الرجال وإما أن ينهى الضابط المسئول التدريب، وبدا لى أننى خسرت الجولة وسيصبح أمرى فى المعسكر نكتة عن الهواة أمثالى، حين طال الأمر ولم يصدر الضابط أى تعليمات قلت أسلم نفسى، فوضعت عمامتى على عصا طويلة ورفعتها، أستطيع القول إن كبريائى منعتنى من رفع صوتى بالتسليم، فثبتٌ العصا والتففت كجرذ حول الصخرة التى أكمن خلفها، حين حصنت نفسى بشكل كاف، قلت لم لا أكمل خطتى وليحدث ما يحدث، سحبت قنبلة رمل من حزام المتفجرات وألقيت بها عبر عمامتى أسفل الصخرة، فأحدثت صوتًا كان الرد عليه أعنف مما توقعت بكثير، فقد انهالت القنابل على عمامتى حتى لم يعد لها أثر، واشتعل المكان بنار ودخان جعلانى أموت رعبًا، كانت متفجرات حقيقية، ولولا ستر الله والصخرة التى التصقت بضلعها للحقت بالعمامة. لم تهدأ تلك الغارة حتى راح الرصاص يمشط المكان من كل جانب، أدركت أن هذا مقدمة لتمشيط بشرى قادم، نفضت أذنى من أزيز الرصاص فى الصخر وانتظرت أول من يأتى نحوى، كان جنديًا أفغانيًا يتمتع بالهزال وقصر القامة ويجس الأرض بخنجر رشاشه، كان الخوف والشعور بالموت يملأنى، فلم أشعر بيدى وهى تلتف على عنقه وترفعه عن الأرض حتى تراخت أعضاؤه فى صمت، سحبته خلف الصخرة وأخذت سلاحه وحزام متفجراته، سمعت صوت انزلاق قدم على فتات الصخر فأدركت أن ثمة آخرين يتسحبون من التبة إلى

أسفلها، كمنت من جديد وأنا أضع محتويات الحزام فى يدى، وبينما هم ينزلون من المنحدر كنت أصعد من الجانب الأكثر صعوبة، كانت أنفاسهم قد بدأت تهمهم بشيء ما، أدركت أنهم لم يجدوا سوى جثة صاحبهم وأنهم سيمشطون المكان الآن بكل ما معهم، لم أكن أعرف ما الذى يفعله رجل فى وضعى، فرحت أمطر المكان بكل ما معى كغريق يصارع الموت، حين فرغت الذخيرة شعرت أن الأرض تدور من حولى وأننى أسقط.

كان مدهشًا للجميع - ولى أنا نفسى - أن هذه كانت محاولة لاغتيالى، فقد صحوت على أصوات عدد من رجالنا وهم يحملوننى، قمت كالمجنون أضرب الهواء وأبحث عن سلاحى متصورًا أنهم الأعداء، بدا الجميع واجمًا وهم يقولون إنها كانت محاولة اغتيال. سألت عن الضابط والتدريب والرجال الذين كنت معهم، فأخبرونى أنهم وجدوا جثثهم مذبوحة على مقربة من الهضبة، حمدت الله على السلامة وهنأنى الجميع بها ثم جلسنا نبكى على من فقدنا. قلت: لا غُسلَ لشهيد لكن لا بد من معرفة الخائن ولصالح من يعمل. شعرت أن الكلمة كانت صادمة للجميع وأن الكل سوف يتعرض لمهانة وشك لا يرغب فيهما، تراجعت عن الأمر وأنا أدرك أن ما قلته لن يتم ونحن مخترقون من شتى الجهات. قلت: لله الأمر من قبل ومن بعد. أقيموا الصلاة على رفاق هاجروا إلى الله وقتلوا فى سبيل الله وهم بين يديه الآن أحياءً يُرزقون.

* * *

(٣١)

قلت لأبى سعيد إننا سندخل الحرب، بدا على الرجل أنه غير مصدق، شحب وجهه قليلا وقال مهدئًا من لهجته: لكن هذا سيخلق شقاقًا عظيمًا بيننا وبينهم. كاد الرجل يقول لا تجعل جنونك يدفع بك لذبح مئات الرجال فى أرض غريبة لا يعرفون طبيعتها. ندت عنى ابتسامة ساخرة: هم الذين دفعونا لذلك. وجم الرجل قليلا ثم انتصب واقفًا: أرى أن تتروى. كنت أعلم أن هذا خروج عليه كما هو خروج على الآخرين، قرأت فى عينيه أن هذه نزوة ستزول بمجرد أن يهدأ غضبى، فالذين حاولوا اغتيالى أفغان لكننى لم أعرف فى معية من، لم أفرق على أية حال بين هذا وذاك، وشعرت أننا لن تقوم لن قائمة ونحن سهلٌ مفتوحٌ تضربه الريح من كل اتجاه، أمرت ببناء بيت جديد يسكن فيه من يتم انتخابهم للانضمام لمعسكرنا، وحتى نرفع من روح الرجال قلنا لن

يدخله إلا الأسود الذين سنختارهم من بيت الأنصار، وحتى يتسع لنا الاختيار اتصلت بخالى كى يكثف جهوده لتمويلنا بالمجاهدين من كل مكان، ولو وصل الأمر إلى عمل إعلان مدفوع الأجر. من جانب آخر طلبت من المهندسين أن يجهزوا لنا معسكرًا جديدًا، قال صهيب نسميه بدرًا تيمنًا بأول معركة فى الإسلام، وافقته وأنا أتذكر قول الفارسى لرسول الله أهذا مكان أنزلكه الله أم أنها الحرب والمشورة؟ قلت: لا بد من اختيار مجلس للحرب يضم النابهين والعالمين بفنونه، جاءنى الرجال بمكانين، فقلت: نجعلهما بدرين تيمنًا بالاسم.

حين زال غضبى وخفت حدتى أرسلت فى مراضاة أبى سعيد، جلسنا معًا كصديقين وليس معلم وتلميذ، تسامرنا طيلة اليوم فى كل شيء، وحين اختلفنا فى مسألة انفرادنا كجبهة فى الحرب، قلت: لو أنك كنت شابًا فى سنى ما رضيت إلا بفعلي. شرد بذهنه عدة عقود إلى الوراء، فتذكر كيف كون شبكة دولية من الإخوان، حين عاد من شروده هش ذبابة كانت تحوم على وجهه قائلا: الناس ينظرون إليك نظرة مختلفة. قلت: يروننى ثريًا لا يزيد عن كونه واجهة تجيئهم من خلالها الأموال والسلاح والرجال. أعيانا النقاش فقمت وقبلت رأسه: لى طلب واحد، لا تعتبر هذا قطيعة بينى وبينك، فأنت شيخى ومعلمى وصاحب الفضل فى كل شيء. شعرت أن نفسه سرت بذلك وودعته وأنا سعيد. فى الصباح وجدتها فرصة طيبة أن نتحلى بسياسة من لا يمانع فى

معاملة كل الجبهات على وجه حسن حتى ولو تبين غدرهم، فأخذت فى إرسال الرجال الذين لا يقع عليهم اختيارنا إلى معسكراتهم مزودين بالسلاح، من جانبهم رأوا ذلك عوداً حسنًا لعلاقات طيبة، كان من بين الرجال عيون يبلغوننا بكل شيء، هذه العيون رأينا التوسع فيها ليس على الجبهات الأفغانية ولكن فى الشيشان وألبانيا وباكستان، تلك التى تعد ظهيرنا الذى لا نعرف ماذا نصنع لو تغير علينا فجأة، فرحنا ننفق بسخاء على هذا الأمر.

التقيت عدداً من الأمريكان الذين جاءوا ليعرضوا علينا خرائط أفضل مما فى أيدينا، طلبت أنواعًا من الأسلحة متطورة الصنع فى بلادهم لكنهم رفضوا، ولم يكن أمامنا سوى البحث معهم عن سلاح سوفيتى بديل، قالوا إن بعض الدول العربية تقوم بتغيير تسليحها الروسى بسلاح غربى ويمكننا شراؤه منهم، اتفقنا أن ندفع ربع الثمن دفعة واحدة والباقى على دفعات نصف سنوية، على أن يصلنا السلاح فى غضون شهرين، كان ذلك فى فندق شبرد بمدينة لشبونة الإسبانية، وكانت هذه الجولة الطويلة قد كلفنى بها أبو سعيد منذ عام لكننى لم أجد لها ضرورة وبهاء الدين يوفر كل شيء، زرت عدداً من المسئولين فى بريطانيا والهند وإيران والبرتغال وتركيا، كان البعض مشفقًا علينا من الدخول فى غمار هذه الحرب والآخر حذراً، وظل السؤال الأكثر طرحًا على موائد النقاش عن مصير الأسلحة والرجال بعد الحرب:

أى مصيرنا نحن. أكدت للجميع أننا فى كل الأحوال نحارب عدوًا طغى وتجبر وأفسد فى الأرض، لم يكن هذا الحديث مقنعًا لأى منهم لكنه ظل الغلالة التى اتفق الجميع على عدم نزعها، حين رأيت ذلك قلت لنفسي: فلنستفد من أى ريح لأجل ما نحن فيه.

أخيرًا عدت للرجال الذين كانوا يتدربون على عمل معارك واقعية بالرصاص، جمع صهيب وأبو عبيدة أكبر قدر من الذين سرحتهم الجيوش العربية، ووضعا كلا منهم فيما يليق به من عمل جاد، حين اكتمل لدينا ما يقرب من خمسمائة مجاهد مدرب قلت لأبى سعيد: ألم تقل إنه لا ولاية لمن لم يخرج؟ قال: نعم. قلت: لذا سندخل الحرب.

كانت قرية جاجى إحدى المواقع الأمامية التى تتمركز فيها مجموعة من الجيش الروسى، قمنا بتوزيع أنفسنا إلى جماعات لا تزيد عن الخمسة عشر، لكل جماعة أمير تأتمر به، وكنت أبلغه بتعليماتى عبر اللاسلكى، وبدوره كان يبلغنى بأخبار مجموعته، كان مع كل رجل حزام متفجرات به ثلاث قنابل هجومية وقنبلتين دفاعيتين وعدة أصابع ديناميت مصنعة فى المعسكر، وضعنا خريطة المكان أمامنا وأخذنا فى دراستها. كان الموقع عبارة عن هضبة شامخة تطل على جميع النواحى المحيطة بها، قلنا إن الاستيلاء عليها سوف يجعلنا نتمركز بشكل جيد ويمنحنا موقعًا يمكننا جعله مركزًا

لانطلاق عملياتنا، أخرنا أذان العشاء ساعة عن موعده، ثم نادينا بالصلاة وأممت الناس، جلست ألقى درسًا فى الجهاد والمناورة وما هو محرم على المجاهدين، ألا يقتلوا طفلا أو شيخًا أو امرأة لا تحمل السلاح، وما غنموه فلهم منه أربعة الأخماس وللأمير الخمس كى يصلح به شأن المعسكر والذخيرة، وله كفرد سهم مثلهم، والأسهم لمن اشترك فى القتال أو لم يشترك، لأننا جميعًا على الجبهة، ومن لم يشترك اليوم فسوف يشترك غدًا. تركنا نصف الرجال لحراسة المعسكر وتأمين الظهر، وحملنا أربعة مدافع هاون على البغال، ووزعنا على كل مجموعة مدفع آر بى جى مضاد للدبابات، وخرجنا بعد انتهاء الدرس نقطع مسافة خمسة كيلو مترات عبر طرق ضيقة بين التلال والأحراش، حين اقتربنا من الموقع افترقنا على نحو أربع مجموعات، واحدة معى فى القلب وواحدة على يسار الموقع والثالثة على يمينه، وتركنا مجموعة لا تطلق الرصاص ولا الهاون ولا أى من المتفجرات إلا حين يصبح مخزن سلاح الموقع على مرمى نيرانهم، تلونا الشهادة ورحنا نتسلل عبر الأحراش فى صمت، على حدود الهضبة استللنا الخناجر ورحنا نطعن بها الظهور والرقاب، نجحنا فى الخطوط الأولى رغم الجهد الذى بذلناه، جاءتنى معلومات بأن المجموعة المتجهة إلى داخل الموقع لتفجير مخزن السلاح قد دخلت بالفعل، أعطيت أوامرى للمجموعة التى على اليسار بنصب مدافع الهاون

ودك المبانى التى فى الموقع، وتسللت المجموعة الثانية إلى الداخل للاقتراب من العدو، فجأة أطلقت صفارات إنذار عالية، لم تكن المدفعية قد ألقت بشيء بعد، أمرتهم بالإسراع كى تتوجه الأنظار نحوهم، بالفعل أطلقوا عدداً من القذائف، لكن أضواءً كاشفة قد اشتعلت لتضيء جنبات الهضبة والموقع برمته، فصرنا عراة أمام الكشافات ومدافع الكلاشينكوف، وراحت طائرة مروحية تحلق فوق المكان، أمرت الجميع بالاختباء ومحاولة إصابة الطائرة، فجأة أمطرت الطائرة مجموعة اليسار، أمرت مجموعتى أن تتقدم، زحفنا على الصخور ورشاشاتنا مرفوعة نحو الهواء، تناولت مدفع الآر بى جى وهرولت بأقصى سرعة نحو الطائرة التى حومت عن قرب، اصطدمت قدمى بصخرة فتدحرجت على الأرض عدة أمتار، حمدت الله أن الدحرجة انتهت بى إلى مكان يمكننى أن أعدل فيه من نفسى وأطلق، كان الطيار قد انتبه لى فاستدار نحوى، لكن القذيفة لحقت بذيل المروحية فتأرجحت فى الهواء قبل أن تسقط على وجهها محدثة انفجاراً زاد من ضوء المعسكر وغيظ العدو، هتفت الله أكبر والرصاص يئز على رأس الحفرة التى كمنت بها، كانت مدفعية الكلاشينكوف المثبتة فى أماكن لا أعرفها تمطر زخات هائلة، وبدا لى أن صيحتى بالتكبير كانت مسموعة للجميع، فقد تقدمت مدافع الهاون لإطلاق عدة ضربات فى اتجاهات متفرقة، أخيراً أصيب أحد الكشاف بعطل جراء زخة مقابلة

من كلاشينكوف أحد رجالنا، لكن المجموعة التى صارت على مقربة من دشم السلاح راحت تمطرها راجمات صاروخية، لم أعرف كيف أبلغهم بالتراجع، فقدمى عليها سائل لزج ولا أستطيع الوقوف، بدا لى أن الجميع شغل عنى، فرحت أزحف حتى خرجت من الحفرة، وجدت رجلين من رجالنا جاءا يحملانى إلى حيث موقعهم، تناولت اللاسلكى ورحت أجأر فى مجموعة اليسار بالتقدم، لكن اللاسلكى لم يكن يجيب، هتفت على المجموعة التى ترجمها الصواريخ بالتراجع، وأمرت مجموعتى بالتقدم، راح الرجال يطلقون زخات من مدافعهم وهم يهرولون نحو العدو ثم يلقون أنفسهم خلف أو تحت أى شيء، أخيرًا رأينا دبابة تتحرك من موقعها، طلبت التصويب عليها ففعلوا لكنها لم تصب، ناور قائدها وتراجع لكن مدرعة أخرى ألقت بقذيفة مدوية على موقع التقدم، رأيت وسط اللهب أشلاءً طائرة فاشتعل غضبى ويأسى، لم يوقظنى مما أنا فيه سوى انفجار كبير رأيت فيه براميل زيت طائرة، أيقنت أن مخزن الوقود أصيب، لكننا لم نكن قد سيطرنا على شيء، ولو استمر القتال هكذا ستفنى المجموعة كالها، أمرت بنشر أحبال الصواعق وتلغيم رؤوس المدقات ثم التراجع، هتفت فى المجموعة التى كانت بالداخل، لكن أحدًا لم يجب، هتفت بالمجموعة التى معى لتخفيف الضغط عن مجموعة الداخل، فجأة نصب أحد الرجال مدفعه وقذف برجًا اشتعلت على إثره صفارات الإنذار، ويبدو أن العدو

حدث له ارتباك ما، كانت فرصة لأن نطلق عددًا من قاذفات الآر بى جى عليهم بينما المجموعة التى بالداخل تتراجع، أمسكت بالرشاش الذى معى ورحت أطلق زخات نبهت الجميع لوجود رجال فى هذا المكان، هجم علىَّ أصحابى وحملونى إلى الوراء، وبينما نحن نتدحرج من على الهضبة هتفت فيهم الصواعق والألغام، تركنى أحدهم وعاد يهتف فى اللاسلكى بالتفجير، كانت العربات العسكرية قد بدأت تنطلق نحو المنحدر، بينما مدرعتان تحركتا فى اتجاهنا، أخيرًا اشتعلت أحبال الكروتكس فأصابت عربة، لكن المدرعة مرت كما لو أن شيئًا لم يحدث رغم كل هذا الضوء الباهر، أدركت أننا منتهون، لا أعلم من أين جاءت هذه الضربة فتعطلت المدرعة، وضعنى الرجال على ظهر بغل مصاب وراحوا يلكزونه بما فى أيدهم ليسرع، على مبعدة كيلو متر أو أكثر وقفنا ننتظر عودة الرجال، كانوا جميعًا جرحى، وكثير منهم فُقد، لكن أحدًا لم نسمع بأسره، نزلت من على البغل وقلت: نعود جميعًا متكئين على بعضنا بعضًا. كان خوفنا أن تلاحقنا الدبابات، لكن أيًا منها لم يظهر، فقط لاحت مروحية اختبأنا قبل مرورها على المكان، وظللنا مختبئين فى انتظار من قلنا أنها سترسلهم، لكن شيئًا لم يحدث، فخرجنا نجر أنفسنا حتى اقتربنا من موقعنا، قلت: لن نخبر الناس بأننا هزمنا، سنقول أننا كبدنا العدو خسائر فادحة. قالوا: وهذا ما حدث بالفعل. قلت: لا نريد إحباطًا للآخرين، عسى أن يمن الله

علينا بالنصر فى المرة القادمة. كان الرجال يؤمنون على الحديث وهم ينظرون إلى أعضائهم المصابة وصور أصدقائهم التى تطايرت فى الهواء.

* * *

(٣٢)

لا شيء يمكن إخفاؤه فى هذه الصحراء. هكذا قال أبو سعيد وهو يشد من أزرى، غالبت البكاء وأنا أقول: لقد هزمنا. قال: وهل كنت تعتقد أنك ستفوز من الجولة الأولى؟! الحرب ليست نزهة، أذكر أن شاعرًا قال عنها: "إنها الحرب، قد تثقل القلب، لكن خلفك عار العرب، لا تصالح، ولا تتوخ الهرب". كاد الرجل يضرب لى مثلا بمجد الدين وتلامذته لكن "لا تصالح" أمسكت لسانه فقال: مجد.. يبلغك سلامه ويشد من عزمك. قلت: مجد يريد أن يقول عليك أن تقنع بما قنعنا به من قبلك. طأطأ الرجل رأسه قائلا: إنه مشفق عليك، فقد أصبت وكاد الموت يأخذ رجالك. قلت: لكن الآخرين ليسوا أفضل، إنهم فقط أحرص على الحياة منا، ولولا هذا ما بقى الملاحدة فى بلاد الإسلام كل هذه السنوات، ما يصنعونه ليس حربًا بل مناوشات، أين هم من

كـابـول أو جلال آبـاد أو مـزار شـريف؟ أين هـم من المـواقع المهمة؟ فقط يناوشون ويدّعون أنهم يعرفون الحرب أكثر من غيرهم، لا لشيء سوى أن الإصابات والقتلى فى صفوفهم أقل. كنت أتحدث كأسد جريح يثأر من الآخرين لأنهم فضلوا الاستمتاع بهزيمته عن مد العون له بأى شكل، وهاهم الآن يريدونه آن يقنع بما قاله عمر بن آبى ربيعة "كُتب القتل والقتال علينا، وعلى الغانيات جر الذيول"، نعم يريدوننا فقط للمؤخرة والإمداد وجر الذيول. ربت الرجل على كتفى قائلا: آنت متعب. قلت: الطبيب يمر الآن على الرجال وحين ينتهى سيأتيني. قال: لا عليك. قلت: إن شاء الله سنلتقى فى كابول. فغر الرجل فاهَهُ وعينيه وكاد يبتسم لكنه قال: إن شاء الله، إن شاء الله.

خرج أبو سعيد وفى عينيه نظرة إشفاق علينا لا حدود لها، دعوت مجلس الحرب وقلت: ماذا يقول الآخرون عنا؟ فغر الجميع أفواههم وقالوا: لا شيء. قلت: تحدث يا أبا عبيدة. صمت الرجل قبل أن يقول: الجميع يرى أن ما فعلناه جنونًا. آدركت أنهم يقصدوننى آنا، وتذكرت أن بى جزءًا من جنون، لكن جنون من؟ المختار أم شبيب أم عمارة بن الوليد الذى لم يصدق أىٌّ من رفاقه أنه دخل خدر النجاشى ونام مع محظيته، فطالبوه أن يأتيهم فى الغد بدهانه وعطره وقطعة من ثيابه كى يصدقوه، رأى أبو عبيدة ما على وجهى من شرود وحزن فتأتأ مخففًا من وقع جملته: يقولون إننا زجَجنا

بأنفسنا فى أمر لا تطيقه الجبال. صرخت فيه: لا يطيقونه هم، أما نحن فقد قال لنا الله تعالى "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل"، يا أبا عبيدة عد إلى تدريب الرجال من جديد، أريدهم أكثر صبرًا من البغال وقوة من الأسود، وجرأة من النمور. يا صهيب.. أريد أكبر قدر من المتفجرات فى حوزتنا، أما أنا فأريد الطبيب الآن. هتفوا على الرجال بالخارج أن يرسلوا الطبيب، كانت لحظات قصيرة لكنها متسعة بطول التاريخ والجغرافيا، لحظات تجاور فيها كل شيء، القديم مع الجديد، الماضى مع الحاضر، ابن المغيرة مع أبى سعيد، وأبو طالب يقول: سألت ابن أخى ما سألتمونى فقال: والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته.

حين أفقت وجدت الرجال ومعهم رجل قصير فى ملابس أزهرية، قالوا: الطبيب. نظرت فإذا به الصبّاح، قلت: حسن! دهش الجميع وظنوا أننى أهذى. قالوا: مصرى جاء منذ أيام إلى بيت الأنصار فأحضرناه يداوى الجرحى. قلت: جئت فى وقتك. مد يده فكشف عن ساقى فإذا هى بيضاء، قال لم يكن أمامنا سوى أن نعطيك مخدرًا ونقوم بتجبيرها، فمن عمارة ومن المختار؟ ضحكت حين علمت أنه وضعها فى شاش، وعلى الشاش ورقة مغراة، وعلى الورقة شاش محاط بعصى ثم شاش جديد. قلت أهكذا تداوون الناس فى

بلادكم؟ قال: الفلاحون والبدو يفعلون ذلك، أما المدن فتستخدم الجبس، قلت والرصاص والجروح؟! قال: الكى أفضل، وابتسم مردفًا: وأيسر. قلت: هل تحزن لو ناديتك بالصبَّاح؟ قال: تيمنًا بفاتح القلاع؟! هذا حسن.

حين تماثلت للشفاء ناديت أبا عبيدة والفضل ويسار وصهيب والعباس والصباح وقلت:سأغادر البلاد، فما الذى نريده من سلاح؟ أعطونى ورقة بها مفردات عديدة، قالوا: لا غنى عنها. قلت أريد تقسيم الرجال على مجموعات حسب بلدانهم، وتوجهت بنظرى إلى صهيب وقلت: أريد مجموعة تبايع الله على الشهادة يتمتعون بالذكاء والسرعة والمهارة، تدربهم على أقسى فنون القتال وتضعهم فى بيت خاص لا يعرفه سوانا. ثم توجهت نحو الصباح وقلت: الآن جاء دورك، أريد مجموعة للاستطلاع وجمع الأخبار، أريد أن ندخل ونخرج من جاجى كأنها موقعنا وليس موقعهم، أما أبو الفضل فعليه بنقل السلاح إلى مغارات قريبة منهم، لا أريد أن تتباعد خطوطنا عنهم، وصهيب عليه أن يستقبل الناس ويقسمهم ويوزعهم حسب الخلايا والبلاد، ويرسل لمن استشهد ما يعول أبناءه، وعلى الجميع الحذر والعمل فى السر والطاعة لأبى العباس فى غيابى.

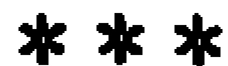
لم أشأ أن أستخدم العربة أو يصاحبنى أحد، فتسللت بالجواد حتى اختفيت عن الأنظار، وقطعت المسافات ركضًا

حتى وصلت إلى بيشاور ومنها إلى إسلام أباد، كان مدهشًا لمن هناك أن يطلب رجل بهيئة رثة ملاقاة وزير، قلت أبلغوه أن أبا عبد الرحمن بالخارج. حين جاء دفعت به إلى داخل مكتبه قائلا: دفعنا أموالنا وأنفسنا لمناهضة الملحدين وأنتم تجلسون فى مكاتبكم المكيفة وتتركوننا عراة فى الصحراء، أين ما طلبناه من سلاح؟ وأين أنتم من الإسلام؟! هدأ الرجل من ثورتى قائلا: لم نتأخر وقد وصلتك دفعة. انفجرت فيه من جديد: السلاح يباع فى أسواق الخضار والمجاهدون يصطادهم الروس بالنبال! قدم الرجل نوعًا من العصائر وهو يبتسم: لو انتصرت فى المعركة ما كنت ستعاملنا بهذا الحنق. أخرجت الورقة من بطانة الجاكت وقلت: هذه طلبات الرجال أريدها فى أيديهم قبل أسبوع. قال: الأمر أصبح عصيبًا عليكم، فقد زود الروس الموقع بالمزيد من المعدات، ولو حاولتم.. سيصطادونكم بالنبال كما تقول. ابتسمت بطريقته الباردة: هل تثبط عزيمتنا؟! قال: لا.. ولكنى أخبرك بالواقع، فالروس لن يتركوا جاجى بأى ثمن، وجورباتشوف انزعج مما حدث. قلت: لذا نريد أجهزة تصوير واستطلاع ولاسلكى ومدافع مضادة للطائرات وأخرى للمدرعات. قال: لديكم. قلت: أكثر تطورًا. قال: ومن سيدربكم عليها؟ قلت: وماذا تفعلون هنا؟ وقبل أن يبحث فى رأسه الصغير عن سؤال أو حكمة جديدة مددت يدى فأخرجت مظروفًا تطل من فتحته حفنة دولارات وقلت: سأرسل فى طلب الرجال لتقوموا

بتدريبهم حتى يصل السلاح. ابتسم وهو يضع المظروف فى أحد آدراج مكتبه: نرسل نحن من يدربكم عليها. رفضت وشددت على أن يصل السلاح فى أقرب وقت، ثم مددت يدى لمصافحته قائلا: أريد جوازًا أحمر. طأطأ الرجل رأسه باتجاه الأدراج وهو يقول: هذا محبة منى.

كانت الرحلة طويلة من كراتشى إلى نيودلهى إلى إسطنبول حيث التقيت ببهاء الدين، طلبت أن يرسل المزيد من الرجال وشحنة من البغال القبرصية، قال إن زوجتى الجديدة تسأله عنى. قلت: أرسلها. ثم ودعته متخذًا الطائرة المتجهة إلى برلين ومنها إلى لندن ثم باريس، تحدثت هناك عن العدو الروسى وعدالة الإسلام، شددت على أهمية دورهم فى مساعدتنا للقضاء على الدب الروسى إن لم يكن بالنفس فبالمال والسلاح، كان هذا جانبًا رسميًا، بدا لى من نظراتهم أنهم يقولون افعل شيئًا نصدقك من أجله، لكنهم على كل زودونى بصور حديثة التقطتها الأقمار الصناعية للمدن والمواقع الأفغانية المهمة، كان من بينها جاجى بالطبع، حصلت أيضًا على عدد من المناظير وكاميرات التصوير الليلية، ووعد بالمال والسلاح فى وقت لاحق. درت دورة موازية على عدد من مساجد الإخوة فى هذه المدن، وخطبت مرتين فى مسجد ببرلين وآخر فى لندن، شرحت الجهاد الإسلامى وحاجتنا للمال والسلاح والدعاء، وددت زيارة مسجد الصحابة لكن ذلك ذكرنى بأيام أردت نسيانها فحملت

حقيبتى واتجهت إلى المطار. استغرقت الرحلة شهرًا لكن الخير كان وفيرًا، وجدت الرجال عادوا من تدريبهم، والسلاح فى أيديهم، والبغال تدب على الأرض، وزوجتى اليمنية تنتظرنى فى مسكن زوجة أبى عبيدة. رحنا نتدرب على السلاح نهارًا وننقله إلى المغارات ليلا، والصبَّاح يجمع المعلومات ويرسل من يصور تفاصيل الموقع، أمضينا ستة أشهر ولا نحلم فى الليل أو النهار إلا بالثأر لأنفسنا، وكلما رآى أبو سعيد وغيره تدفق الرجال علينا من كل حدب كانت طلباتهم تزداد أكثر، حتى بدا لى أن أحدًا منهم لا يصدق أننا سنذهب للقتال، ساعتها شعرت أن العدة قد اكتملت ولم يبق إلا نصر الله.



(٣٣)

خريف ١٩٨٦

كنا نزحف فى تجاويف الصخور بينما أضواء المروحيات تبحث عنا فى كل مكان، هكذا استطعنا إثارة غضبهم بعدما ذبحنا عشرات الجنود وأطلقنا العديد من القذائف على مواقع مؤثرة فى تلك القرية الرابضة على الهضبة الشامخة، وكلما كانت المروحيات تحلق على أمتار غير بعيدة من رءوس الجبال كان الرجال يخرجون من شقوقهم ليصوبوا عليها بجسارة فائقة، دائمًا ما كانت تتراجع المروحيات وتجيء الطائرات الحربية لتقصف كل شيء. حين نوقن أن الدب قد انتفض من نومه نسكن فى مخابئنا لنعاود الهجوم بعد أن تنتهى غارته، هكذا مرت الأسابيع الأولى من القتال والرجال ينقضون فى أى ساعة ثم يختفون لتجيء الطائرات

والمدرعات فتتنزه فى المكان، شددنا على الجميع بتسهيل الأمر عليها مهما كبدنا هذا من خسائر، فراحوا يشعرون العدو بأنهم لا رغبة لهم حتى فى الاقتراب من الهضبة، وراح الروس من جانبهم يتعاملون معنا كهواة يريدون التواجد على جبهة الحرب، من جانبنا لم نعد نبكى ونحن ندفن أشلاء أصدقائنا بل نزداد حنقًا ورغبة فى تكبيدهم خسائر مماثلة. كان التدريب يتم في المعسكر على هضبة شبيهة بتلك التي في الواقع، وكان الرجال يتسلقون بالمدافع والمتفجرات إلى سطحها، وكان يكفى أن يصيح القائد بكلمة غارة حتى يختفى الجميع فى أقرب الأماكن تحصنًا، والويل لمن يتصور أن التدريب فسحة وليس حربًا حقيقية. حين كانت تكتمل عدة الرجال كنا ندفع بهم إلى المواقع الأمامية لرؤية الحرب عن قرب، لم نكن نتعجل أى شيء، فقط يتعود الجميع على صوت القنابل والصواريخ والغارات التى تجيء فى أى وقت، نقلنا أيضًا مركز القيادة من بدر واحد إلى المواقع المتقدمة لتقترب خطوطنا مع بعضها بعضًا، وقسم أبو عبيدة رجاله إلى مجموعات لا تزيد الواحدة عن عشرة رجال، كانوا يتعايشون معًا كما لو أنهم كتلة لحم واحدة، يأكلون ويتدربون ويتسامرون وينامون معًا، وجعلنا لكل جناح معسكر يتآلف فيه كأنه جيش مكتمل، وبينما الصباح ينتخب رجاله من بينهم كان صهيب ينتخب رجالا أشداء يتمتعون بالمهارة والسرعة لتلقى الشهادة. ذات يوم غير الروس طريقتهم وبدلا من أن

تخرج المروحيات أو ترد المدفعية فوجئنا بسرب طائرات حربية تطلق صواريخها عن بعد، لم تسمح المباغتة للرجال بالانسحاب كما اعتادوا إلى المغارات أو تجاويف الصخور، كبدتنا هذه الغارة خسائر فادحة، وراح الرجال جميعًا يطلبون الشهادة ثأرًا لإخوانهم. خطبت فيهم بالصبر وانتظار النصر، خطبت أيضًا بالتزام الأوامر والطاعة المطلقة، فقد أبلغ رسول الله الرماة فى غزوة أحد بالتزام مواقعهم قائلا: إن رأيتمونا نهزم فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا نغنم فلا تشاركونا. لكنهم خدعوا بالنصر، ونزلوا من أعلى الجبل، فتحول نصرهم إلى هزيمة، فهل تريدون الصبر والطاعة أم تلقون بأنفسكم إلى التهلكة؟ فهتف الجميع: الصبر والنصر، فقلت: وبشر الصابرين.

كان علينا أن نغضب الدب الروسى بشكل يجعله ينزل إلى السفح، فجهزنا عشرة رجال بايعوا الله على الشهادة، دفعنا بهم إلى الجانب الشمالى من الهضبة لدخول الموقع، قلنا لهم أن يضربوا بكل ما لديهم من قسوة ثم يهبطوا أمام الجميع من جهة الجنوب، نريدهم أن ينزلوا خلفكم، وكلما كنتم أكثر طمعًا فى الهروب غرَّتهم قوتهم وجاءوا إلينا، كالعادة أطلقت المدافع قذائفها، فخرجت المروحيات تحلق فوق المكان، قلنا للكامنين على رءوس الجبال أن يفزعوها لتعود، كنا نعلم أن ذلك يعنى مجيء سرب طيران ليخمد كل شيء بقذائفه الصاروخية، أصبحنا نعرف اللعبة ونديرها أيضًا، عادت

المروحيات بالفعل من حيث أتت، وصعد الرجال إلى حيث أمروا، وجاء سرب المقاتلات ليصفع الجبال بالصواريخ، وكان الروس ينظرون من أعلى الهضبة كمن يشاهد فيلمًا معتادًا إلى حد الرتابة، ما إن أفرغت المقاتلات شحنتها وعادت حتى بدأ المعسكر يدوى بصفارات الإنذار، فقد تحطم الردار وأطلقت القذائف من داخل المعسكر على أبنية القادة ومبيتات الجنود، وراح الرجال يفرون مطلقين رشاشاتهم على كل ما فى طريقهم ناحية الجنوب، كانوا يهبطون فى مشهد عبثى، فى المقابل دفعنا بخمسين رجلا فى اتجاههم من أسفل التل، بدا السفح كأنه مليء بالأرانب الجبلية التى تحتاج لمن يقتنصها، حين خرجت المروحيات ردت عليها القذائف، ولما كان الرجال عراة وفى حوزة الروس تقريبًا تحركت المدرعات والعربات المصفحة نحو السفح، لم يكن الرجال يكمنون كما اعتادوا بل هروا متدحرجين على النتوءات والرمل، وراحت الجنزرات تنطلق خلفهم، مناوشات بسيطة يتوقف الفارون ليقوموا بها، فتطمع المدرعات فى حصدهم، أخيرًا أصيبت واحدة بعطب، وهجم الرجال نحو طاقمها، بينما انشغلت الأخريات بالدفاع عنها وعن أنفسها، نزلت مدرعات جديدة، وظهرت مروحيتان فى الأفق، أصيبت إحداها ودوت فى طريقها إلى الأرض، تراجعت الأخرى وسط نيران وقذائف من رءوس الجبال، أعطينا أوامر بالتراجع والاختفاء، حين جاءت المقاتلات أفرغت نصف

شحنتها بجانب المدرعة التى أصابها العطب، تراجع كل شيء وبدا المشهد ساكنًا والروس يحاولون جذب مدرًعتهم، فجأة صاح أبو عبيدة بالقذائف التى راحت تنهال عليهم، لقد خسروا بالفعل هذه المرة وانتقمنا لمن استشهدوا فى غارتهم بالأمس.

قال صهيب: علينا أن نفعل معهم هذا أيضًا فى الغد. قلت: لم يعد هناك غد.. فإما أن تقتلهم وإما أن يقتلوك. مددت يدى وأنا أتحدث جامعًا الرمل على هيئة هضبة شامخة: لن يأتى المساء حتى تجدوا هذه الهضبة تنسحب نحونا بمقاتلاتها لتبيد كل شيء، وحين نفر ستعمل المدرعات كما تشاء، سنصبح فريسة لهم. ران الوجوم على وجوه الجميع. قلت: ليس أمامنا سوى العمل فى وضح النهار وبعيدًا عن أعينهم، سننتظر اللحظة التى سيخرجون فيها لنحرق لهم فكرة العودة إلى أعلى، علينا أن نتسلل فى وضح النهار من هنا وهنا، وأشرت إلى الجانب الشمالى حيث يأتيهم التمويل، والجانب الشرقى الذى ليس به ممرات لنزولهم، خمسون من هنا وخمسون من هنا، ونبقى كما نحن على رؤوس الجبال، وفى المواجهة نعد ميمنة ويسارًا وقلبًا، لن نبدأ القتال معهم حتى نسيطر على الهضبة من أعلى، ومن ينصره الله فلا غالب له.

أخذ الرجال فى التسلل نحو الهضبة، وراح الجميع يعد له مكامن جيدة تحسبًا لتمشيط الطائرات، أخذنا الحذر مبدأ

فى كل شيء، وصلت جماعة الجانب الشرقى إلى أماكنها بيسر، أما جماعة الشمال فكان عليهم التخفى والمراقبة حتى لا تلحظهم عربات الدوريات التى تأمِن الإمداد. جاء المساء وكل قد اتخذ مكانه، لكن الروس لم ينزلوا من قلعتهم، كأنهم نسوا ما حدث فى الصباح، وكأنهم صفحوا عنا وقرروا البقاء على قمتهم الشامخة، حتى الطيران لم يأت، ولا صافرات الإنذار، ماذا حدث؟ هل هناك من أبلغهم بخطتنا، أم أننا أعطيناهم فوق قدرهم؟ أخذ القلق ينتابنى، صلينا العشاء وظللنا نترقب. لا شيء سوى البرد والثلج وزعاق النسور، أخيرًا فى العاشرة ظهرت مروحية ألقت بكشافها على الأرض فى اتجاهات عدة، قلت لقد علم القوم بنا، قلت لو علموا ما تركوا الهضبة محاطة بالرجال من كل جانب، قررت أن أترك القيادة لأبى عبيدة وإلا أصبت بالجنون، خرجت أتمشى أمام الكهف فلم أستطع الصبر ولا التراجع، لدى يقين بأنهم سيفعلون ما تصورته، ليس أمامهم سوى ذلك، قلت لأبى عبيدة إننى سأتسلق الجبل الغربى، صرخ فىَّ بأن هذا جنون، الجبل كظهر رجل منتصب وجلد صبية حسناء. قلت: الموت بين الرجال أفضل من أن يقول أحدهم إننا دفعنا بهم للموت فى الجليد وجلسنا نتسامر فى الكهف. حملت سلاحى وناديت صهيب أن يتبعنى فى عدد من الرجال، فلا نامت أعين الجبناء. خف الجميع خلفى لنعتلى جدران الشاهق الباسق، أدركت بالفعل أنهم كانوا على حق، فمن الصعوبة أن

تصعد نهاراً بنفسك، فماذا عن الظلمة والأسلحة، وددت لو أقول لهم بالتراجع لكننى خشيت من تندرهم فيما بعد، هم أيضاً كانوا يودون القول بالرجوع لكنهم خشوا من استصغارى لهم، بعد عناء طويل وصلنا إلى منطقة نتوءات ومنحدرات بسيطة، كانت أفضل بكثير من الأولى، قطعنا المسافة فى ثلاث أو أربع ساعات ألقينا بأنفسنا بعدها على الأرض، ولو أن أصغر جندى روسى جاءنا لسلمنا له أنفسنا بأيدينا، لكن هذا لم يحدث ولم يطل، فقد تعالى أزيز المقاتلات التى راحت تمشط الجبال، تفاءلت بأن الأمر كما توقعنا بالضبط، رحنا نركض ونختبئ حتى اقتربنا من قلب الهضبة، رأينا رتلا من المدرعات يتحرك نحو الممرات، هتفت فى أبى عبيدة باللاسلكى إنهم نازلون إليك. هتف بدوره فى الجميع بالاستعداد، رأيت بعض رجال الجانب الشرقى يتسللون نحو مخزنى وقود وأسلحة، رأيت مجموعة الشمال تنشر حبال التروتكس فى ممرات الإمداد، أرسلت رجلين ممن رافقونى لإمطار غرفة الكهرباء بالقنابل مع أول ضوء للكشافات، لم تكد المدرعات تتخذ طريقها نحو منحدر الهضبة حتى اشتعل مخزن الوقود، ورد عليه مخزن الأسلحة بانفجار أعظم، لم تكن الهضبة فى حاجة إلى صافرات الإنذار التى دوت ولا الكشافات التى دارت على الرءوس، لكن صاحبينا أخمدا كل شيء قبل أن ينتبه الراصدون لرصدنا، فأصبح كل من على الهضبة متساو فى الرؤية، وتوالت الانفجارات فى أماكن

نعرفها ولا نعرفها، رأيت الرجال يرشقون بوابات الهضبة بالقاذفات، رأيت أيضًا انفجارًا على الجانب الشمالى فأدركت أن خطوط الإمداد قد قطعت، دارت بعده معركة بالرشاشات والقذائف لم يغط عليها إلا صوت المعارك التى دارت فى الجنوب، بدوره تسلل صهيب نحو مروحية كادت تقلع لكن قاذفته أنامتها من جديد، بدا لى المشهد عبثيًا، فلم أعد أعرف من يهرب ولا من يقاتل، الكل يجرى مطلقًا الرصاص، والانفجارات تدوى فى كل مكان، فى فرارنا اصطدمت بجندى رطن بكلمات لم أفهمها ثم تشنج فى مكانه، أخذت ما معه من ذخيرة وتركته دون أن أطلق عليه الرصاص، بدا أننا سيطرنا على الهضبة، فالنيران تشتعل فى كل جانب، والطيران لم يأت بعد، ورجال الشمال استبسلوا فى معركة لا يوازيها إلا معركة الجنوب، بدا أيضًا أن رجالنا يزدادون اشتباكًا مع الدبابات التى فى طريقها للنزول، وعلى البعد رأيت رجلا ضخمًا يتجه نحو عربة أمام غرفة القيادة، صرخت فى صهيب أن يأسر الرجل، رأيته يزحف حتى اقترب من المكان ثم انتصب مهرولا وهو يفرغ رشاشه على العربة، كان الرجل كمن انتظر قضاء الله فيه فوقف مستسلمًا حتى انقض عليه صهيب واستدار به إلى داخلها، لم أعرف من فيهما أسر الآخر لكنى وجدت الجنود يتجهون نحوهما، فتقدمت نحوهم وفتحت النار بعشوائية وجنون، ورأيت لهبًا يخرج من العربة عليهم، فأدركت أن صهيبًا ما زال

حيًا وأن غريمه أصبح شيئًا مختلفًا عما كان عليه منذ قليل، فجأة توقف اللهب وراحت العربة تتلقى الرصاص من كل جانب، بدا أنهم أيقنوا أن من فى العربة قد مات فاستداروا يطلقون رصاصهم نحوى، تراجعت وقد شعرت بضرورة الهرب وإلا لحقت بصاحبى، على مقربة منى سقطت قنبلة فألقيت نفسى على الأرض وغطى الرمل الساخن جسدى، ألقى صهيب بالجثة التى حارب من خلفها، ألقى أيضًا بعدة قنابل فى اتجاهات متفرقة ثم فتح نيران رشاشه ليغطى انسحابه نحوى، حين وجدنى حيًا صرخ فىَّ وهو يضغط على الزناد أن غريمه كان القائد. خف التوتر حين انسحبنا بعيدًا عن مرمى النيران، وقلت ظننتك قتلت لكن هذا أول النصر. حين ظهرت المقاتلات فى طريقها نحو الهضبة هتفت فى أبى عبيدة لأعرف ما الذى حدث، قال إن بعض المدرعات أصيبت بالعطب ويحاولون جرها إلى الهضبة، قلت لا تتركوا الجبناء فيعودوا ليقاتلوكم. لم ألبث حتى رأيت قذيفة انطلقت على دبابة فى أول الممر فتعطلت وأغلقته على غيرها، وراحت المقاتلات تدك السفح هذه المرة، كانت تحمى المدرعات الهاربة نحو الشمال، خمنت أن أمرًا صدر بتغطية الانسحاب، وأنها عما قليل ستدك الهضبة نفسها، جاءنى صوت أبى عبيدة بأنهم يفرون، أمرته بمد جبهة الشمال بالرجال حتى لا يكبسنا الروس بالإمداد منها، قال إن الدبابة المعطوبة على الممر تحتاج ساعة على الأقل لإزاحتها، بالفعل غيرت

المقاتلات وجهتها وجاءت لتدمر الهضبة من الداخل، لكن هيهات؛ فقد صعدنا ولن ننزل إلا بالموت، ويبدو أن الروس أدركوا هذا أيضًا، فلم تأت مقاتلاتهم إلا مع الصباح البارد لإنزال جنود على الهضبة ،كانت طائرة الإنزال عظيمة كملكة النحل، بينما المقاتلات تحوم حولها كخادمات تبحث عن غذائها فى كل مكان، هتفت فى السماء: "رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير". حين عدت ببصرى وجدت مهيار يرتدى ملابس جندى روسى وأبا عبيدة أسيرًا بين يديه، كانت وجهتهما نحو طائرة الإنزال، فتركتهما المقاتلات يمران دون خوف، فلما بلغا نصف المسافة وقع أبو عبيدة رافضًا السير، وانهال عليه مهيار ضربًا وتهديداً بالقتل، وكاد الروس أن ينتبهوا لولا أن قذيفة أطاحت بالمشهد كله، فقد تحول الدب الجاثم على الهضبة إلى كتلة من نار، وراح مهيار يطلق زخات رشاشه على المروحية التى تحرسهما، ولم تمض ساعة حتى أيقن الروس أنهم خسروا المعركة والقلعة الحصينة، فرحنا ننشد: قل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا.

***

(٣٤)

لم يستوعب أحد ما حدث.. كيف تنازل الروس عن قلعتهم الحصينة؟ وكيف اعتلاها هؤلاء العرب الهواة؟ هكذا كان الجميع يضرب كفًا بكف وهو يسخر من فعل القدر، لكننا لم نكن هواة ولا مجانين، فقد أعددنا لكل شيء وأتم الله علينا الأمر، ويئس العدو من غاراته التى بلا جدوى وصرنا نحن الذين نحث الرجال على الزحف لطردهم من رءوس الممرات، جاءت حيل كثيرة ومغامرات أكثر، كان أكثرها طرافة مغامرة البغال، تلك التى صار الروس يعدونها السلاح الأخطر عليهم، كنا فى البدء نلغم البغل ونرسله على المدق الذى ينتهى بنقطة التفتيش، ثم نقوم بتفجيره عن طريق سلك فى نهاية حشو السرج، حين انتبه الروس لهذه الحيلة كنا نتركهم يتعلمون النيشان على هذا المخلوق البائس ونخرج عليهم من تحت الأحجار لندفعهم أمامنا كقطيع تمزَّق شمله، لم تكن مواقعهم

فى هذه المرحلة حصينة أو ذات نفع إلا فى فرض النفوذ على الأرض، فكما قال أبو عبيدة "رجل على الأرض خير من طائرة فى السماء".

أعطتنا جاجى مكانة لم يحزها من قبل أى من المجاهدين، بل إن الأفغان أنفسهم قالوا: كانوا ضيوفًا علينا فصرنا نحن الضيوف عليهم .أما الغرب فقد رأى أننا فعلنا ما نستحق التقدير عليه، وراح بعضهم يعاملنا على أننا الجواد الأسود الذى جاء من آخر المضمار ليسبق الجميع، ولا شك أننا كنا سعداء بهذا المديح، فرحنا نرد على كل تحية بأفضل منها، قال أبو سعيد: الجميع يريد التنسيق معكم فى الحرب. قلت: ونحن نريدك معنا. ضحك قائلا: لأقوم بعمليات الإمداد والتموين؟! قمت من فورى أقبِّل رأسه وكتفيه: بل مكانك هنا. أشرت إلى حيث أجلس، وأردفت: فأنت أكثرنا خبرة بالقتال وفنونه، وأكثرنا دراية بالمكان وأهله، ولنا كل الفخر بأن يكون شيخ المجاهدين قائدنا. شعرت بأن مسحة من الرضا راحت تملأ وجهه، لكنه سألني: ومجد؟! شعرت بارتباك من وقع مقولته، فلم يكن فى تخطيطنا أن ينضم إلينا غير من اخترناه بعناية وأدخلناه مأسدة الأنصار، لكننى فتحت ذهنى على المكان الذى نحارب فيه، فهذه البلاد لا يعرفها أكثر من مجد ورجاله، والبشتون هم الظهير الذى يجب أن نرتكن إليه، ليس للحرب فقط ولكن لما بعد الحرب، قلت: هذه البلاد بلاد مجد، وما جئنا

إلا لننضم إليه. ابتسم الرجل حتى شعرت أن ضوءًا خرج من وجهه فأضاء الكهف: أخ كريم وابن أخ كريم. فلم أتمالك نفسى من الضحك.

فى الصباح جاءنى مجد برجاله وكانوا أقل مما توقعت، قال : هؤلاء من بقوا من سنوات الجهاد يا شيخ الجبل. قلت: مرحبا بك وبهم يا شيخ الشيوخ. فابتسم قائلا: لقد تفرغت للجهاد وتركت أمر المدرسة لغيرى، وهم بدورهم بدأوا يلتفتون للتدريس بعد كل ما حققناه من خسائر.

لم نكن فى هذه المرحلة نريد سوى أن نزعج الروس على رءوس الطرق والجبال، وصارت قندهار الغاية التى فى نهاية المطاف، جلسنا وتدارسنا ما كان لدينا من أخطاء فى المعركة، درسنا أيضًا وضعنا وقد أصبح معسكرا بدر لا يتسعان لرجالنا ورجال مجد، قلنا نعد معسكرين آخرين، قال صهيب: القادسية على اسم معركة خالد بن الوليد مع الفرس. وقال الصبَّاح: الفتح، تيمنًا بفتح مكة. فى الصباح اتخذ صهيب طريقه لتأسيس المعسكرين، بينما اتخذ الصبَّاح طريقه إلى باكستان لطلب المزيد من السلاح، رفضوا أنواعًا بعينها لأنها أمريكية الصنع، فتركهم واتخذ طريقه إلى إسطنبول حيث التقى بهاء الدين، أفصح له عن رغبته فى شراء أسلحة أمريكية، جاءه فى اليوم التالى برجل كورى حصل على نصف مليون دولار، قال: سأرسلها على أنها مواد بناء قادمة لمكتب

مقاولات عملائكم فى بيشاور، حين نظر إليه الصبّاح مستنكرًا أردف الرجل: ومعها من يدربكم على استخدامها. وافق الصبّاح وعاد من طريق غير الذى ذهب منه. حين مر الموعد الذى اتفقا عليه رحنا نتندر بأن المافيا سرقت المجاهدين، كان الصبّاح حزينًا لكن وجهه الهادئ لا يستشف منه سوى ثقته العميقة بأن الصفقة ستصل، صرفنا نظرنا عن الأمر برمته وقلنا نريد متفجرات، أرسلنا صهيبًا هذه المرة فجاءتنا البغال محملة بالعديد من المواد ومعها من يدرب الرجال على تصنيعها، بدا لنا أن ما يفعله الرجل سحرًا عظيمًا، فقد قضى على بضع حيوانات فى مغارة بوضع سائل شفاف على بابها، قال: يمكنكم استخدامه كعجائن أو زيوت أو غازات عن طريق ماكينة تقوم بتبخيره. صنعنا كمية لا بأس بها فى كهف أسميناه المعمل، حرص الصبّاح على ألا يعرف الرجل من أين جاء ولا من أين يذهب، وفى الوقت الذى بدا فيه صهيب فرحًا بما أنجز كان الصباح يشاغل نفسه بتجهيز المعسكر الجديد، لكننى كنت أعلم أنه يوارى شعورًا بالفشل، خاصة أن العلاقة بينه وبين صهيب بها الكثير من المنافسة على إثبات الذات، علمت فيما بعد أنهما يعرفان بعضهما منذ زمن بعيد، فصهيب من أتباع الرجل الضرير فى تنظيم الجماعة الإسلامية، وكلاهما يجتهد فى جمع رجال تنظيمه القديم ليكونوا فى مقدمة المجاهدين، حين انتبهت لهذا الصراع قلت: لا ضير.. وليتنافس المتنافسون.

افتقدت الصبَّاح، ولم أعد أشعر بوجوده بجانبى، وكلما سألت عنه قيل يتابع العمل، امتطيت جوادى وخرجت أتابع مثله، لم أكن فى الحقيقة بحاجة لمتابعة شيء بل لرؤية الرجل، وجهه الهادئ يشعرنى بالطمأنينة وسط هذه الصخور، حين عثرت عليه سألته: لم اعتزلتنا يا واصل؟ وضع رأسه فى الأرض وكأنه يبحث عن شيء مفقود: أضعت من مال المجاهدين خمسمائة ألف دولار. ضحكت: وأين بهاء الدين منها؟ قال: الرجل لم يكن سوى وسيط ولا يمكننى أن أحمله وزرى. أعجبنى تحمله المسئولة وتبرئة خالى الذى لا أعرف كيف وافق على صفقة خاسرة كهذه، قلت لنفسى إن الهرِم بدأ يدركه، وهاجمنى شوق كبير له، فتذكرت محاوراتنا الطويلة وحرصه على تعليمى كل شيء، تذكرت ذكاءه وعلمه وأمانته، وكدت أبكى لولا ظهور أبى سعيد ومجد، قالا: فيم تفكران؟ قلت فى الصبَّاح. قال مجد: صاحب القلاع؟! أتدرى أننا لسنا ببعيد عن عاصمة ملكه؟ قلت كيف؟ أشار بيده نحو المثلث الذى يربط إيران بأفغانستان وباكستان قائلا: هنا.. حيث أصفهان ودامغان ومنصور آباد. قلت: أهذه قلاعه؟ قال: لا؛ لكنها منطقة نفوذه، فقلعة ألموت فى طالقان، وهى منطقة قلاع حصينة أشهرها ألموت التى تعنى بالفارسية تعاليم العُقاب، وليس الموت كما يظن الناس، فالذى بناها أمير ديلمى كان مغرمًا بالصيد، أطلق عقابًا ذات يوم وأخذ يرقبه حتى رآه يحط على تلك الهضبة المستديرة كالكعكة،

فأمر ببنائها قلعة لجنده وأسماها الموت. أُخذت بحديث مجد عن قلعة الصبَّاح فسألته: وكيف استولى الصبَّاح عليها: نظر الرجل إلى أبى سعيد وكأنه يستأذنه، فطأطأ رأسه بابتسامة جعلته يقول: لم يبذل الصباح كثيرَ جهد فى هذه القلعة ولا غيرها من القلاع، لكن الحق يقال إنه كان تقيًا لا يستولى على حق أحد. زادنا مجد دهشة بمديحه للصباح، فأشرنا له أن يكمل: بعد أن خرج من مصر استقلَّ سفينة متجهة إلى عكا، لكن الأقدار شاءت أن تهب الرياح والعواصف وتتلاطم الأمواج، كان الجميع على ظهرها فزعًا من الموت، وحده الداعية الإسماعيلى الشاب الهارب من جنود الأفضل بن بدر الدين الجمالى، كان أكثرهم ثقة بالله والقدر، ولم تغير فيه الأهوال شيئًا وهو جالس فى مكانه يقرأ القرآن، فجأة انكسر الصارى وسقط أمامه، وراحت الأمواج تلطم السفينة بشدة حتى تفصدت الألواح، لكن مشيئة الله جعلت الصبَّاح يمسك بالصارى الذى جرفته المياه، وظلت الأمواج تأخذه حتى اقترب من شواطئ حلب فأنقذه الصيادون هناك، وأظهر ورعًا لا مثيل له وهو يعظ الناس التى توافدت على من نجاه الله من الأهوال، بعدها غادر حلب إلى الرَّىّ، وهناك كون أول مجموعة تدعو لإمامة نزار بن المستنصر، ثم انتقل إلى أصفهان لينشر بها الدعوة، لكن السلاجقة ضيقوا على دعاته، فخرج منها إلى الشمال حيث مازندران والديلم وجيلان وقزوين، متخفيًا من تجمعات الناس ومبتعدًا عن

المدن والقرى حتى وصل طالقان، كانت ألموت هدفه منذ خرج من الرىّ، فراح يرسل دعاته لينضموا إلى أهل القلعة، ففعلوا حتى استطاعوا التأثير على من فيها وضمهم إليهم، لكن واحدًا من الدعاة رأى أن الأمر قد اكتمل ولم يبق إلا دخول صاحب القلعة، فصارح الرجل الذى تقبل الأمر بصدر رحب، مما جعل الداعية يعرفه على من معهم من الرجال، فى الصباح جمعهم الحرس من مخادعهم وألقوا بهم خارج القلعة وأغلقوا الأبواب، ونبه صاحب القلعة على حراسه بأن يقتلوا أى إسماعيلى يقترب، فارتدى الصباح المسوح وصعد القلعة وأخذ يبكى الإسلام وفرقة المسلمين، حتى تأثر شيخ القلعة بعلمه وورعه فأدخله وأجلسه بجانبه ليتبرك به، وتركه يعظ جنوده وأهل قلعته مقابل نومه وطعامه، لكن شهرًا لم يمض حتى دخل الصباح عليه قائلا: خذ أشياءك واخرج من القلعة. فدهش الرجل وظنه يمزح، لكن الحرس أحاطوا به وجمعوا أغراضه ونقدوه ثمن قلعته وتركوه ينزل بسلام.

وددنا لو أكمل مجد حديثه غير أن رجلا دخل علينا وفى يده ورقة أعطاها للصباح، حين فتحها تهللت أساريره، قلنا أشركنا معك. قال: الأسلحة وصلت. للوهلة الأولى لم نصدق، لكن شهرًا كاملاً والبغال تفاجئنا بما ورد إلينا، لم تكن سوى صواريخ مضادة للطائرات والدبابات، مصحوبة بمن يشرح للرجال كيفية استخدامها، فرحنا بما جاءنا من خير، وشاهدنا إطلاق صاروخين أو ثلاثة على أهداف كنا نختبئ قبل ظهورها، جاءت النتيجة بارعة وفوق ما نتخيل، فقد

توقف تحليق الطيران على رؤوسنا لمدة أسبوع بكامله، كان الصباح يسعى فى المعسكر كطاووس منشرح الصدر، بينما اختفى صهيب عن المشهد، لكن الفرح لم يكتمل، فقد فوجئنا برسالة من بهاء الدين تخبرنا أن أمريكيًا يسعى للقائنا، أكد الأمر بعض أصدقائنا فى باكستان، فأرسل الصباح من يحضره، حين دخل الحدود خدره الرجال وحملوه إلينا، قال إنه يطلب شراء ما لدينا من صواريخ أمريكية، قال إن الصفقة قام بتهريبها للمافيا وقد علمت حكومته بها، وإن هذا سيعرضه لمخاطر لا حد لها. قلنا له أمهلنا عدة أيام وسوف يصلك الرد. أرسلت لبهاء الدين أستعلمه عن الأمر فلم يفدنا بكثير، أرسلت الصباح إلى أصدقاء فى طهران فعاد يقول إن صحيفة روسية ذكرت أن الروس يحاربون بأسلحة أمريكية، فارتعد الأمريكان من التورط فى الحرب. طلبنا من الأمريكى خمسين ألفًا مقابل القطعة ذات العشرة آلاف فوافق، لكن رسالة جاءت من بهاء الدين تقول لا تفرطوا فى الصقور. أعطينا الرجل خمسمائة قطعة وقلنا هذا ما لدينا. لم تمر أيام حتى وجدناه يطلب اللقاء من جديد، قال: العملية التى قام بها رجلكم احتوت على ألفى صاروخ، فأين الباقي؟ قلنا موزع فى أيدى المجاهدين وما زلنا نتفاوض معهم لاستعادته. فأخذ الرجل يدفع مقابل كل قطعة تظهر أضعاف سابقتها، حتى شعرت أمريكا أنها خسرت فى هذه الحرب أكثر مما خسره الروس أنفسهم.

(٣٥)

حرمنا من أسلحة الأمريكان، وأصبح علينا أن نواجه الموت عراة لا نملك سوى الحيلة والرغبة فى الشهادة، ويبدو أن هذا كان سلاحًا مفاجئًا للروس، فليس هناك أناس أكثر جرأة على الموت منا، ليس هناك رجل يتناول السم بيديه قائلا إن كان ذلك أمر الله فلا مهرب منه، وإن لكل أجل كتاب لا يبلغه دونه، ولا يمتنع عنه إذا جاءه. هكذا قال خالد بن الوليد على أبواب الحيرة، وهكذا نفعل على أبواب "خوست" و"كالات". الطريق وعرة والجبال شديدة القسوة، لكن الرجال أصبحوا قطعًا منها، يعشقون الليل أكثر من النهار، فما أن تحل الظلمة حتى يتحولوا إلى أناس آخرين، كأنما الجن تتلبسهم والملائكة تحفهم، عيونهم كعيون الذئاب، وسواعدهم نسائل من عروق الجبال، وأذهانهم تلمع كنجوم الليل، ترى برقها فى الخطط والقذائف والهجوم والفرار، العالم يعرف الآن أن

هذه منطقة الأسود فلا يدخلها إلا بأدلاء، وهؤلاء لا يمكن أن تكون هذه مهنتهم إلا لو أخذوا العهد على يد الصبَّاح، فرجاله يمكنهم الوصول إلى عنق من شاءوا، ولا يمكنك أن تقلب حجرًا عن حجر إلا وتجد واحدًا منهم، لله دره، يعشق التدبير والتخطيط. أما صهيب فهو ريفى يعشق العمل على خط النار، لا نسأل عنه إلا وقيل فى مهمة ما نلبث حتى نسمع بأخبارها، يعتمد على الخُلَّص من رجاله كما يفعل الصبَّاح، وحده أبو عبيدة الذى لا يعترف بهذه التقسيمات، والويل كل الويل لمن يعصى أمره أو يقول إنه من أتباع فلان، كل الرجال لديه مجاهدون جاءوا للشهادة. عيَّنته قائدًا عامًا وجعلته المنسق بين رجالنا ورجال مجد الدين، أما أبو سعيد فقد صار - مثلى - شيخًا للجبل لا يفعل غير الحيطة والحذر، كلانا أصبح مطلوبًا من قبل الروس وغير الروس، كلانا صار هدفًا للاغتيال، ولم يعد أمامنا سوى الانصياع لأوامر الصبَّاح وترتيباته، نغير أماكننا فى اليوم الواحد عدة مرات، ونحفر خنادق تربط بين الكهوف وبعضها بعضًا، وكل شيء فى حاسبى المحمول، فهو رفيقى أكثر من الجميع، أسجل عليه الملاحظات والأفكار والخطط والخرائط وأنسخ منها صورًا أبقيها على أجهزة بعينها، تعلمت هذا الدرس حين تعطل وفقدتُ بعض الملفات، يومها أدركت أننى بدونه ما عدت أستطيع التفكير، فأرسلت فى طلب عدة حواسب أخرى للرجال، أصبحت بدورها غرفة عمليات، حين رأى الصباح

قدراتها لمع فى ذهنه إصدار مجلة للمجاهدين، قال :علينا أن نتعامل كأهل للمكان، وأن نرسى قواعد الدعوة ونُشعر الجميع بأن هناك ما يربطهم به. وجدتها فكرة لا بأس بها، هو بدوره راح يخططها ويصمم غلافًا يليق بها، لا أعرف من أين يأتى بالوقت لفعل كل هذه الأشياء، لم تمر شهور حتى أصبح لها رونق وصرنا نتلهف لقراءتها، كان اسمه كمحرر عام قد أصبح ذائعًا بشكل جدد الغيرة بينه وبين صهيب، هذا الذى وجدته يدور فى حديثه حول إصدار مجلة مشابهة، لم أرد أن أخذله، فرجاله يتحملون المزيد من الأعباء ويحصدون الكثير من النصر، لم أر فرحًا فى عينيه مثلما رأيت وأنا أقول: ماذا لو أصدرت مجلة مثل الصبَّاح؟ انعقد لسانه من الفرح ولم يعرف كيف يرد، أستطيع اليوم أن أقول مجلة الصباح كانت أشمل لكن مجلة صهيب كانت أكثر دقة وعمقًا، وكان لهما فعل السحر فى نفوس الجميع.

خوست وكالات هما المدينتان اللتان كان علينا الحصول عليهما قبل التفكير فى كابول أو قندهار، ورغم أننا كنا نتجه إلى كابول غير أن الصبَّاح أخبرنا أنه سرَّب خبر توجهنا إليها، فنشبت أزمة بينه وبين أبى عبيدة وصهيب، واتهماه بالحمق، وصار مجلس الحرب أكثر التهابًا عما قبل، عقدت اجتماعًا للمجلس وأمرت بعدم فتح باب الكهف إلا فى الصباح، تشاجر الجميع وعلت الأصوات وقال كل منهم ما يريد قوله من تجريح واتهامات للآخر، وجلست وأبو سعيد

ومجد ننصت، كان كل من المتخاصمين يحتمى حينًا بواحد منا، ثم ما يلبث أن يذهب ليحتمى بالآخر، وكنا لا نعرف ماذا نفعل بين إخوة صاروا ألد الخصام، شعرت لو أن أسلحتهم فى أيديهم لفجَّروا بعضهم بعضًا، شعرت أن أبا عبيدة جار على الصباح أكثر مما ينبغى، أما صهيب فقد حرك الريح فى الاتجاه الذى يريده، حين حل عليهم التعب من النقاش والشجار أجلستهم فى ركن ورحت أستدعيهم فرادى ليشرح كل منهم وجهة نظره، قال أبو عبيدة إن هذا جعل الأمر أصعب علينا من جاجى، وقال صهيب هذا خطأ حربى فادح، فلا يمكن أن نكون كالسادات حين قال لا يمكننى الدخول فى سيناء أكثر من هذا لأن منصات صواريخى لن تستطيع حماية قواتى، شعرت أن صهيبا يكره السادات أكثر من الجميع لكنه على حق، فلا يمكن أن يعلن قائد عن نفاد ذخيرته وضعف إمكاناته، ولو كان عليه أن يفعل فليس أمامه إلا ما فعله القائد النصرانى مع طارق بن زياد، فقد أمر النساء بارتداء ملابس الفرسان ووضعهم على الأسوار كقوة أمامها زمن طويل كى تستسلم، وخرج بخادمه على هيئة رسول من صاحب القلعة فأتيا طارقًا، قال: إن سيدى يطلب الصلح حقنًا للدماء، ولو أردتم الحرب فانظروا ما على الأسوار من رجال، ولدينا فى القلعة أضعاف أضعاف، ولا سبيل لدخولها إلا بالقضاء على كل هؤلاء، لكنه يرى حقن الدماء على أن يخرج بكل أمواله ومن معه، فصالحه طارق

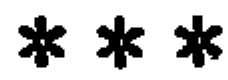
على ذلك، لكنه حين دخل القلعة فى الصباح لم يجد بها من الرجال إلا صاحب القلعة وخادمه، فشعر أنه خدع ونقض الاتفاق، لكن الرجل اشتكاه لموسى بن نصير الذى قال لقائده: إنما الحرب خدعة.

حين استدعيت الصباح وجدت له منطقًا مختلفًا، قال إن الجميع يعرف وجهتنا، وإن لم يكن يعرفها فهو على الأقل يخمنها، فلمَ لا نضرب تخميناته وشكوكه، لمَ نتعامل معه بوضوح وصراحة، إنما الحرب خدعة، وغدًا سيذهب الروس للدفاع عن مدينتهم العملاقة، ليس لنا مأرب الآن فى كابول، إنها كسرطان البحر، حتى نصل إلى رأسه فعلينا أن نجتز أطرافه، حتى إذا كبسناها تكون قد تهاوت على عروشها، فيتركها أصحابها غير آسفين. أدرت الفكرة فى رأسى ووجدت لها وجاهتها، فالروس يحشدون الآن قواتهم نحو كابول، ونحن نسعى فى الطريق الذى يرسمونه، ولا بد أن لهم عيونهم التى يعرفها الصبَّاح ولا نعرفها، فماذا لو أكدنا لهم أننا فى الطريق الذى يهيئونه، هم ينسحبون ونحن نبحر خلفهم، وفى الوقت نفسه نفاجئهم على غير ما يتوقعون، فنكبدهم خسائر ليست الأفدح لكنها مهمة لوجودنا. ابتسمت بدورى واستدرت نحو أبى سعيد ومجد، بدا لى أن الاثنين ما زالت تدور فى ذهنيهما الفكرة، وأنهما يقلبانها على وجوهها العديدة. يمكننى القول إننى فى تلك اللحظة خشيت من توصل أى منهما إلى ما يفسد على الرجل طمأنينة صدره،

نظرت إليه فوجدته يقبع أمامنا كأرنب مستأنس، ندت عن ثغرى ابتسامة فبرقت سعادة ما فى عينه، خشيت أن يأخذه الغرور ويتيه على صديقيه، ولهما ما لهما من الفضل، فعدت إلى الوجوم من جديد قائلا: لقد أخطأت. وقبل أن أستطرد ناديت الغريمين القابعين فى الزاوية، وجلسنا فى حلقة حول راكية نار مشتعلة. قلت لصهيب أعد لنا القهوة، فبدا عليه أنه قد أوقع صاحبه فى سوء عمله، قلت لأبى عبيدة هل سمعت ما قال أخوك الصباح، قال سمعت، قلت فما رأيك؟ ساد الصمت واحتار الرجل فى الحديث، فأدرت وجهى عنه ونظرت لصاحبى، قال مجد لست أعلم. وقال أبو سعيد هناك صواب وهناك خطأ، هناك جرأة ولؤم وهناك كوارث قد يجلبها الأمر. ناديت صهيبًا ورحت أعبث فى أزرار الحاسب، جاءتنى خريطة مفصلة لأفغانستان، أخذت أكبرها حتى ظهرت جاجي، حركت الخريطة وقلت نحن هنا. حركتها لليمين فظهرت كابول كسرطان بحرى يتربع على هضبة محصنة بالجبال، يدخل فيها وتدخل فيه، قلت: من الصعب اختراق مكان كهذا وحوله كل هذه الأماكن والتجمعات، وبه ما به من معدات وذخيرة، والروس يعلمون ذلك، ولو فقدوها فقدوا نصف البلاد، ومن الصعب أيضًا أن نترك ظهورنا عارية لقواتهم هنا. وحركت الخريطة نحو اليسار فظهرت خوست وكالات وخلفهما المدينة الحصينة قندهار، قلت: لا يمكن لفارس مغوار أن يفعل كل هذا، ولو كان خالد بن الوليد

حتى لمر بجيشه ليحصن هذه المدن قبل أن يدخل على المملكة المتوجة.

كان الجميع يطأطئ رأسه بالإيجاب، فلما وضع صهيب القهوة قلت: لكن الصباح أخطأ. ورنوت بعينى فوجدته ازداد انتباهًا لم أشهده منذ ناديته وأبا عبيدة، قلت أتعرف فيم أخطأ يا صهيب؟ ترك الرجل ما بيده قائلا: فيما أخطأ؟ قلت أخطأ حين تعامل على أنه الأمير هنا، وأخطأتما حين تعاملتما على أنكما الأميران عليه، ولو كان فيهما آلهة غير الله لذهب كل إله بما صنع، أليس كذلك يا أبا عبيدة؟ نظرت إلى الجرم الجاثم أمامنا فوجدته قد وضع رأسه فى الأرض قائلا: كذلك يا أبا عبد الرحمن. فدرت نحو الغريمين فوضعا رأسيهما فى الأرض، ويبدو أن الوقت كان قد أصبح مهيأً لتدخل رفيقى، فقال أبو سعيد: كلٌّ اجتهد وكلٌّ أصاب وكلٌّ أخطأ. قلت: لكن الأمر شورى، وليس لرجل أن يقطع برأى دون علم الآخرين، وليس لهذا المجلس أن ينفضَّ دون تكدير للجميع.



(٣٦)

خريف ١٩٨٨

لم نكن وحدنا الذين يسابقون الأحداث، فالآخرون يسابقونها أكثر منا، ليس على قادة الحرب فقط ولكن الدب الأبيض والأفغان أيضًا، فقد اتهم الروس خادمهم بابرييل كارجيل بأنه أعجز من ذبابة عن فهم ما يجرى، وأنه لا يمتلك من الكياسة ولا الشجاعة ما يجعله يتصرف بحنكة أمام ضراوة المجاهدين. هكذا ألقوا بالتهمة كاملة على كاهله، فثار بدوره فى وجوههم إن الفساد الذى تعيشه روسيا هو السبب. ونقل عنه حديث قال فيه إن حماقة جورباتشوف وعدم فهمه لمن معه ومن ضده هى التى ستودى بالاتحاد السوفيتى إلى النهاية التى يبحث عنها الغرب.. وإن سياسته الجوفاء لا تزيد عن خيانة للتاريخ الشيوعى كله.. وإن ستالين لو كان

حيًا ما وسعه إلا أن أطلق النار عليه فى الميدان الأحمر. حين نقل الوشاة هذا الحديث إلى أعضاء الكرملين ثار جورباتشوف وسب كارجيل فى اجتماع الحزب: إن ابن الداعرة لو لم ينتبه لحجمه وعمله لأطلقن عليه الرصاص بنفسي. ولأنه لا شيء يختبئ فى إناء ينضح بما فيه؛ فقد نُقَل الحديث بزيادات وتصاريف إلى كارجيل، مما أشعره بالمهانة من كل جانب، فبحث عما يمكنه عمله لوضع موسكو والرجل ذى الخارطة السوداء على وجهه فى موقف حرج، فلم يجد غير تقديم استقالته، وبقيت أفغانستان دون حاكم حتى جاءها رئيس جهاز شرطتها السرية السابق نجيب الله على دبابة من موسكو، هذا الرجل الذى أثنى عليه الحزب الشيوعى الروسى، ووجده الأقدر على تحقيق ما يريده فى أفغانستان، وبدوره لم يتوان نجيب الله فى إرسال معاونيه إلى شتى جبهات القتال، قال لا بد من وقف إطلاق النار والتعاون معًا لإخراج الروس من البلاد، لم يشك أحد فى ولائه لروسيا، وأن الأمر لا يزيد عن كونه تهدئة وكسبًا للوقت حتى يرتبوا جبهتهم بعد أن فقدوا "ميمنة" و"مزار شريف" على يد مجاهدى الشمال، هؤلاء الذين أصبحوا أكثر شراسة فى الحرب، وردوا على رسل نجيب الله بتوجيه قواتهم نحو هرات، فأفقدوا الروس صوابهم.

من جانبنا أبدينا ارتياحًا لفكر القيادة الأفغانية الجديدة، وأرسلنا أبا سعيد ليظهر ميلا نحو وقف الحرب التى أكلت

الجميع. أغضب ذلك الأفغان الذين قالوا له: جاء وقت البيع فأفرخى وبيضى يا نعامة. وعلم نجيب الله بما حدث فأرسل من يدعو أبا سعيد للقائه، كانت هذه لحظات زحفنا السرى نحو الجنوب، حيث تتربع بالقرب من الحدود الباكستانية خوست وكالالات، وبدا لنا أن بإمكاننا أن نأكل القضمتين مرة واحدة، فقسمنا الرجال على هيئة جيشين، أحدهما يقوده صهيب والآخر يقوده أبو عبيدة، أما الصبَّاح فكان صاحب فكرة الميل بالحديث نحو وضع الحرب أوزارها، شعرت كم غضب منه أبو سعيد حين عنفه المجاهدون ووصفوه بالنعامة، كان كلما أعاد علينا الحديث لم نتمالك أنفسنا من الضحك، وحين مثل صهيب شكل النعامة وهى تحفر بأقدامها لتضع رأسها فى الرمل شعرت أن الرجل سيبكى حنقًا، نهرت صهيبًا وصرفته والصبَّاح عن مجلسنا، هدأت من خاطره وقلت علينا إتمام ما بدأنا فيه، ندت عن ثغره ابتسامة سرعان ما لملمها، فتذكرت مشهد النعامة الذى مثله صهيب ولم أتمالك نفسى، حين عدت بنظرى تجاهه وجدته يضحك، وما لبث أن عاد الجميع على صوت ضحكنا ونحن نمسح بأطراف أثوابنا دموعًا لا نعرف مصدرها.

أما الروس فقد بدأوا يتعاملون معنا على أننا حلفاء سريون لهم، فأوقفنا غاراتنا على المواقع التى يتمركزون بها، وتركنا الحرب تأخذ طريقًا مغايرًا حيث ثوار الطاجيك على هضبة تخار وبدحشان، كانت انتفاضة قوية حاول الروس

إخمادها بكل ما لديهم من قوة، ومثلما كنا نغذُّ السير فى طريقنا نحو خوست وكالات كان الشماليون يغذُّون سيرهم لإسقاط هرات التى حاصروها فى الغرب، فدارت بينهم معارك قاسية لم يكن أمام الروس فيها إلا تهدئة الأوضاع على واحدة من الجبهات الملتهبة، وكنا نحن بفضل الله ثم أبى سعيد المرشحين لذلك.

حشدنا المجاهدين للتربص بالقرب من كالات، وفتحنا خط إمداد لتخزين السلاح هناك، وكانت المفاجأة الأكبر هى شحنة الصواريخ المضادة للدبابات التى وصلتنا عبر إيران، كتمنا الفرح فى صدورنا ورحنا نخدر الدب الروسى بالمباحثات التى لم تتوقف إلا بالقصف المباغت على خوست التى حوصرت من كل جانب. كان الضرب عنيفًا ومستفزًا وخارجًا عن كل السياقات المعهودة بيننا، لم يكن أمامهم سوى الرد بالمثل دون علم بما وقع فى أيدينا من سلاح، ولم يكن هناك ظهير لخوست سوى كابول من الشمال وكالات من الجنوب، فراحوا يلهثون بعجلة مفاجئة من كالات نحو خوست، وكانت هذه فرصة أبى عبيدة ليصطاد كالات بالراجمات، سقطت أكثر من خمسين طائرة ودبابة فى معركة فوجئ الروس أنهم دخلوها على غير استعداد، وراحوا ينسحبون من هذه مرة للدفاع عن الثانية والعكس، ثلاثة أيام من الضرب والشراسة التى هلل لها مجاهدو الشمال، ولم يعد أمام الروس سوى الهروب كحل وقائى، فقد عجز

الطيران عن تغطية جنوده مثلما عجزت الدبابات عن فسحتها المعتادة بين الممرات، ولم يسعها سوى التقهقر من شرك لتسقط فى شرك جديد. أستطيع القول إن الخديعة التى نسجها الصبَّاح وأحاكها أبو سعيد جعلت المفاجأة أكثر وطأة، بينما السباق الذى اشتعل بين رجال صهيب وأبى عبيدة على الدخول قبل الآخر أحدث الزلزلة التى تمنينا أن نرى الروس فيها، فرحنا نشهد دباباتهم تفر من أمامنا كجرذان جبلية، بينما طيرانهم العنيد الذى طالما كنا نختبئ بمجرد سماع أزيزه كان يتهاوى على الأرض كطير مسموم. كل ذلك وضَعنا فجأة على طريق قندهار الذى لم نتوقع أن يكون مفتوحًا بهذه السهولة.



(٣٧)

كان وجه أبى سعيد مشرقًا وبه بهاء عجيب، كانت ملامحه ممتلئة بالرضا وثغره يخرج منه نور، بينما عيناه المشتعلتان بالفرح كقذيفة فى عتمة الليل كانتا تتنقلان من اليمين إلى اليسار ومن البعيد إلى القريب وأنا أنظر إليه، كان حييًا كعثمان وجميلا كمصعب ومطمئنًا كسعيد بن جبير، لم يشأ أن يلتقى بؤبؤ عينيه بعينى كى لا أشعر بالحرج، فتوقف عن الكلام واستدار نحو الشمس التى توقفت على جبهته، زاده المشهد بهاء على بهائه فاستدرت لأرقبه بشكل أفضل، ندت عنه ابتسامة خجل: لمَ تنظر إلى هكذا؟ كانت عينه مسبلة إلى الأرض كفتاة وهو يسأل، نظرت إلى وجهه من جديد وقلت: أليس النظر إلى وجهكم عبادة آل البيت. شعرت أن هزة ما اجتاحت الرجل من الأعماق وظلت تطفو حتى أحدثت رعشة شملت أعضاءه، لا أنكر أننى بوغت بما حدث للرجل

لكنه تمالك نفسه حتى نزلت السكينة عليه، مرت دقائق وكل منا سادر فى صمته، أخيرًا التفتَ نحوى: من أخبرك؟ كنت قد علمت من مجد آن هذا سر لا يجب الحديث عنه إلا إذا باح هو به، كتمت الأمر سنوات طويلة ورجوت الله أن يخبرنى بنفسه، لكننى فى اليوم لم أستطع أن أمنع نفسى من النظر إليه كما أحب، ربما أطلت النظر أكثر مما ينبغى، وربما كانت الأحداث الطويلة التى مرت هى التى شغلتنى عنه، لكننى أستطيع القول إن وجهه فى ذلك الصباح كان بهيًا أكثر مما اعتدت، فرحت أتأمله بلذة وفرح، ولا أدرى لمَ قلت ما قلت، ربما كانت رغبة فى أن أفصح عن السر الذى جمعنا كل هذه السنوات دون اتفاق معلن، وربما لأنى شعرت بالغيرة من مجد إذ خصه بهذا الأمر دونى، كثيرًا ما أزحت هذه الفكرة جانبًا وقلت لنفسى إن أبا يسار هو الذى أخبر مجدًا به، لكن شعورًا ما ظل ضاغطًا على نفسى بأنه اختار مجدًا لشيء لم يخترنى له، وائتمنه على شيء لم يأتمنى عليه، ولما لم يكن أمامى غير أن أجيب عن سؤاله قلت: مجد. دار الرجل بوجهه بعيدًا: كنت أعرف. قالها كمن يعترف، فانتظرت أن يسترسل فى حديثه لكنه لم يفعل، فقط أخرج مسبحة فضية من سرواله وراح يتمتم على حباتها، شعرت أننى اقترفت ذنبًا وما عاد الرجل يود الحديث معى، تبعته كخادم ذليل وهو يجر الخطى على الحصى والرمل، الصمت وحده هو الذى كان يطن على رأسينا، ولا تقطعه سوى صرخات النسور

والصقور، ظللت مشتملاً بحزنى حتى فرغ الرجل مما هو فيه، فوضع المسبحة فى مكانها ونظر إلىَّ فرأيت وجهه مشوبًا بالحمرة والبكاء: مرت أعوامى عبثًا ولم أصنع شيئًا، بدأت من القدس ثم مصر فلندن، وجبت العالم من أدناه إلى أقصاه، وها أنا أنتظر نحبى على صخور لا أعرفها دون أن أفعل شيئًا، سنوات طويلة وأنا أحوم كنسر كلما سعى للوصول إلى بيته كان البيت يبتعد ومعالمه تتشابه مع غيره. كان الرجل يتحدث وكأنه يستخرج جمرًا من جوفه، شعرت أن غصته كبيرة وأن بهاءه تضاءل. قال: عبرت الخامسة والستين، وصرت شيخًا عجوزًا، حملت السلاح والقلم ودرت سفيرًا لجماعة منبوذة، فلا أخرجت اليهود من بلادى ولا انتقمت من الإنجليز لأبى ونفسى، ولا رفعت راية الإسلام على بقعة واحدة من الأرض، قتيل من سلالة كتب عليها الزمان الشقاءَ والقتل، كأنما خلق ابن الإنسان ليشقى ويقتل، وأنا الآن أشعر أن شقائى اكتمل، ولم يبق سوى رشفة الخل.

وجدتنى أتابع الرجل فى هذيانه، وأنساق إلى الغرفة المعتمة التى أدخلت نفسى إليها، لكننى نفضت كل ذلك قائلا: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا". فتهلل وجهه من جديد: أتظننى خائفًا من الموت؟ كلا والله، لكننى مشفق على هذه الأرض وما سيجرى عليها، مشفق عليك قبل الجميع، وما كنت أظنك خلقت لهذا، رحم الله أباك كان أكثر تأملا منك، لم ينزل البحر، فما الذى

جعلك ترمى بنفسك فيه؟ تسرب إلىَّ حزن الرجل وقلقه، فرحت أفكر فيما آلت بى الأيام إليه، من لاهٍ عابث إلى مجاهد يقود آلافًا لمصير لا يعلمه إلا الله. لكنه قطع على شرودى: أتعرف عيسى بن زيد؟ أنا من سلالة هذا الرجل الذى عاش مطارَدًا من بنى العباس، ولم يرد أن يثلج قلبهم بظهوره، أنا من سلالة من دعا الله أن يأخذ ابنته كى لا تتزوج ممن هو أقل منها قدرًا، أنا من كتب عليه وعلى آله هذا المصير، وليس أمامى سوى أن أورثه لك. فزعت مما قاله الرجل، وشعرت أننى أصبحت مطاردًا بمصير لا أحتمله، فنظرت إليه كمن أورطنى فى الجحيم، لكنه قال: سامحنى يا بنى، فكم حاولت وبهاء الدين إبعادك، لكنك كنت كالشهاب المنفلت من مساره إلى القدر المكتوب عليه، سامحنى يا صاحبى لأننى الذى أدخلك هذه المغارة، فأنت الطريد المطارد، أنت عيسى بن زيد، وشارب دم الحجامة، فويل لك من الناس، وويل للناس منك.

شعرت أن الرجل يهذى، وأن حزنه المتراكم كل هذه السنين طغى عليه فجأة، ولم أستطع منع نفسى من الخوف قائلا: لمَ تخبرنى بذلك الآن؟ فأجابني: لأن العلامات ظهرت، أكاد أبصرها كما تبصرنى، فالروس خارجون غدًا أو بعد غد، وتعميدك اكتمل، وعلىٌّ ولِد، وأمه تركته فى حجرى، ولن تمر أيام فاطمة بعد أبيها حتى ألحق بها، وليس أمامى إلا أن أتركه أمانة فى عنقك، فهل تقبله يا أبا عبد الرحمن؟ باغتنى

بسؤاله، فتذكرت طفله الذى هنأناه عليه منذ شهور، طفله الذى انتظره كل هذه السنوات، وتزوج من أجله زيجات عدة، فلما جاءه وجدناه حزينًا كجاهلى بُشِّر بأنثى، ولم نلبث يومًا أو بعض يوم حتى قيل إن أمه ماتت، فرأيناه فرحًا كأعرابى وجد ناقته من جديد فى الصحراء، قلنا إنه يهرِّب نفسه من الحزن، وقلنا إن الله أنزل السكينة على قلبه فأحال حزنه فرحًا، لكن مجدًا ظل واجمًا كأن زوجته التى ماتت، ولم نكن فى فسحة من الوقت لتدبر أمرهما، كان الترقب والحذر يسودان ونحن نعدّ للهجوم على خوست وكالات، فتركناهما للحزن والفرح ورحنا ننتبه لما علينا إتمامه، وكان للنصر فرحته التى طغت على كل شيء، ولولا أن نور وجهه جذبنى هذا الصباح إليه ما توقفت ليسقطنى فى بئر حزنه. خففت على نفسى بأن الرجل يهذى، فمن أين له بمعرفة الغيب، وما علاقتى بعيسى بن زيد؟ وما العلامات التى ظهرت ونحن نزحف إلى قندهار؟ ومجاهدو الشمال يدكون هرات بمدافعهم، والروس يردون بكل ما لديهم من قوة، لا بد أن الرجل مس عقله شيء بفقده أم على، ولا بد أنه مصاب بالحمى. كدت أمد يدى لأضعها على جبينه لكنه فاجأنى من جديد: هل تقبل عليًا فى معيتك؟ فلم أجد أمام العينين المتوسلتين غير أن قلت نعم، فجلس على الأرض رافعًا يديه إلى السماء: اللهم إنى أخلع ما فى عنقى لعنق هذا الرجل. ثم خر على الأرض يهيل الرمل على وجهه وجسده، حين انتهى

من طقسه الذى لا أعرفه انتصب قائلا: كم أنت قاس على نفسك، رحيم على غيرك، فتحمل ما استطعت لأنه جواز مرورك بين آل البيت.

* * *

(٣٨)

الطـريق إلى قـنـدهـار ليس أقل صـعـوبـة من غيـره، لـكن الحماس أكبر، وارتباك الروس أكثر، وهذا يجعل الكفة فى صالحنا. هكذا قلت فى مجلس الحرب المنعقد بشكل شبه دائم، كان الجميع على قدم وساق، الكل يعبئ فرقه ورجاله، ومجد يمول الناس بالسلاح، بينما الصباح يجمع المعلومات عن كل شيء، جاءنا أن الروس غيروا قائد جيشهم فى الجنوب وجاءوا برجل عنيد يدعى إيفانوف، رجل يمكن وصفه بضمير مستريح بأنه مجرم حرب على أقل تقدير، له سوابق عديدة فى الإبادة الجماعية، يكفى أنه قضى على ثورة الشيشان بمئات الأطنان من المتفجرات على رءوس الثوار، سحق بدباباته الأطفال والصبية والنساء والشيوخ، كان ينزل من مركبته ليخوض فى الدماء بحذائه قائلا: ها نحن نجوس فى دمائكم فهل من مزيد؟ بالطبع لم تكن تجيبه سوى طلعات

الطيران الروسى التى كانت تتعامل مع الناس على أنهم ذباب، يرشونهم بغازات وقنابل غريبة، وكأن الدب الروسى لم يعد قادرًا على حاملى السلاح فراح يصب جام غضبه على الأطفال والنساء والعجائز حبيسى البيوت، ليثبت أصحاب النياشين لأنفسهم أنهم ما زالوا قادرين على سفك الدماء، ويبدو أن جورباتشوف قد خرج عن حلمه وصار أكثر عنفًا من ستالين، لكن العنف هذه المرة موجه نحو المسلمين فقط. "سنريه كيف يعتدى على الإسلام ويهزأ بآيات الله" هكذا قال أبو عبيدة ردًا على ما جاء به الصبَّاح من أخبار، فعقدنا العزم على أن نخطف منهم قندهار قبل أن يفيقوا من خوست وكالات، وقبل أن يستوعب إيفانوف ما يجرى على الأرض.

فى هذه المرة لم نذهب إلى قندهار مباشرة، كل ما صنعناه كان الخروج من أفغانستان إلى إيران، فحولنا توجهنا نحو الجنوب الشرقى أكثر، ومررنا من الحدود لنسكن فى تكتلات متفرقة، كانت عربات الأسلحة تجىء على هيئة معونة تحمل علم الأمم المتحدة، وما تلبث أن تفرغ الشاحنات ما بها فى الطريق، ليقوم الرجال بحمله على عربات تجرها البغال والحمير إلى المواقع التى اتخذناها، ظل العمل أكثر من شهرين فى الظلمة والعتمة، لم نكن نحرك ساكنًا من قبل كالات، ولم نكن نعلن أكثر من أننا فرحون بما حققنا وعلينا الحفاظ عليه، كانت طائرات الروس تشن هجماتها بشكل عشوائى فى البدء، وما لبثت أن أصبحت تجىء فى مواعيد

ثابتة كالرابعة والنصف صباحًا، والثالثة ظهرًا، وأحيانًا بعد الغروب، صرنا نعرف مواعيدها بالغريزة فضلا عن رادار أصلحناه فى خوست وعدد من أجهزة الاستطلاع التى أمدنا بها الإيرانيون، ووسط كل هذه الغارات كنا نتحول من بيشاور إلى إيران ثم جنوب قندهار، نزحف فى الليل كأسراب نمل على بطون الجبال لندشن السلاح. "إيفانوف يستعمل الطائرات أكثر من البشر، وغضبه سيكون بحجم كرة النار التى ستتفجر فى وجه الجميع، وعلينا أن نخلص الجنوب من قبضتهم". هكذا قلت معربًا عن رغبتى فى تحميس الرجال، قال الصبَّاح إن الروس استوعبوا الدرس، وإذا ذهبنا إلى الشمال فسوف يتوقعون ذهابنا إلى الجنوب، هذه المرة علينا أن نتعامل على أننا أغبياء، فنذهب مباشرة نحو الجنوب. للفكرة وجاهتها لكننا لا نريد المغامرة، هكذا قال صهيب، نريد أن نعلن أننا متجهون نحو قندهار بأعداد قليلة، سيتوقعون من قلتها أننا نعد لعمل كبير فى الشمال، ربما هو كابول بالطبع. اتفقنا على أن يذهب أبو عبيدة برجاله من بيشاور إلى قندهار، وأن يعبر صهيب الحدود الإيرانية إليها، بينما أنا ومجد وأبو سعيد سنتخذ الطريق الرسمى المباشر، رفض الصباح قائلا إن هذه المغامرة غير مأمونة، فرغم ما بها من جسارة ومخادعة لكنها علنية وظاهرة. قلت له أن يجهز ملابس رجال وسيدات من البشتون، وأن يجهز أكبر قدر من فرو الغنم والعربات التى تجرها البغال. كنت أعرف

أن الفكرة تقليدية تمامًا، لكن منذ متى ونحن لا نستخدم كل ما هو تقليدى هنا. أعجب أبو سعيد بالفكرة وراح يمشى وراء الرجال الذين وضعوا الفراء على أجسادهم كأغنام تسعى فى السهول، بينما ركبت على عربة يجرها حمار وخلفى أقفاص وأجولة تبن تغطى السلاح والرجال، كنا ندرك أننا نعبر من مناطق البشتون، وأن الروس يسيطرون على بعض الممرات، لذا رحنا نخترع طرقًا مخالفة، حريصين على أن نكمن وقت استيقاظهم لنمر بهدوء فى غفلتهم، كان لنا أعوان وعيون بالقرب منهم، وكان الصباح قد جهز على مقربة من كل موقع عددًا من الرجال لمشاغلتهم إذا انتبهوا إلى عبورنا، اتخذت الرحلة خمسة أيام بين السير والكمون، لم تحدث مفاجآت كبيرة، فقط تعجب الروس من كثرة النساء المتشحات بالسواد فى عز الظهيرة، مرة نزل أحد الضباط من موقعه ليشاكس امرأة انفردت بنفسها لتبول، حين انتهت من عملها سمعت صوتًا يرطن بلسان لا تفهمه، رنت بعينها من أسفل الخمار فرأته وحيدًا، قامت تلملم نفسها وقبضة من الرمل، ظلت تتأخر وتتأخر حتى اقترب منها، كان فرحًا ببندقيته التى مد خنجرها نحو ظهرها، أبدت التدلل فطمع فيها حتى شعرت أن اللهجة ليست حادة ولا حازمة، فاستدارت وألقت بالرمل فى عينيه، لم يكد يصيح حتى انحنت على حجر وقذفته به فسقط فاقدًا للوعى، حين أخبرنا الرجل بما فعله شعرنا أن هذا الحدث سيجر علينا الكثير، جعلنا اعتمادنا على الله

وطلبت من الجميع أن يتمسك بالصبر وطول النفس، نزل ضابط وخمسة جنود يهرولون خلف العربة التى يجرها الحمار وأوقفونا، كنا عشرات من النسوة ورجل بشتونى وآخر يقود الحمار، أمرت النسوة بالبكاء والعويل والصراخ فى وجهه وحمل التراب على رءوسهن، بينما رحت أجر الحمار بالبشتونى الذى يرتدى عمامة كبيرة وصدرية على قميص وسروال من قماش فاخر، كان الرجل مسنًا وبدا أنه سيد الجماعة، لم تكن اللغة المشتركة بين الجنود وبيننا كثيرة، لأنهم لا يعرفون العربية، ونحن لا نعرف الروسية ولا البشتونية، لكننا كنا نرطن بما يفيد أن كبيرًا لنا مات وعلينا الوصول قبل أن تفوتنا الجنازة، رطن الضابط مع البشتونى قليلا فانهال البشتونى ضربًا على المرأة التى أشار إليها وأغرق رأس الضابط بالقبلات، وسرعان ما بصق الأخير على الأرض وأشار بمقدمة بندقيته للموكب بما يفيد استكمال السير. حين وصلنا بالقرب من قندهار وجدنا الذين سبقونا إليها يقيمون فى كهوف متفرقة، ووجدنا الذخيرة قد خزنت بشكل طيب.

كان أبو سعيد قد نسى حزنه وأصبح طائرًا خفيف الظل، يمكننى القول أيضًا بعد كل هذه السنوات إنه كان أكثرنا حماسة للقاء الروس، أكثرنا همة وقوة، لا يكل من التعب ولا يضجر من العمل، حين تجمع الرجال فى جيوب جبلية حول قندهار أخذنا نترصد يومًا لبدء المعركة، كنا نرغب أن تكون

المبادرة لنا حتى نستثمر وقع المفاجأة، أربكنا الطقس شديد البرودة كما أربكنا النشاط الزائد لإيفانوف الذى زار قندهار ثلاث مرات متتالية، توقعنا أن يكون أمرنا قد اكتشف، لكن إمدادات جديدة لم تعقب أيًّا من زياراته، يبدو أن الروس يتوقعون عملا ما فى مكان آخر، هكذا كنا نخمن، لكنهم فاجأونا بغارات مكثفة على جاجى هذه المرة، واستبسل رجالنا هناك فى صد عبور سرب من الدبابات إليها، بدا لنا أن الرجل يهوى المباغتة مثلنا، تأكد أيضًا أننا إن لم نحصل على قندهار فسوف يضيع منا كل شيء، فأجمعنا أمرنا على أن نباغتهم ليلا. دارت أسراب الأغنام فى الظلمة حول المدينة، وراح المستطلعون يدلون بما لديهم من أخبار، جاءنا أن الروس خففوا قبضتهم عن جاجى لأنهم اكتشفوا أن عددًا من قوات الشمال فى طريقها إلى كابول، رأينا الوقت مناسبًا فضربنا بكل ما نملك من قوة. كان تركيزنا فى البدء على إفقادهم السيطرة على الأمر، فدخلنا المدينة وأطلقنا النيران على كل شيء، ما عادوا يعرفون من أين تنهال عليهم القذائف، علمتنا الحروب أن مولدات الكهرباء هى العصب الرئيس، حين يصبحون مثلنا فنحن الذين نتفوق، لأننا تعودنا على الظلمة والرغبة فى الموت، دمرنا أجهزة الردار وأشعلنا النيران فى مبيتات الجنود وسطونا على مخزن أسلحة فى جنوب البلدة، كلانا الآن يضرب فى الداخل، كلانا متعانقان وليس أمامهم سوى أن يضربوا أنفسهم كى يضربونا، كان أبو

سعيد يكمن ثم يكر كشبيب وهو يردد: أسد عليَّ وفى الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر. رأيته يطارد الطائرات بآر بى جى، رأيته يصيح فيها: تعالوا إلى موعد بينى وبينكم. أصبنا عددًا من المجنزرات ونصبنا العديد من الكمائن ولم تمر أيام معدودة حتى سقطت المدينة، رأينا العربات تهرول على الرمل والقادة يولون الأدبار والجند لا يعرفون أين يلقون بأنفسهم، كنت أشعر أنهم لا يقاتلون لكنهم ينتحرون فيخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين.

كنا نعرف أن إيفانوف لن يستسلم بهذه السهولة، فكان علينا أن نستقبله فى طريقه لتدمير قندهار على من فيها، تركنا بها صهيبًا ورجاله ورحنا نكمن على رءوس الجبال، نصبنا الفخاخ بحيث نجبرهم على المرور من المواقع القريبة منا، اعتليت وأبو سعيد قمة هضبة تطل على الموقع وأمرت الرجال بالتضييق على المجنزرات، نجحنا بالفعل فى ردهم، ولم يبق إلا الطيران الذى يقصف بعنف مذهل، كنا نختبئ ثم نخرج فجأة كأسود جائعة فتتحول السماء إلى قذائف تصطدم بقذائف، سقط منا الكثير وأسقطنا منهم الكثير، ولم يكن أمامنا سوى الصمود كى لا يضيع كل شيء، فجأة هدأت الغارات وانسحب المجنزرات بعيدًا، وهتف بى أبو سعيد: "الصلاة يا أبا عبد الرحمن"، لم أكن واثقًا من أن هذه التقهقر صحيح، ولا بد أن الروس سيغيرون من جديد، لكن الرجل قال:

- مرحى يا أبا عبد الرحمن، أو لا تريد الجنة؟

- أريدها لكن .. هل نهرب من قدر الله؟

- نعم .. نهرب من قدر الله إلى الله.

فقمت وكبرت وأمَّنى للصلاة، كان صوته يتردد كترنيمة مبهرة شغلتنى عما يدور حولنا، فقد عاد الروس واختبأ رجالنا فى جحورهم، كانت القذائف تنهال على مقربة منا، بينما المجنزرات تسعى كجراد غطى الأرض، لكن الرجل ظل مطمئنًا منعزلا عما يدور حوله، سورة الأنفال بكمالها يا أبا سعيد؟! كان يرتل وكأنه يتحدث إلى ملائكة أو قوم آخرين. حين انتهى كان الطقس قد تغير، فغامت السماء وجاءت بريح شديدة وغبار كثيف، استدار وشد على يدى طويلا ثم قبض على سلاحه وصعد الجبل: تعالوا إلى ميعاد بينى وبينكم. كانت قذيفته تنطلق فلا تخطئ هدفها، حين رأى الرجال ذلك خرجوا خلفه من جحورهم غير مبالين، كان الغضب من كلا الطرفين شديدًا، الروس لا يريدون العودة خاسرين، ونحن لا نريد التزحزح، أخيرًا هطلت الأمطار بشدة، وانزلقت أرجل الرجال عن الصخر، لكن الطائرات أيضًا ترنحت، والمجنزرات لم تعد تعرف طريقها، خرج الجميع يضرب فى كل اتجاه، رأيت الطائرات تتناثر فى الهواء ثم تهوى إلى الجحيم، وأبو سعيد يصرخ: تعالوا إلى ميعاد بينى وبينكم. وكلما رأى الرجال شيخهم واقفًا كملاك يستدعى أعوانه على قمة

الجبل كانوا يقبضون على الموت بأيديهم ويلقون به فى وجه الروس، حتى صار اللهب أكثر مما توقعنا، وخسر الروس أكثر مما تمنينا، وانسحب إيفانوف إلى غير رجعة، لكن أبا سعيد لم يُعثر له على أثر، بحثنا عنه فى كل مكان، بحثنا عن رفاته أو أى من روائحه، فلم نجد غير بكائنا عليه، فعدنا إلى مواقعنا قائلين: ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

* * *

(٣٩)

لا مثيل لدخول السوفييت منذ عشر سنوات إلا خروجهم، فالجنود الذين تباهوا ببقائهم فى أفغانستان كل هذا الوقت اختفوا فجأة من الوجود، ولم يبق سوى حطام ما دمروه فى طريقهم، فقد دكوا كل شيء بعد أن سقطت كابول. لا أستطيع القول إنها كانت معركة فاصلة لأنها لم تحدث من الأصل، فبعدما سقطت مدن الشمال فى أيدى مقاتلى الأفغان، وسقطت مدن الجنوب فى أيدينا، توجه الجميع إلى العاصمة المثقلة بالعتاد والجنود، كان الكل يعلم أنها ستكون مذبحة، ولا مفر من دخولها، لأنه ليس هناك اكتمال للنصر دون الحصول على العاصمة، لذا احتشدنا جميعًا وبدأنا فى الزحف، كانت كل الهواجس تقول إن روسيا لن تترك شرف الإمبراطورية يسقط على الأرض، لكن جورباتشوف المشغول بالمصالحة بين الرأسمالية والشيوعية لم يكن ليهتم بشرف

أى شيء، كنا نعد أنفسنا للحاق بأبى سعيد كلما اقترينا من أسوار المدينة، لكن السوفييت فروا فى صباح مليء بالغيوم، فوجئ الجميع بالدبابات تهرول على الرمل تاركة خلفها رئيسًا أفغانيًا لا يحسن تدبير أمر، كان هذا الصباح أسعد ما شهدنا على جبال البلاد التى لا ترحم أحدًا، هللنا بتكبيرات النصر ورددت الجبال فى كل مكان هتافنا، وحين انتهينا من التهانى بالنصر المؤزر ووقفنا أمام السؤال الذى تهربنا من مواجهته طيلة أعوام النضال، ماذا بعد الحرب؟ وما مصير كل هذه الأسلحة والرجال الذين جاءوا من كل مكان؟ ماذا عن مصيرنا نحن؟ لم نكن نجيب عن ذلك، بل لم نكن نلتفت للسؤال ذاته ونحن نفر ونكر تحت القصف، لكننا بعد أن وضعت الحرب أوزارها لم يعد لنا سوى مواجهته.

كان نجيب الله شخصًا هشًا لا يحتمى سوى بترسانة أصدقائه الروس، فقد كان سكرتير الحزب الشيوعى الأفغانى السابق، ثم جاء من موسكو ليكون خلفًا لكارجيل الذى قدم استقالته فجأة، ولم يكن مطروحًا فى الحرب ولا بعدها سوى الخلاص من الروس، وكانت أغلب الجبهات التى خاضت الحرب أحزاب مدنية تحولت بحكم النضال إلى قوات عسكرية، كان أبرزها قلب الدين، ذلك الجنرال السابق فى عهد كارجيل، والذى اختلف مع نجيب الله وانضم إلى جبهة الإنقاذ ليكون آخر الداخلين إلى النضال، وبحكم خبراته العسكرية ومعلوماته شديدة الثراء عن الجيش

الـروسى اسـتـطـاع أن يـحـدث تـطـوراً كـبـيـراً فى الحـرب بالاستيلاء على مزار شريف وغيرها من مدن الشمال، وكان برهان الدين الرجل المستنير الذى دعا الجميع للتكاتف فى جبهة إنقاذ رأسها صبغة الله مجددى، أما عبد الرشيد دستم فقد كان رئيساً لفيلق العسكريين الذين رفضوا دخول السوفييت، وظل منذ ذلك الوقت قابضاً على بندقيته حتى انطوى الجميع تحت راية مجددى فى جبهة الإنقاذ، ولطول نضاله وخبرته بحرب المدن فقد أقر له الجميع بالفضل، أما الجماعات الأصغر فعلى رأسها حزب الاتحاد الإسلامى، وحركة الانقلاب الإسلامى، والحركة الإسلامية الشيعية، وجماعة عبد رب الرسول وغيرها، وهذه فى مجملها لا تجيد سوى الكلام، لكنها خرجت من الحرب كغيرها بعدد من المعدات والأسلحة وشرف الجهاد.

تدارست مع الصبّاح وصهيب هذه التفاصيل، ووصلنا فى النهاية إلى أن هذه البلاد على وشك حرب أهلية، فنجيب الله ذو ميول شيوعية، ولن ينسى أحد مجيئه من موسكو، ولا يخفى على أحد رغبة كل الأحزاب والجماعات فى حصد ثمار العيش فى الكهوف والمغارات، ولا يمكن التنبؤ بمن سيصل منهم إلى الحكم قبل الآخر، ولو حدث فلن يتركه الآخرون يهنأ دونهم، وهذا صراع طويل قد يأخذ وقتاً أطول مما أخذت الحرب مع الروس، تذكرت إمبراطورية الرجل المريض وكيف أجلت أوروبا تقسيمها حتى ظهر من ظن نفسه

اللاعب الأوحد، فلم يسمحوا له أن يأكل الكعكة التى تركوها تتحلل أمام أعينهم. قال صهيب: لا بد أن الأمر سيكون بهذه الطريقة. قال الصباح: لكننا لا نعرف من الذى سيعجل بدخول الجميع إلى الحلبة.

فى اليوم التالى التقيت مجد الدين وسألته عن أمره ووضعه، قلت: يمكننا أن نساعده كما يشاء إن أراد أن يكون الجالس على الكرسى بدلا من نجيب الله، لكنه رفض: لا يمكننى أن أكون آخر من أسلم وأول من ارتد. قال أيضًا إنه سيعود إلى مدرسة الطالبان ليمارس مهامه كرجل علم لا حرب. شعرت بمدى حزنه فنكست رأسى ورحت أمشط وجه الرمل بأصابعى، حين رفعت وجهى نحوه وجدته يضعنى أمام السؤال الذى هربت منه كل هذه الأعوام، لم أعرف بم أجيبه، فظللت أتذكر وجه أبى سعيد وهو يوصينى بعلى، ووجوه الرجال وقد خرجوا من بلادهم بطرق شرعية وغير شرعية، تذكرت جيش على وأن قواده من قتلة عثمان، وكيف لم يستطع المطالبة بدم عثمان، قلت يا لها من فتنة لا تفرح إلا أهل الشمال. ولم يكن مجد يرغب فى إجابة، فسكت ثم أمر رجاله أن يأمنوا طريق عودته، فودعته وعدت أمشط الرمل من جديد.

فى الصباح اتصلت ببهاء الدين فهنأنى على النصر قائلا إنه لا بد من عودتى، قال أيضًا: لم تعد هنا إمدادات ولا

أموال تجىء رغم إقرار الجميع بفضلكم فى النصر. تركته وعدت إلى الصباح، قال إنه لا يستطيع العودة، ولا يمكنه طرح ذلك على رجاله لأن أغلبهم بلا مصدر رزق فى بلاده، والسلطات التى سمحت بخروجهم لن تسمح بعودتهم وقد احترفوا فنون القتال. شعرت بالانكسار والحاجة لأبى سعيد، ولم يكن أمامى سوى الاتصال بمن ساعدناهم على عدوهم، فجميعهم يدينون لنا بالفضل، لكن الأيام دول، وكل يوم هو فى شأن. وكان الأمر كما توقعت، فقد استقبلنى قلب الدين استقبال الفاتحين، لكن طبيعته كعسكرى صارم جعلته يقول: الحرب انتهت، وأنتم ضيوفنا، لكن البلاد على أبواب خلاف كبير، ولا نود أن تتدخلوا فيه. لم يبتعد برهان الدين عن هذا كثيرًا، لكن حديثه كان ودودًا ويحمل الكثير من التخوف، وحده عبد رب الرسول الذى قالها صراحة: لقد انتهت الحرب، فما بقاؤكم إذًا؟! عدت كما يقولون بخفىّ حنين، ولم أجد من يرحب ببقائنا، وحسبما علمت من بهاء الدين أن آخرين خارج أفغانستان لا يرحبون ببقائنا، ولا يرحبون بعودتنا أيضًا، والكل يتساءل عن القرار الذى سنتخذه. "لم تبق إلا وجهة أخيرة"، هكذا قلت لنفسى وأنا أعبر الممرات بين جبال الشمال وجبال الجنوب.

فى الصباح اتخذت شاحنة متجهة إلى بيشاور، ومنها إلى إسلام آباد، الأمر واضح تمامًا، على قدر ما تدفع على قدر ما تأخذ. قلت لهم أريد رجالى كما هم فى معسكراتهم، لن

يتدخلوا فى شأن أحد، ولا يتدخل أحد فى شأنهم. قالوا والسلاح؟ قلت: بكل ما معهم وما يحتاجونه. قالوا لن تقدر على ذلك لوقت طويل، قلت لن نعدم من ينفق على رجال لا يريدهم أحد على أرضه.

(٤٠)

ألا عللانى قبل جيش أبى بكر لعل منايانا قريب ولا ندرى
ألا عللانى بالزجاج وكرروا علىَّ كميت اللون صافية تجرى
أظن خيول المسلمين وخالداً سيطرقكم قبل الصباح مع النسر

هكذا استقبلنى بهاء الدين فاتحًا ذراعيه فى مطار جدة، ضحكت من حماسته وهو يلقى الأبيات بفرح شديد، قلت: لقد أصبحت شاعرًا فى غيابي. ضحك كمن تلقى مكافأة: يا ليتها لى، لكنها لشيخ من سوى، أنشدها حين علم بتوجه خالد بجيشه من العراق إلى الشام، وأنه سيمر على قريتهم، فراح ينشدها من الخوف، لكننى كنت أنشدها فرحًا كلما سمعت بانتصاراتك، حتى نذرت لله أن أقف أمامك لأنشدها كما كان المتنبى ينشد سيف الدولة قصائد مديحه. ضحكت من نذره وأردت رد التحية بمثلها:

وكنا كندماني جذيمة حقبة **من الدهر حتى قيل لن يتصدعا**

فلما تفرقنا كأني ومالكًا **لطول اجتماع لم نبت ليلة معا**

فتغيرت ملامح الرجل كأنه قد أوشك على البكاء، قال أمتدحك وترثيني؟! أما علمت أن هذا ما قاله تميم فى رثاء أخيه مالك. شعرت أننى ارتكبت جريمة دون أن أدرى، فرحت أعتذر، لكننى كلما اجتهدت نظرت إلى ملامحه ففسد علىَّ اعتذارى، فى النهاية أعفانى من حرجي: يبدو أن الحرب جعلتك وقحًا. ضحكت وبدا أننى صرت وقحًا بالفعل، وأن سنوات الكهوف والجبال أفقدتنى دماثة القول وحسن اختيار الكلام، ولم ينقذنى من حزنى وشرودى سوى سؤاله: إلى أين تريدنا أن نذهب؟ تذكرت أنه ليس هناك سوى البيت أو المكتب، تذكرت أمى وزواجها فضاقت نفسي: أرسل الأولاد إلى البيت ودعنا نذهب إلى المكتب. همهم قليلا ثم أمر الرجال بما قلت، حين وصلنا تدفق الجميع مهنئين من كل حدب وصوب، كنت أتذكر بعضهم وأنسى بعضهم الآخر، لكننى طردت حزنى واحتضنتهم مبتسمًا شاكرًا. فى النهاية أعلن بهاء الدين عن مكافأة بمناسبة عودتى سالمًا، فهمت من حديثه أنه أمر لهم بمكافأة حين علم بانسحاب الروس وانتهاء الحرب، لم تكن الهواتف تكل من الاتصال والتهانى، وبهاء يشكر ويعتذر، بعد ساعة قال: لا يمكن أن نستقبل

الناس فى مكان العمل، ولا بد من العودة إلى البيت. قلت: جهز لى مكانًا غير الذى تقيم فيه أمى.

مكثت عدة أيام أستقبل زوارًا فى القصر الذى جمعت فيه زوجاتى الثلاث، جعلت لابنة خالى الكلمة العليا على الجميع، وجعلت لليمنية جناحًا يخصها، وللسورية التى تزوجتها فى بيشاور جناحًا آخر، ورحت أتهرب من لقاء بهاء الدين حتى شعر الرجل بالحرج، كان على قلبى حزن بحجم جبل أُحد، وكانت عاداتى قد تغيرت فى كل شيء، فصرت لا أنام، وإذا نمت فلا أرتاح إلا على فراش جاف فى غرفة بلا أثاث، وأهرب من أم عبد الله قدر ما أستطيع، حتى شعرت أننى رجل غير الذى فارقها. قالت: عمتى اتصلت كثيرًا ويجب الذهاب لملاقاتها. فنهرتها وتركتها وعبد الله يبكيان من الخوف، لم يكن أحد يدرى بما يجتاحنى من حزن، عدت على طائرة خاصة لأنام فى قصر بينما رجالى ينتظرون مصيرًا مجهولا فى كهوف جبال لا ترحم، كان حزنى وغضبى وحيرة أمرى فيما أوصلتهم بلا حد، وكانت غربتى عن القصر أكبر من أن تحلها الكلمات، كنت أتمنى لو آخذ عربتى وأنطلق لأصطدم بصخور جدة، أو ألقى نفسى فى حضن أمى وأبكى كما كنت أفعل قديمًا، لكن كبريائى كانت أكبر من أن تُهزم برغبة أو قرار، فظللت معتكفًا فى غرفة عارية من كل شيء حتى جاءنى الخادم: الشيخ بن باز فى الخارج. هرعت من فورى أستقبل وأرحب بالرجل كما ينبغى لعالم جليل مثله،

هنأنى على الانتصار قائلا: إنتم فخر الأمة وحماتها. لا أعلم لم رغبت أن يبقى الرجل أطول وقت. لكنه قال: لولا مسئولياتى لأمضيت النهار كله معك، لكن هذا ليس آخر ما بيننا. فهمت منه أنه يريدنى أن أحضر درسه فى الحرم المكى لأحدث الناس عن الجهاد وضرورته، شعرت أننى وجدت ضالتى، وأن هؤلاء المنعزلين فى الكهوف لن يعدموا من يناصرهم، صرخت فى الخادم أن يجهز الحمام، وفى آخر أن يحضر السيارة، وما إن رآنى بهاء الدين مقبلا عليه حتى احتضننى وهو يتلعثم بكلمات لم أعيها، فلما انتهى من ضمه وتقبيله قال:

فلما تفرقنا كأنى ومالكًا   لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

* * *

(٤١)

توجهت الطائرة بنا إلى باكستان، كان بهاء الدين يرغب فى رؤية الرجال وتهنئتهم بنفسه على النصر، حين وصلنا إلى معسكر القادسية وجدنا حالة من الغليان؛ فقد شعر الرجال أن الكل تخلى عنهم، كان صهيب كارهًا لفكرة الانتظار دون موقف واضح، فتباينت الآراء وازداد الشد والجذب، وبدا على بهاء الدين الضيق من ارتفاع أصواتهم، فخرجت خلفه وأنا أقول: "ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك"، فتعلل بظروفه الصحية وعدم القدرة على احتمال الصوت العالى فى سنه هذه. أخذت فى شرح كيف تعودنا أن يكون الأمر شورى، وكيف تعلمت منه أن أنصت حتى أتخذ أمرى عن بينة، قلت: قيادة رجال يحملون السلاح وسط صخور لا ترحم ليست كإدارة أناس لا هم لهم إلا المكافآت والمرتبات العالية. وكأنى ذكرته بوالدى فى شبابه فابتسم ودفعنى لأعود إليهم،

حين عدت وجدتهم كلوا من الخلاف والنقاش وأصبحوا راغبين فى الوصول إلى حل. قلت: لقد أبدينا أسوأ ما فينا أمام الرجل الذى حلم أن يرى ملائكة الله التى نصرت دينه ورفعت كلمته، هذا الرجل الذى ندين له جميعًا بالفضل جاء ليرى الله فى قلوبكم وأيديكم، لكنه رأى الفرقة والضغينة وحب الرياسة والتحزب، فهل هذا ما أردتم أن تستقبلوه به؟ رأيت الأسف قد علا الوجوه، وراحوا يعتذرون له ولبعضهم بعضًا. قلت: من منكم يريد أن يعود إلى بلاده؟ رأيتهم يؤخرون قدمًا ويقدمون الأخرى، فنحيت الكبار وسألت أكثر الأطراف تشددًا وهو أبو قتادة. قال إنه يرغب فى العودة إلى بلاده، فجبهة الإنقاذ على وشك عمل كبير وهو يريد أن يشاركهم فيه، وجدت للرجل منطقًا طيبًا فسألت الصبَّاح عن رأيه، قال إنه لا يرى ضرورة للعودة، ولو كانت الأحداث فى الجزائر تسمح بعودة أبى قتادة فإنها فى مصر لا تسمح به ولا بغيره، ولا يمكننا أن نجلس هكذا بلا هدف أيضًا. استدرت إلى صهيب فقال: أنا لا مع ولا ضد، لكننى أحتاج إلى معاقبة الذين يرفضوننا فى بلادنا، أحتاج أن أعاقبهم على كفرهم وفسادهم وتعطيلهم شريعة الله فى الأرض، ولا يمكننا أن نهزم الروس هنا ولا نحرر بلادنا من الناكثين والقاسطين. جلست أسأل وأنصت، وكلما سمعت ازددت يقينًا أن الرجال يحتاجون إلى عمل يستثمرون فيه طاقاتهم المهدرة على قمم الجبال. قلت ما كنا نحارب كل هذه الأعوام حتى

نضع سلاحنا ونعود أذلاء أرقاء فى الأرض، وما كان مشروعنا قتل رجل أو اثنين، أو مناصرة حليف أو شخص، ما خرجنا إلا إعلاءً لدين الله، وهذا لن يكون إلا بقيام دولة تطبق شرع الله وتحافظ على حدوده، لكن هذا الحلم الذى ورثناه عن شيوخنا وشيوخ شيوخنا لن يأتى بين يوم وليلة، ولا بد أن نوطن أنفسنا على أنهم لنا كارهون، ولن يستقبلونا على بساط من ذهب، وإذا أردنا للحلم أن يتحقق فلا يجب أن نتعجل، لأن كل البلاد ليست أفغانستان، وكل الجهاد ليس جهاد الكفرة الملاعين، فجهاد النفس أكبر، وجهاد المخطئ والمتعنت أشد، ولا بد أن نتدبر كل خطوة بعيدًا عن التعجل أو التكاسل، وغدًا سيذهب منكم أناس ويبقى أناس، وليس الباقى فى حلٍّ من مسئولية الذاهب، وليس الذاهب إلا أميرًا فى موقعه، راع لأناسه، يتدبر معاشهم وأمنهم، وليس للجماعة أن تختلف إلا لوجه الله، فاصبروا وقاتلوا، فما صبركم إلا بالله.

حين انتهيت شعرت أن الخزى كلل الجميع، فراحوا يعتذرون من جديد: ما تراه إن شاء الله إنا له فاعلون. قلت لهم لست وحدى، فأنتم معى، ومعنا آخرون، من على رأسهم ذلك الضيف الذى أغضبتموه. فتذكروا بهاء الدين وتسابقوا إلى مصالحته، ولم تمر دقائق حتى عادوا به محمولا على أعناقهم، رأيته يضحك وهم يدورون به مقبلين رأسه ويديه، خشيت على الرجل من كثرة السعال والضحك فصرفتهم

وجلسنا نحتسى شايًا أخضر. بعد أن صفت النفوس أومأت لبهاء الدين أن يتحدث فقال: العودة إلى البلاد أمر لا بد أن يحدث، لكن ما الذى ستفعله بنا حكومات متربصة، وجيوش لا تفعل إلا ما تؤمر به، وما الذى سنفعله نحن هناك إذا عدنا فرادى مسالمين، لا بد أننا سنجد مسقبلا طويلا فى السجون المظلمة، وربما يكون القتل نهاية الطريق، وليس من اليسير القول العين بالعين والسن بالسن، فنحن لسنا جيشًا يحارب جيشًا، ولا يمكن أن نشيع الفساد أو نكرس له، لذا علينا قبل كل شيء أن نعرف أعداءنا من أصدقائنا، وعلى أية أرض سنضع أقدامنا قبل أن نحركها من مكانها.

فى طريق العودة قال بهاء الدين: رجالك يتصارعون، فصهيب يزايد على الصبَّاح، وأبو قتادة يزايد على الجميع، ولا بد من حل قبل أن يخرج الرصاص من البنادق. خفَّفت من تخوفه ورحت أشرح له الصراع الذى ورثناه عن الجهاد والجماعة الإسلامية، ذكرته بلقائنا مع الشيخ الضرير والصبَّاح، وكيف كان كلاهما لا يطيق سماع شيء عن الآخر، وما صهيب إلا تلميذ الشيخ، وما الصباح إلا بقية من الجهاد، كلاهما جمع رجاله خلفه على هذه الصخور، وكلاهما يسابق الآخر لتكون له الكلمة العليا، وخبرة الصباح فى السياسة أوسع، بينما جرأة صهيب فى الحرب أكبر. بعد ساعات من النقاش طأطأ الرجل رأسه: لو لم تهاجمنى الشيخوخة لفعلت شيئًا من أجلك. سألته عما يعنيه، قال إن الأمر يحتاج لعدة

جولات لتنشيط العلاقة بجبهات الإخوان فى العالم، فما حققتموه من نصر رفع شأنكم لدى الجميع، ومؤخرًا اعتلت الحكم فى السودان جبهة الإنقاذ الإسلامية، والأخبار تقول إن التيارات الإسلامية فى الجزائر توحدت فى جبهة يقودها عباسى مدنى لإسقاط نظام الشاذلى بن جديد، ويمكننا أن نتفاعل مع هؤلاء وهؤلاء عبر قنوات الاقتصاد.

أصابنى حديث الرجل بالحماس والقلق، وشعرت أننا مقدمون على أمور لا نعرف إلى أين ستأخذنا الأحداث فيها، فمكثت أتابع أخبار العالم كخبير عسكرى. كانت مصر وسوريا والعراق على وشك توقيع اتفاقية دفاعٍ مشترك، وكان جورباتشوف يعانى من مشكلات خروجه من أفغانستان، ولم يكن أمامى سوى التفكير فيما قاله بن باز، فعقدت مؤتمرًا إعلاميًا تحدثت فيه عن دور العرب فى دحر السوفييت وتحرير أرض الإسلام، ذاكرًا عدة إحصائيات عن المجاهدين وجنسياتهم، والذين يسلمون فى العالم كل عام، وفى النهاية ألمحت إلى أن من نصروا الله وأعزوا الإسلام يحتاجون العون بشتى أشكاله. ويبدو أن ظهورى لأكبر قدر من الناس لاقى قبولا لم أتوقعه. قال بهاء الدين إن الهاتف لم يتوقف طيلة اليوم، وإننا فى حاجة لفتح حساب فى البنك لجمع الأموال المقدمة كدعم للمجاهدين. فناقشت معه كيفية جمع المال، سواء عبر أناس بأعينهم أو على رقم حساب باسم "أنصار الله". لكن الأمر لم يخل من قلق المسئولين فى المملكة وغيرها

من عـودة المجـاهـديـن، فطـلبت مـنه أن يعلـن للـجـميع أنهم لن يـعـودوا إلـى بلادهـم مـا دمـنـا نـسـتـطـيع أن نـكـفـلـهـم فـى معسكراتهم.

(٤٢)

كانت بدايتى مع الأحلام ومهاجمتها لى فى النوم واليقظة هذا العام، فوجدتنى أغفو وأصحو ولا يفارقنى الحلم إلا بانتهاء أحداثه، فما إن ودَّعت خالى وعدت إلى البيت كى أنام، وما إن وضعت رأسى حتى رأيت شيخًا يجتمع بسبعين رجلا فى دار لأحدهم، علمت أنه صالح بن مسرح زعيم الصفَرية، وهؤلاء رجاله، كان يحثهم على القتال والصبر فيه، ثم خرج بهم إلى دواب محمد بن مروان فأخذوها وانطلقوا فأقاموا فى أرض تسمى دارا نحو خمسة عشر يومًا، فأرسل لهم محمد بن مروان ألف فارس فأعملوا فيهم السيف حتى لم ينجُ منهم إلا القليل، فلما عادوا لابن مروان استشاط غضبًا وأرسل جيشين، كل منهما ألفًا وخمسمائة فارس، فهزموا صالحًا وطاردوه إلى أرض الموصل ـ تللك التى تحت إمرة الحجاج بن يوسف ـ فأرسل بدوره ثلاثة آلاف فارس

لملاقاتهم، فوزع صالح رجاله بينه وبين شبيب وسويد بن سليمان، فقُتل صالح وفر سويد وجُرح شبيب، فالتف حوله من بقى من الرجال ودخلوا دارًا وأغلقوها على أنفسهم، فحرق جند الحجاج الباب وانتظروا أن يأخذوهم أسرى، لكن شبيبًا ومن معهم خرجوا مبايعين أنفسهم على الموت، فقتلوا من جيش الحجاج الكثير، وطاردوا من بقى منهم.

استيقظت على صوت الخادم، قال إن بهاء الدين يريدنى أن أتصل به، فأمرته بتجهيز الحمام والفطور وذهبت إلى أم عبد الله، قالت إن أمى تشتاق لى وتريد أن تجىء لرؤيتى. فقلت إننى لا أريدها ولا أريد سماع شىء عنها، ثم تركتها غاضبًا ورحت أجهز نفسى للخروج. فى الطريق إلى المكتب تذكرت ما رأيته فى منامى، تذكرت صورة شبيب وهو يقاتل بضراوة أسد جريح، وفجأة لاحت فى ذهنى خارطة العالم العربى، فرحت أبحث عن دولة تصلح أن تكون مركزًا لإمارة المسلمين، لاح فى ذهنى عبيد الله المهدى وهو يأمر داعيته الشيعى أن يتجه من اليمن إلى المغرب: لقد مُهدت الأرض وحُرثت ولا تنتظر إلا زارعها. تذكرت الأدارسة فى موريتانيا، والأمويين فى الأندلس، والخوارج فى تشاد، وسيطرت علىَّ فكرة العودة لأنشر الخريطة أمام عينى، وأتدبر المكان المناسب لينتقل رجالنا إليه، كنت كلما فكرت فى الأمر ازددت حماسًا ورغبة فى بهاء الدين لمناقشته فى ذلك. نشرت الخارطة واتصلت به صارخًا: وجدتها يا صاحبي. قال: ما

هى؟ قلت: البلد الذى يصلح أن يكون إمارة لرجالنا. فأغلق الهاتف فى وجهى، حاولت أن أتصل من جديد لكن لم يجب، فلعنت الشيخوخة وخرفها وجلست أتدبر الأمر وحدى، لكننى شعرت أن رأسى مثقل، وحاجتى إلى النوم تزداد، فوضعت رأسى على الخارطة واستسلمت له.. رأيت شبيبًا يخرج لجيش الحجاج بن يوسف فيهزمه، ويتجه برجاله إلى المدائن، فيخاف منه جند الحجاج ويفرون إلى الكوفة، فلما وصلوا إلى الحجاج جهزهم فى جيش جديد من أربعة آلاف فارس، فذهبوا إلى المدائن يطلبون شبيبًا، رأيته يفر بين أيديهم كالخائف ثم يرتد عليهم فجأة فيكسر مقدمتهم وينهب ما فيها، ولا يواجه أحدًا إلا هزمه، والحجاج يلح فى طلبه، فيجهز السرايا ويرسل المدد، وشبيب لا يبالى بأحد، وما معه إلا مائة وستون فارسًا، يحملهم فى طريق جديد إلى الكوفة نفسها، فيخرج الحجاج جيشه بتمامه لملاقاته، رأيت شبيبًا ينزل بدير فى المدائن ويطلب شواءً، قيل له: قد جاءك الجند فأدرك نفسك، وهو يضحك قائلا لصانع الطعام أجده وأنضجه، فلما استوى أكله على مهل، ثم توضأ وصلى صلاة كاملة، وتقلد سيفين وعامودًا من حديد وخرج قائلا: أنا أبو المدلَّه ولا حكم إلا لله. وتقدم نحو أمير الجيش الذى يليه فضربه بالعامود فأرداه، ومال على الجيش الآخر فصرع أميره وهرب الناس من بين يديه إلى الكوفة، فدخلها فى آخر الليل قاصدًا قصر الإمارة، فلما وصله ضربه بعاموده فكسره...

استفقت على بهاء الدين الذى دخل كالثور الهائج، قال: ما زلت طفلا، تأكل وتنام ولا تدرك جرائر عملك. شعرت أنه أصبح شخصًا غير الذى أعرفه، فلأول مرة يخرج عن هدوئه وحكمته، وأيقنت أننى أحدثت مصيبة لا يمكن تداركها، فتمالكت نفسى وأنا أسأله من جديد عما حدث، فتركنى وأخذ يوصل هاتفى بجهاز أخرجه من علبته، ثم أمرنى أن أتصل بأى شخص آخر، لم يأت على ذهنى غير هاتف سيارته فاتصلت به، حين رد على السائق رأيت الجهاز الذى أوصله يطلق رنينًا وضوءًا أحمر، فأخذ السماعة ووضعها فصمت الجهاز كجثة هامدة، مرت لحظة توقف فيها ذهنى عن العمل، ولم أستطع الربط بين صوت السائق وما حدث، قال خطوطنا كلها مراقبة، وأنت تحدثنى عن رجال ودولة كأنك تتحدث عن منام رأيته. باغتتنى جملته الأخيرة فتوزعت ما بينه وبين شبيب الذى يطاردنى، ثم رفعت السماعة من جديد واتصلت بالمكتب فجاءتنى الصافرة والضوء الأحمر. قال يمكننا أن نترك لهم الهواتف، ويمكننا أن نرسل فى إحضار جهاز يمنع المراقبة، وأن نتحدث عبر هواتف لا يعرفون أرقامها... قال كلامًا كثيرًا لكننى لم أسمع منه شيئًا، لأننى كنت منشغلا بضربة شبيب التى صدعت باب الإمارة. قلت: يمكننا أن ننشئ سنترالا نتحدث من خلاله. فقال من الغد أتحدث مع الأمير فى إنشاء شركة اتصال، فشوارع

أوروبا الآن تمتلئ بكابينات الاتصال، فلم لا نكون أول من يدخل هذه الخدمة؟

أخرجتنى المفاجأة وحماس بهاء الدين لفكرته عما أردته من أجله، لكن بهاء لم ينس، فنشرت الخارطة بحماس فاتر ورحت أشرح فكرتى عن تكوين دولة إسلامية فى الشمال الغربى من إفريقيا، تمامًا كما فعل الأدارسة والشيعة. حين انتهيت من حديثى رفع نظارته ومسح عينيه: الأمر ليس بهذه البساطة. قلت: لكنه ليس مستحيلا. قال: لم يعد العالم كما كان منذ ألف عام، فعلى كل شبر أسوار وحكومات وخونة وأعوان، وهذه الأحلام تحتاج إلى تخطيط وعمل طويل. شعرت فى منتصف حديثه أن رأسى آخذ فى الثقل، ووجدتنى أتثاءب فى وجهه حتى انتقلت العدوى إليه، فقطع كلامه فجأة: اذهب فنم ولا تصبنى بالخمول معك، وحين تستيقظ أكون قد جهزت لك معلومات عن بعض الدول، لكن قبل أن تنام ضع وصلة هذا الجهاز فى أذنك لتتأكد أنهم يتجسسون على أحلامك أيضًا.

* * *

(٣٤)

لم يمر يومان حتى وجدت على مكتبى عدة ملفات بلون أزرق عن السودان والجزائر والصومال وموريتانيا وليبيا، ملف واحد كان باللون الأحمر عن اليمن، طلبت من مدير المكتب ألا يدخل علىَّ أحد ثم شرعت فى القراءة، كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساءً حين انتهيت من قراءتها.

هاتفت بهاء الدين: ما رأيك فى عشاء فاخر على حسابك. وصلت المطعم متأخرًا فوجدته قد اختار ركنًا قصيًا، صرفنا الخدم والحرس وجلسنا نتناقش. قلت: السودان مكان رائع، يمكننا أن نتقارب مع الترابى ونقيم دولة قوية، فهناك سنكون بعيدين عن الأعين وفى قلب العالم أيضًا، ويمكن لرجالنا أن يتسللوا لرؤية أهليهم أو تكوين الخلايا التى نريدها فى بلادهم. قال: والجزائر؟ قلت: صحراء شاسعة يتوه فيها كل البشر، ولا يمكننا أن نغامر على مشروع جبهة الإنقاذ، لأن بن

جديد لن يسكت، وإذا سكت ففرنسا وأوروبا لن تسمح بأن تكون مستعمرتها الجميلة دولة إسلامية. قال: جبهة الإنقاذ على أبواب الانتخابات، ولو ساعدناهم فى معركتهم سيساعدونا فى مشروعنا. ناقشنا أوضاع دول أخرى ولم نتفق إلا على هاتين. بعدها سحب الملف الأحمر ملوحًا فى وجهي: وماذا عن هذا؟ قلت العقيد لن يترك فرصة للإسلاميين، وأقصى ما يمكن عمله هو اقتناص عدن منه. قال: إنها شيوعية. قلت: الشيوعيون ينهزمون دائمًا، ولو أوعزنا إلى الغرب برغبتنا لتركنا ننفصل بها عن الجنوب، لكننا سنظل محصورين، فالبحر من أمامنا والعقيد من خلفنا، ولسنا أهل بحر ولا جو. قال: وماذا عن حاشد وبكيل؟ لَم أفهم ما أراده الرجل، فأوضح: خطواتنا مراقبة، وأمورنا لا تسير كا نتمنى، فما الأقرب لنا؟! قلت: اليمن. قال: فلم نترك بيتًا تركه الأجداد لنا؟ كانت دهشتى من رجل المخابرات الجالس أمامى كبيرة، فأردت أن أجادله، لكنه حسم الأمر: لا أقول أن تتجه بنفسك، لكن هذا مخبأ جيد. قلت: لم لا نوسع الأمر ويكون لنا فى كل مكان أهل ومخبأ. قال: سنعود إذًا إلى هيكلة الجماعة من جديد، وهذا يحتاج إلى معانقة الإخوان الذين أغفلناهم، فهم الذين لديهم شبكة باتساع العالم. وأنا ما زلت قادرًا على أن أفعل شيئًا من أجلك، فقط تأهب للقاء عباس مدنى.

فى الصباح أخذت طائرة إلى تركيا ومنها إلى فرنسا ثم الجزائر، مستعملاً عدة جوازات مرور مختلفة الأسماء والجنسيات. حين وصلت اتخذت سيارة من المطار إلى أحد الفنادق الشهيرة بالعاصمة، ارتحت من سفرى ثم اتجهت إلى أحد المطاعم لتناول الغداء، بعدها جاءنى من يقول إن الدكتور ينتظرك فى مزرعته الآن، اتجهنا إلى بيت كبير فى مزرعة على حدود تميمون فى الصحراء، فخرج الدكتور عباس للقائى، وقبل أن أنطق بكلمة قدمنى لأصحابه: هذا الرجل هزم الشيوعية فى عقر دارها. فوجدت الحفاوة تنهال علىَّ من كل جانب، حتى أن بعضهم قال إنه سأل الله ألا ينتهى أجله حتى يرانى. أخجلتنى الكلمات وحرارة الاستقبال فقلت إن ما صنعناه لا يزيد أهمية عما تفعله الجبهة الآن فى الجزائر، ونحن كمؤسسة اقتصادية إسلامية نريد أن نتوسع فى بعض المشاريع فى إفريقيا، ورأينا أن الجزائر ورجالها المجاهدين خير من يستحق أن نتعاون معه. قالوا إن الجزائر عما قريب ستكون دولة إسلامية، وأن الجبهة ترحب بكل ما يرفع من شأن الإسلام والمسلمين. اتفقنا على إنشاء شركة مقاولات ومصنع فوسفات، ثم وقعت شيكًا بعشرة ملايين، تركته قائلا: من أجل الثورة.

لم يكن طريق الدخول هو طريق الخروج، فقد اتجه بى الرجال إلى الجنوب الشرقى حيث عبرنا إلى موريتانيا، ومنها اتخذت طائرة إلى إيطاليا ثم تركيا، كانت وجهتى حتى ذلك

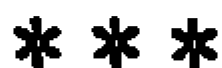
الوقت العودة إلى المملكة، لكن نفسى اشتاقت لرؤية الرجال والاطمئنان عليهم، فاتجهت إلى إيران ومنها إلى باكستان، حيث فوجئ الجميع بمراسل صحفى أمريكى الجنسية يحمل خطابًا من أبى عبد الرحمن لملاقاة الصبَّاح أو صهيب، كنت أعلم ما فى الأمر من مغامرة، لكن رغبتى فى أن أرى الحياة كغريب عن المكان جعلتنى أصر عليه. خضعت لممارسة أمنية شديدة من قبل الرجال الذين نشرهم الصباح على الحدود، ثم شممت رائحة زكية وجدت نفسى بعدها فى كهف أنتظر مجيء الصبَّاح، ما أحدثته من تنكر فى تركيا خال على الرجال الذين مارسوا مهامهم بروتينية مفرطة، حتى وجدتنى أضحك وأنا أقدم للصبَّاح الخطاب الذى كتبته فى الطائرة ودمغته بخاتم أبى سعيد. شعرت حين نظر الرجل لوجهى متجهمًا أن الأمر خال عليه، فسألته بالإنجليزية عن الصبَّاح، فابتسم قائلا: ما كان لأبى عبد الرحمن أن ينسى رفاقه بهذه السرعة. ثم رفع ذراعيه ليحتضنى، فألقيت نفسى بين ذراعيه قائلا: كيف عرفتنى. قال: لأننى أشمك، لكننى لم أتخيل أنك تحب اللهو إلى هذا الحد. ثم احتضننى من جديد وخرجنا نتفقد الأمور، كانت فرحة الرجال بمغامرتى ودخولى إليهم دون سابق إنذار أكبر مما أتوقع. سألتهم عما يفعلون، قالوا يئسنا من التدريب وقلنا نشغل أنفسنا بزراعة أى شيء. دهشت من الأمر فقال الصبَّاح: خشخاش. بدا لى أن المفاجآت أصبحت أكثر مما أتوقع، فأردف قائلا: وجدناه

ينبت مع الحشائش فى السهول، ووجدنا الأفغان يحصدونه ويبيعونه لأناس يجيئون لأجله من آخر العالم، فقلنا لم لا نعتنى به. قلت: ثم ماذا؟ قال: فكرة ليس أكثر، ربما نتدبر من خلالها ما يعينك على إقامتنا هنا. لم أستوعب ما أراد أن يرمى إليه. فقال: ليس هناك فتوى صريحة بتحريم الحشيش، وإذا كان محرمًا فإننا لن نتعاطاه، لكننا سنبيعه لأناس يتعاطونه، أناس فى الهند أو الصين وربما الروس أنفسهم، فهم لا دين ولا خلاق لهم، وليس لديهم محرم ولا ممنوع، وإذا لم يجدوه عندنا اشتروه من غيرنا، فلم لا نزرعه ونحصد منهم ما يعيننا على جهادهم، وهذا شرع الله الذى قال "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة". بدا لى الحديث مقنعًا وإن ظلت الريبة تساورنى، فسايرته قائلا: فماذا فعلتم؟ قال: أحضرنا عدة أجولة من البذور، ورحنا ننثرها فى السهول التى تحت أيدينا، ثم أحضرنا قطيعًا من الغنم ورحنا نمرح به فى المكان طيلة الأيام السابقة، وها نحن فى انتظار أن يمن الله علينا بالمطر. ضحكت من عبثهم: يبدو أننى لست الوحيد الذى يحب اللهو على كبر. وفى غمرة الضحك بزغ فى رأسى صهيب وجديته والتزامه، قلت: وما موقف صهيب من ذلك؟ قال: منشغل فى معسكر بدر بتجهيز عدد من الراغبين فى العودة إلى بلادهم. قلت: يثنيهم؟ قال: بل يخبرهم بطرائق الدخول وبمن يتصلون. طلبت أن يرسل فى إحضاره هو

وصهيب وأبى قتادة والبنشيرى، وأخذت أدور على جواد حول المعسكر لأرفع من معنويات الرجال وأبشرهم بالخير.

فى المساء كان الأربعة ينتظرون عودتى، سألت صهيبًا عن أخباره فقال إن بعض رجاله سافروا إلى مصر، وبعضهم فى الطريق إلى تونس، وأنه جهز لهم بطاقات هوية وجوازات مرور، وأمرهم أن يدخلوا عبر الصحراء. سألته عن كيفية الاتصال فقال إن بعضهم من البدو والبربر، وهؤلاء من خلال ذويهم يشكلون شبكة سرية فى الصحراء الكبرى. نصحته أن يترك تنظيم الاتصال للصبَّاح، وأخبرتهم بما توصلت إليه مع بهاء وعباسى مدنى، وطلبت من أبى قتادة أن يجهز نفسه ومن يريد للعودة إلى الجزائر، أما البنشيرى فطلبت منه أن يجهز مجموعة أخرى ليغزو بها السودان، وأخبرته أن عليه أن يجمع أكبر قدر من الرجال حوله، وينشئ معسكرًا لهم بعيدًا عن الخرطوم، وكلما استطاع أن يجند الغرباء فذلك أفضل، وأكدت عليه ألا يأتى بنشاط مخالف للحكومة هناك، وقلت للصبَّاح أن يعد طريقة ليتواصل بها الجميع معه ومع بعضهم بعضًا. وقبيل أن ننهى الاجتماع سألت صهيبًا عن رأيه فى خشخاش الصبَّاح، فقال: لقد صدقت حين أسميته بذلك، فما قلعة ألموت ببعيد. ضحكنا ونحن نتذكر كيف بنى الصباح ملكه على جنة من الخشخاش والخمر المعتق، ثم تركتهم والسماء أميل إلى السواد من كثرة الغيم المحمل بالماء.

فى المملكة كان بهاء الدين قد أقام الدنيا بحثًا عنى، كان قد خشى أن أكون قد أصبت بأذى فى أجواء الجزائر المتوترة، انفجرت من الضحك وأنا أعابث الرجل الغاضب، ثم أخبرته بمغامرتى فى الدخول كصحفى فى أمريكى، وكلما وصفت معاملة الرجال لى وحيرتهم فى أمرى كان غضبه يشتد، ولم يضحك إلا حين أخبرته بمشهد الصباح وهو يمشى وراء الأغنام فى السهول كى يوارى حبوب الخشخاش. قال: لعله الآن يصلى مستسقيًا الله لبذوره قبل أن تأكلها الطيور أو يفسدها الطل. وكاد يموت ضحكًا حين سألته عمن يبتاع ما قد يحصده الصباح هذا العام، فلم يتمالك نفسه وهو يقول جابريل جارثيا ماركيز، فسألته ومن هذا المركيز، فقال مرشح الحزب الحاكم لرئاسة إحدى دول أمريكا اللاتينية.



(٤٤)

خريف ١٩٧٧

فى السادسة والنصف، صباح الثانى من أغسطس استيقظت على هاتف من بهاء الدين: فعلها المجنون واجتاح الكويت. كنا قد تحاورنا كثيرًا عن أجواء التوتر بين صدام حسين وكل من الكويت والسعودية والإمارات، وكان خالى يراه منذ وصوله إلى حكم العراق عام ١٩٧٩ جزارًا خائنًا، زادت هذه الكراهية حين ألغى اتفاق الجزائر عام ٧٥ للتفاهم حول شط العرب، بعدها بدأت ثمان سنوات من الحرب الطويلة بينه وبين إيران، وكنت يومها مقتنعًا بما يردده الإعلام عن أنه حامى الجبهة الشرقية للعالم العربى من غزو الثورة الشيعية، وكانت المملكة والكويت تساعدانه بكل ما تملكان حتى لا يسقط وتجدان نفسيهما فى مواجهة إيران. ظللت أنصح بهاء

الدين أن يقلل من تعصبه للشيعة حتى غضب منى، فوعدته بألا أحادثه فى أمر الشيعة ما حييت، وظل هكذا الأمر حتى انتهت الحرب الإيرانية العراقية، فاتصلت به من بيشاور لأهنئه على حقن الدماء بين الطرفين، لكنه قال كلمة الخمينى: "إنها كأس السم". ولم أرد أن أجادله فيما يؤمن به، لكنه أردف: "إنه مصاص دماء، لو لم يجد فريسة غرس أنيابه فى عنق أقرب الناس إليه". دعوت الله ألا تتحقق نبوءته وتركته لأعود إلى الحرب، ومع أول خلاف بين صدام ودول الخليج لإلغاء ديونه ـ وهى مليارات ـ قال لهم إنه حارب نيابة عنهم. ووجدت بهاء الدين يقول لي: أرأيت.. يعشق الدماء ولن يهدأ حتى يغرس أنيابه فى أعناقهم. قلت إن مطلبه يستحق النظر، فلم لا تخفض الدول العربية إنتاجها من النفط كما فعلت عام ثلاثة وسبعين، فيرتفع سعر البترول ويسددون ديونه من شرايين الغرب. قال: إنه واهم، فلا الغرب سيقبل ولا ثلاثة وسبعين هى تسعين، ولا تستطيع عائلة الصباح التى أعاد لها البريطانيون ملكها فى بداية القرن أن تخالفهم فى نهايته، ولو فعلوا فمن سيحميهم من دراكولا لو قرر أن يغرس أنيابه فى أعناقهم. أدركت أن وجهة نظر بهاء صائبة، فخرجت للناس محذرًا من دراكولا، لكن علاقات المملكة معه كانت على أفضل حال، وما كان لأحد أن يتوقع هذا التوتر الذى تتابعت أحداثه بشكل غريب. كنت أحذر كالمجنون بكل ما قاله وما تصوره بهاء الدين، لكن أحدًا

لم يسمع، فكتبت رسالة طويلة شرحت فيها نفسية صدام وطريقته العدوانية، وقلت إن لدى أكثر من مئة ألف مقاتل يمكن للمملكة أن تستضيفهم لتؤمن حدودها من هذا الغادر، وذهبت بها إلى الأمير نايف طالبًا منه أن يقدمها لولى العهد، وانتظرت أن يستمع لى أو يرسل أحدًا لمناقشتى، لكن شيئًا لم يحدث.

أغلقت الهاتف وخرجت أستطلع قنوات الأخبار، كان الحدث كما وصفه بهاء الدين، اجتياح عام لتلك الإمارة التى قال صدام عنها إنها محافظته الثامنة والعشرين، ولم تمض ساعات حتى تأكد هروب أمير الكويت إلى المملكة بعدما قاتلت قواته بضراوة لحماية قصره، لكن الأمير الذى فر ترك خلفه عائلة كبيرة للانتهاك والأسر. فخرجت كالمهووس مرة أخرى أحذر الناس من خطر هتلر جديد، وأن علينا الجهاد للدفاع عن أموالنا ووطننا وحرمنا الشريف، لكن الناس كانوا سكارى وما هم بسكارى لكن عذاب الله شديد، فرجعت أكتب رسالة جديدة أحث فيها الأمير على إعلان الجهاد، مؤكدًا أن تحت إمرتى أكثر من عشرة آلاف مدرب على حمل السلاح، ويمكننى إحضارهم غدًا لو شاء، ومثلما فعل مع الرسالة الأولى فعل مع الثانية.

فى اليوم التالى رأيت اجتماعًا طارئًا لجامعة الدول العربية، كنت أعرف نتيجته المسبقة وما به من شجب وتنديد

ولا شيء أكثر، وفى اليوم الرابع عقد مجلس الأمن جلسة طارئة فرض فيها عقوبات على العراق. كان الغرب يتحرك فى تلك اللحظة بأقصى سرعة، لأن الرجل الذى طالب بتقليل إنتاج النفط بالأمس سيتحكم فيه غدًا، وكان الخوف فى المملكة يجتاح الكل، البعض يهرب بأمواله، والبعض يهرب بنفسه، ولا أحد يفكر فى أرض الإسلام ،أما أنا فكنت مذهولا مما يحدث، تقابلت مع بن باز فتحمس لفكرة إعلان الجهاد دفاعًا عن الحرم فى وجه أى عدوان، واتفقنا على أن نعقد فى الغد مجلسًا لكبار العلماء يعلنون فيه الجهاد ويطلبون من كل مسلم الخروج دفاعًا عن قبلة الإسلام، فلا نريد حجَّاجًا جديدًا يمطرها بالقنابل، ولا قرامطة يسوون بها الأرض ليحتفظوا بحجرها الأسعد فى متاحفهم، لكننى ما إن عدت إلى البيت حتى سمعت أن المملكة طلبت من الولايات المتحدة أن ترسل جنودًا لحمياتها. شيء ما انفجر فى رأسى، فهذه البلاد التى حرَّمها الله على الكفار نطلبهم نحن كى يدافعوا عنها، نترك جند الله ونطلب من أعدائه أن يحموا بيته من مسلم ولو كان أحمد بن قرمط، يومها لم أنتظر أن أستشير بهاء الدين ولا أن أخطط لشيء، فخرجت من فورى إلى قصر ولى العهد، حاول رجاله أن يبلغونى أن مشاغله ستمنعه من لقائى، وأنا أقول: "لن أرحل دون لقائه"، وظللت منتظرًا حتى الثانية صباحًا. كانت كلمة صدام "خائن الحرمين" ترن فى أذنى كلما طال انتظارى، لكننى تحملت من

أجل بلادنا وقبلة الإسلام، قلت له إن هذا المكان المقدس لم يدخله الكفار منذ نزلت "براءة من الله"، ولا يمكن أن نكون أول مدخليهم. فنظر لى باستصغار ثم قال: وماذا تريدنا أن نفعل؟ قلت: نعلن الجهاد وندعو الدول الإسلامية أن ترسل فرقًا من جيوشها لتحمى حرم الله، وإخراج العراقيين من الكويت. قال: وإذا رفضوا؟ قلت: لدى أكثر من عشرة آلاف مقاتل يحملون السلاح، ويمكننى أن أحضر مثلهم ومثلهم مرات.. ونحن قادرون على حماية المملكة وإخراجه من الكويت كما أخرجنا الروس من أفغانستان. فنظر لى من أعلى إلى أسفل ثم قال: نفكر فى هذا الأمر. قلت بالله وبرسوله وبعزة الإسلام أسألكم ألا تجلبوا الكفار لأرض طهرها الله منهم. فأشار بيده أن المقابلة انتهت، وأدركت أن كل ما قلته لم يقترب من شحمة أذنه، فخرجت ولا أدرى إلى أين أذهب، بهاء الدين نائم ولا يمكننى أن أوقظ عجوزًا مريضًا من نومه ليمسح على رأسى، كنت أذرع بسيارتى الطرقات كشيطان يريد أن يشعل المدينة، حتى وجدتنى أمام قصرنا القديم، هذا الذى تقيم فيه أمى وزوجها الآن، فاجتاحتنى الرغبة أن ألقى برأسى على صدرها وأبكى، ترددت فى الدخول، وأخيرًا حسمت أمرى فناديت الحارس ليستأذن لى، لكنه قال إنها وزوجها سافرا بالأمس إلى لندن، لعنتها ولعنت كل الخونة فى كل زمان. وخرجت أهدر بسيارتى فى الصحراء حتى نفد الوقود، فأجهشت بالبكاء،

ومن بين الدموع رأيت شبيبًا يجوس فى الكوفة بحثًا عن أماكن الجند ليقاتلهم، والحجاج يصرخ: يا خيل الله اركبى، فتجمع له ستة آلاف فارس، فخرجوا خلف غريمهم، وهو يغفو بين أيديهم ويصحو ثم يكر عليهم حتى تفرق شملهم، فأرسل الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث بجيش لكنه رجع ولم يقاتل، فأرسل عثمان بن قطن فقتله شبيب ومزق شمله، وانتفض عبد الملك بن مروان خائفًا على عرشه، فأرسل جيشًا من الشام، وأخرج الحجاج من الكوفة أربعين ألفًا بقيادة عتاب بن ورقاء، فلما بلغ شبيب الخبر قام فصلى وانتظر حتى أضاء القمر الأرض، ثم حمل على عتاب قائلا: أنا أبو المدله ولا حكم إلا لله. فقتل عتابًا ومزق شمل جيشه، فانهزموا راجعين إلى الكوفة وشبيب يقول: لا تتبعوا منهزمًا. وخطب الحجاج فى الناس: يا أهل الكوفة لا أعز الله من أراد بكم العز، ولا نصر من أراد بكم النصر، اخرجوا عنا فلا تشهدوا معنا قتال عدونا، الحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى، فلا يقاتلن معنا إلا من لم يشهد قتال عتاب بن ورقاء.

* * *

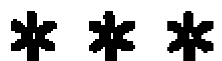
(٤٥)

حين عدت إلى القصر وجدت الشرطة قد بعثرت محتوياته، وأخبرنى الخدم أنهم أتوا بكاميرات صورت كل شيء، حتى الحديقة، لكنهم لم يأخذوا سوى الجهاز الذى أحضره بهاء لمعرفة إن كان الهاتف مراقبًا أم لا. اتصلت ببهاء الدين أسأله عما حدث، فقال إن قرارًا صدر بمنعى من السفر. أظلمت الدنيا فى عينى، وشعرت أن الحصار أصبح أضيق مما أحتمل، فتركت الهاتف وخرجت كالمجنون لمقابلة الأمير نايف، قال إنه لا علم له بالأمر، رغم أنه المسئول الأول عن الشرطة، سألته عن منعى من السفر فقال إن كنت لا أدرى عن الأولى فكيف سأعرف بالأخيرة! لم أعرف أين أتجه، فالأمريكان ينزلون بجنودهم، والسلطة تمنعنى من السفر، وبيتى أصبح أقل الأماكن أمنًا، والناس يرتعدون من تهور مجنون فى العراق. قادتنى خطاى إلى بيت بن باز، كان

الأمل الأخير لى، فحين نعلن الجهاد سنكسر كل هذه الحواجز، وهو الذى يمكنه أن يفتى فى أمر كهذا، لكنه تعلل بالمرض، رأيته أكثر عافية منى رغم تظاهره بعدم القدرة على التماسك، شعرت من الحديث بالتراخى والتراجع، لم يكن هكذا بالأمس، ولم يكن هذا ما اتفقنا عليه، كان يجب أن نعقد اليوم مؤتمرًا يحضره جميع الشيوخ والعلماء ليعلنوا انجهاد، فما الذى حدث؟ خرجت ألعن المرتزقة فى كل مكان، ووددت لو أننى لست محاصرًا هنا، كنت سأقلب الدنيا على من فيها، وأصدر الفتوى التى تكفر الخائن وشرطته، لكن الوقت فات، والغيظ يأكلنى. كانت العربة تهرول على الطرقات من مكان لمكان، وأنا أتحمل النكبة بسكينة مفرطة، فقد وجدت من يمكنه أن يمنحنى كلمة السر علانية، ابن عثيمين وحده يمكنه أن يجهر بصوته أمام الجميع، وحده الذى قال إن الجهاد فرض عين على كل من فى الجزيرة، ليس ضد العراقيين والأجانب ولكن ضد من يساعدهم على النزول إلى هذه الأرض الحرام. شعرت أن جملته الأخيرة قد تثير المتاعب، لكننى تركته يكمل، فلا بد أن نصفع الأمير من كل اتجاه، ولا بد أن يعلم الجميع أننا لسنا ضعفاء وأنهم ليسوا أمناء الأمة، كانت كاميرات التصوير تبث على الهواء المباشر، وفوجئ الكل بخروجنا عليه فى ذلك الوقت، ولأول مرة أرى بهاء الدين منزعجًا بحق. قال إنهم حذروه بلغة واضحة، وإنهم جادون فى تهديدهم. شعرت أننى لو تراجعت

سأكون قد تواطأت على الخيانة، وددت لو قلت "لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى" لكن عجزى وقلة حيلتى جعلانى أصرخ فى وجهه: ليفعلوا ما أرادوا. ثم خرجت من فورى أجهز لمؤتمر فى مكة، حضر الناس ولم تحضر وكالات الأنباء، حضر أمراء ومشايخ وموظفون كبار ولم يتكلم أحد، وحضرت الشرطة فى النهاية فهدمت كل شيء وطردتنا من المكان، ولم يوقف أى من ذلك الحرب، ولم يخرج صدام من الكويت، أو يمنع الأمريكان من نزول الأرض التى حرمها الله، وكل ما حدث أنهم اعتقلونى فى بيتى، قطعوا الهواتف عنى، وأوقفوا الحراس أمام الأبواب، ولم يبق أمامى سوى التلفاز الذى عرض بكثرة كما لو أنه يحتفل بجحافل الكفار وهى تدوس أرض الله، وتنطلق منها إلى أرض الإسلام، لتهطل طائراتهم ثمانية وعشرين يومًا بالمتفجرات على رءوس أطفال ونساء ومشايخ، على أبنية وقباب ومساجد، على بيوت ومستشفيات ومدارس، على تاريخ وخلافة وعزل، وكلما رأيت وجه الأمير كنت أصرخ: هل هكذا أمر الله؟ أم أن الملك عقيم؟ ولم يجبنى سوى البكاء والحجَّاج، فقد عزم على قتال شبيب بنفسه، فخطب فى جيشه قائلا: يا أهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة، والصبر واليقين، لا يغلبن باطل هؤلاء الأراجس حقكم، فغضوا الأبصار واجثوا على الركب، واستقبلوهم بأطراف الأسنة. وقسم شبيب أصحابه ثلاث فرق، واحدة معه، والأخرى مع

سويد بن سليم، والثالثة مع المجلل بن وائل.. وأمر سويد أن يحمل على جيش الحجاج فصبروا له حتى إذا دنا منهم وثبوا إليه وثبة واحدة فانهزم، فأمر شبيب المجلل أن يحمل فثبتوا له، ثم حمل شبيب بمن معه حتى إذا غشى أطراف الأسنة وثبوا فى وجهه، فلما رأى صبرهم نادى: يا سويد احمل فى خيلك على أهل هذه السرية فأتِ الحجاج من ورائه، ونحمل نحن عليه من أمامه:.. فحمل.. لكن ذلك لم يفد، فقد جعل الحجاج عروة بن المغيرة فى ثلاثمائة فارس درءًا له من خلفه، فأمر شبيب أصحابه بالحملة معًا، فنادى الحجاج: يا أهل السمع والطاعة اصبروا لهذه الشدة الواحدة، فورب السماء والأرض ما بعدها إلا الفتح. فلما غشيهم شبيب وثبوا فى وجهه، فنادى شبيب: يا أولياء الله الأرض الأرض، ونادى الحجاج ?:?يا أهل السمع الطاعة هذا أول النصر. وما مع شبيب إلا عشرون رجلا، فاقتتلوا حتى أقر كلٌّ لصاحبه بالعزم، حتى استأذن خالد بن عتاب أن يأتى شبيبًا ورجاله من خلفهم، وانطلق فى أربعة آلاف فقتلوا مصادًا أخاه، ثم غزالة زوجته وارتبك شبيب ومن معه ففروا أمامهم.



(٤٦)

انتهت الحرب وخرج العراقيون من الكويت ولم يخرج الأمريكان من المملكة أو غيرها، وكل ما حدث أننى وجدت الخدم يهرعون إلى غرفتى صائحين: لقد رحلوا. تصورت أن الأمر يخص الأمريكان: كيف؟! لكن أحدهم اختصر الحلم قائلا إن قائدًا كبيرًا جاء - بعدما أمر رجاله من الشرطة والحرس الوطنى بالانصراف - ليخبرهم أنه من اليوم يمكن لأهل القصر أن يخرجوا ويدخلوا كما يشاءون. شعرت لحظتها بدوار غريب، فما جدوى رحيلهم عن القصر وآلاف الأطفال قد اندثروا تحت ركام الحوائط وأطنان المتفجرات فى العراق! ما جدوى رحيلهم والكفار جاثمين على أرض حرمها الله عليهم؟! كان حزنى أكبر من أن يزيله رحيل عبد الملك بجيوشه من أمام بيتي. وانطلق الهاتف يدوى، قال نايف: لولا جهود بهاء الدين لدى ولىٍّ العهد ما حصلت على

هذه الحرية، صحت: وأى معنى لها وقد صرت خصيًا، بلادى محتلة وقبلتى مدنَّسة. كانت الكلمات تخرج منى كطلقات رصاص لا أعرف إلى من أوجهها، فاختنق صوتى وأجهشت بالبكاء. قال: نحن نقدر موقفك وغيرتك، لكن النظام يجبرنا على ما لا نريد. أغلقت الهاتف: يجبركم أنتم، لكننى من اليوم لى شأن آخر. شعرت فى هذه اللحظة دون أن أدرى أننى أعلنت الخروج عليهم، وأنه علىَّ أن أتعامل مع نفسى من الآن على أننى من الخوارج، لأنهم أيضًا لن يعاملونى إلا بهذه الصيغة.

هاتفنى بهاء الدين منزعجًا، قال: لم يكن أمامى غير أن أهدئ من ثورة نايف، فقد أغلقتَ الهاتف فى وجهه، ولم ير ما قلته إلا إهانة له. شعرت من كلمات خالى أننى صفعتهم جميعًا فاسترحت، لكن الرجل أنهى المكالمة قبل أن أتفوه بشىء جديد يغضبهم، وكان علىَّ أن أكتم غيظى حتى يجىء.

حين دخل رأى شبحًا لم يره من قبل، فقد صرت أكثر نحولا، بملابس رثة، وشعر مهوش، وعينين متورمتين، وكانت النوافذ مغلقة، والهواء ملىء بالعطن، وكل الأشياء متناثرة على الأرض. فى البدء احتضننى كوالد عاد له طفله، ثم بكى: توحشتنى، كنت كل يوم أمر على القصر متطلعًا نحو الشرفة عسى أن تظهر فأراك. كدت أضحك لكننى تماسكت كى لا أهين مشاعر الرجل، ولم أعد أعرف من الذى كان يواسى

الآخر فى تلك اللحظة، لكنه سرعان ما تماسك وانتفض يضىء الأنوار ويفتح الستائر والنوافذ، ثم دفعنى إلى خارج الغرفة وراح يصرخ فى الخدم أن يهرعوا لتنظيف المكان وتجديد الهواء، اصطحبنى إلى الحديقة قائلا: عليك أن تخرج إلى الناس اليوم. تساءلت: ما الفائدة؟ قال: الجهاد. قلت: أى جهاد ينتظره الناس؟ قال: لا أظن الأمريكان سيخرجون اليوم أو غدًا، وما أظنهم جاءوا إلا ليمكثوا ما شاء لهم الله، ولن يخرجهم إلا رجال وهبوا أنفسهم لله ورسوله وحماية أرضه، رجال باعوا الدنيا وعرضها الزائل ليدخلوا الجنة، ولا يدخلها إلا أولو العزم، فهل أنت من الضعفاء؟ أشعرتنى كلماته بالأمل فابتسمت، منذ ساعة كنت محدد الإقامة، والآن يحثنى على الخروج كشبيب لأصفع باب الإمارة بعامود من حديد. لكنه قبض على ذراعى من جديد ودلف بى إلى القصر، هتف فى الخدم أن يجهزوا الحمام وجوادين لأنه يريد أن يهزمنى فى الفروسية، حين رآنى الجواد تشممنى كأنه لم يرنى منذ عام، وحين اعتليت ظهره راح يركض كأنه إلكترون يريد أن يخرج من دائرته، فنسيت نفسى وأنا أستسلم لهزهزاته، وسرعان ما شعرت أننى واحد من الفاتحين فى بلاد السند، وعلىَّ أن أسابق الريح لأنقذ أرض الإسلام قبلما يقع الكفار على أهلها، شعرت أننى أقفز منحدرات وجبال ومضايق، وأمرق كالسهم بين أشجار غابات وأسوار قلاع وبوابات مدن عجيبة، ورأيت شبيبًا يكر على

جند الكوفة والشام والجزيرة ولا يوقفه أحد، وددت لو أن عاموده الحديد معى الآن لأضرب به باب نايف قائلا: أنا المدله ولا حكم إلا لله.

لم يكن بهاء الدين فى حاجة للتريُّض، لكنه عرف كيف يعيدنى إلى الحياة، فما إن دار دورتين بجواده حتى نزل وتركنى أقطع الأرض كمهووس يطارد غزالة فرت بين الأحراش. فظللت أدور حتى هدنى التعب وغسلنى العرق وكاد الفرس ينفق منى، فصحت بالسائس أن يأخذه وعدت إلى الحمام كى ألقى بنفسى فى ماء دافئ، وجاءنى الخادم كى يساعدنى فاستسلمت لأنامله متذكراً خادمة الصغر وهى تدهننى وتدلك أعضائى، ولم يكن الخادم العجوز أقل مهارة ومحبة لى منها، فلم يتركنى إلا كما كانت تحب أن ترانى أمى، فصعدت إلى حيث تقيم أم عبد الله فاحتضنتها، لم يكن عناقنا كرجل وزوجته، لكنه أشبه بأم وابنها، كان الفرح يملأ وجهها كما لو أننى ولدت للتو على يديها، فاستأذنتها للذهاب إلى زوجتى الأخريان، فأصرت على أن نأكل معًا، أمرت الخدم بتجهيز المائدة لنأكل جميعًا فى جناحها، ولعبت ورقصت وغنيت وضحكت مع الجميع حتى الخدم، وفى النهاية جمعت الأولاد والأمهات وأمّرت من جديد أم عبد الله على النساء وكل من فى القصر، ثم أمّرت عبد الله على الصبيان، وقلت: أيكم اختلف مع أخيه على شيء فعبد الله

مرجعه فى الحكم، وكل من اختلف فى البيت مع عبد الله على شيء فأم عبد الله المرجع ولا يرد لها أمر.

حين هدنى التعب ونمت كمن حاز الدنيا بحذافيرها رأيت شبيبًا ينزل أمامى من على جواده ليعطينى عاموده ذى الرأسين، ثم استدار فامتطى جواده وفر كشهاب نحو السماء، بعدها رأيت عجوزًا يتجه نحوى ليأخذ العامود من يدى، فنظرت إليه مستنكرًا فإذا به أبو سعيد. فانتفضت من نومى فزعًا، وأخذت سيارتى واتجهت إلى قصر بهاء الدين. قال: ما الذى أتى بك فى هذا الوقت؟ قلت: فرطت فى أمانة الشيخ. قال: كيف؟ قلت: تركت عليًا فى أفغانستان ورحت ألهو مع زوجاتى وأبنائى هنا. قال: فما تريد الآن؟ قلت: لا بد أن أسافر إليه غدًا. قال: ما زلت ممنوعًا من السفر. قلت: أهرب. قال: العيون تترصدك حتى فى بيتك، قلت: لا بد من طريقة. قال: غدًا نتدبر أمرًا كان مفعولا.

لم يكن أمامى إلا أن أنتظر شهورًا محاصرًا فى بيتى وعملى، الكل يراقبنى وأنا أمعن الخروج عليهم، وكلما ضيقوا على تشددت فى نعتهم بالخيانة والتخاذل، كنت أسعى بين أيديهم ليل نهار ما بين ندوة ومؤتمر أو خطبة فى مسجد، ورغم تهديد الشرطة لكل من يحضر غير أننا أسسنا جماعة الفتوى الإسلامية، وهيئة علماء الدين المستقلين، ولجنة الأمر بالمعروف، وطالبنا بالجهاد وإعداد العدة من أجله، وأرسلنا عددًا من الشباب إلى صهيب ليعلمهم فنون القتال، لم أكن

الذى يقوم بذلك، ولا حتى بهاء الدين، فقد تركنا المهمة لأناس لا يشك الأمن فى ولائهم له، لكننا ألفنا قلوبهم بالمال والموعظة الحسنة، ولم يكن ذلك مثيرًا لغضب السلطة التى أرادت التخلص من كل من يريد الخروج عليها ،ولم يثر حنقها إلا النعت بالتخاذل والخيانة، حتى أن نايف أرسل رجاله فأخذونى إليه. قال: أنت لا تساوى رصاصة وينتهى أمرك. قلت: لو شئت فعلتها أنا. قال: ألم تتعظ؟ قلت: لو كنت أتعظ بالخوف ما تركت قصرى وسكنت الكهوف ناشرًا صدرى للرصاص والموت، حدث غيرى عن ذلك كى يرتعد ويجثو على ركبتيه. قال: يمكننى اعتقالك. قلت: يمكننى فعل الكثير، فلا حكم إلا لله. قال: أخارجى أنت. قلت: وما بهم؟ قال: كفَّروا الصحابة. قلت: بل خرجوا على وراثة الإمامة وحصرها فى قريش، وإذا أخطأ الصحابة فيجب تكفيرهم لأنهم لا يجب أن يخطئوا، وإذا حاد أولو الأمر عن جادة الطريق حملهم الناس عليها، فإن لم يرجعوا فأمر الله واضح "قاتلوهم حتى يكون الدين كله لله"، فما بالك بمن استعان بالكفار على المسلمين، ومن أنزل الكفار أرضًا حرمها الله عليهم، ومن جعل الكفار أولياءه والله ولى المؤمنين؟ قال: أتكفرنا؟ قلت: لست أنا؛ لكنه الذى حرم نزول الكفار إلى هذه الأرض. قال: ومن أنت كى تكفر أناسًا ربوك بينهم، وأعطوك من أموالهم؟ فابتسمت قائلا :أنا المدله ولا حكم إلا لله.

* * *

(٤٧)

كان الأمر أبسط مما فكرت وتوقعت، فقد اقتربت أشهر الصيف وكان على الأمير نايف أن يذهب ليقضى إجازته فى أوروبا، هكذا تخمرت الخطة فى رأس بهاء الدين، فترك توترى تجاه نايف يتصاعد كما هو، ولم يفعل غير تهدئة نايف كلما ثار فى وجهه، كان كلما يحكى لى ما دار بينهم أنفجر ضاحكًا، لكن بهاء لم ير فى الأمر ما يضحك، فلا بد أنهم جادون فى تهديدهم. قلت: فليقتلونى إن أرادوا. قال: يمكنهم ذلك، لكنهم لا يريدون أن يصنعوا منك بطلا الآن، وإلى أن يجدوا الوقت المناسب فعلينا أن نتحرك أسرع منهم. ومن هنا بدأت الخطة، فتصعيدى للأمر صنع حماية لى، وأكد لهم أن معركتى هنا، وليست لدىَّ نية للرحيل. أما الشق الثانى فقد قام به بهاء الدين سرًا، حيث استقطب الأمير عبد العزيز الذى يتولى مسئولية الأمن نيابة عن نايف فى حال غيابه،

وأقنعه أن تعنت رئيسه ضدى هو ما جعلنى أكثر تشددًا، ولو كان هناك من يقود الأمر بحكمة ما حدث ما يحدث. وحين توطدت الأمور بينهما أسرَّ له بطلب بسيط، وهو خروجى إلى أفغانستان لأنهى بعض المعاملات التجارية التى ما زالت متعلقة هناك. فقال عبد العزيز إننى أستطيع أن أكلف من ينوب عنى بذلك، فأجابه بهاء أن فى الأمر معاملات قامت على الثقة وليس الأوراق والعقود، وإذا لم تحسم هذه الأمور فسوف تواجه المجموعة خسائر كبيرة، وإن ثمة سرًا أكبر من المعاملات التجارية وغيرها، وهو أن أبا سعيد كان قد أنجب طفلا لم يلبث أياما حتى ماتت أمه، وأنه مصاب بعيب خلقى يعوقه عن الكلام، وقد تركه أبو سعيد أمانة فى عنقه، ولا بد من ذهابه ليسترد الطفل ممن أودعه لديهم، ولأن عبد العزيز كان رجلا مدتينًا وكثيرًا ما سمع عن أبى سعيد وفضله فقد تأثر بالأمر، ومن ثم طرق بهاء الحديد قائلا: فهل تسمح بذهابه ولو ليوم واحد إلى باكستان كى يعود بالطفل ليعيش مع أولاده بدلا من الجوع والموت فى الكهوف. بكى عبد العزيز لطلبه وقال إنه لا يمانع لكن نايف لن يقبل. هنالك طرح بهاء الجزء الثانى من خطته، وهو أن نايف معتاد على أن يقضى إجازة الصيف فى أوروبا، ولن ينتبه أحد لغياب أبى عبد الله يومين أو ثلاثة عن المملكة. ويبدو أن بهاء أجاد إحكام خطته وجهز لكل سؤال جوابه المقنع، فلم يستطع عبد العزيز الفكاك من الدائرة إلا بالموافقة، وأخذ الاثنان ينتظران إجازة نايف كى يهبانى جواز مرورى إلى الخارج.

حين حصل بهاء الدين على ذلك الوعد جاءني: غض الطرف فإنك من نمير، فلا كعبًا بلغت ولا كلابا، وحين لم أستوعب ما أراده من بيت جرير شرح لى الأمر بتمامه، وطلب منى أن أخفف من توترى وأقلل من ذهابى ورواحى، وأن أتجنب نبرات الخطاب العالية ضد الأمراء وغيرهم حتى يسافر نايف بسلام. كانت المفاجأة مذهلة بالنسبة لى، ولم أكن فى حال تسمح بالاعتراض على أى مما يقوله الرجل، فرحت أقبل رأسه شاكرًا كأنه أعطانى ماء الحياة، وشعرت أننى ما زلت حيًا وأن عليًا يرفرف بجناحين على مقربة منى، وما إن تركنى الرجل حتى غفوت فرأيتنى على جوادى ممسكًا بالعامود ذى الرأسين، وأبا سعيد يمسح على رأسى قائلا تمسك به فإنه جواز مرورك بيننا نحن آل البيت. قمت مغتبطًا أقبل أولادى وأحتضنهم حتى شكُّوا أننى مقبل على الموت، وبدت لى تعليقاتهم مثيرة للضحك، وكلما رأونى أضحك كانوا يتوجسون خيفة، وكلما توجسوا كانت رغبتى فى الضحك تزداد، حتى أننى حملتهم جميعًا على ركوب الجياد والركض بها أمامى، كانت أمهاتهم تطل من الشرفات لتنظرن إلى أى شيء ستنتهى تلك الحالة من الجنون، كنت أسمع الشهقات والصرخات كلما علا جواد بأى منهم، حين خفت من أن ينقلب الأمر إلى كارثة قلت أغير اللعبة، فحملتهم واحدًا تلو الآخر وقذفت بهم فى حمام السباحة، وحده أبو الفضل الذى نجا من الجنون لأنه رضيع، لكننى كنت مصرًا

على أن أراهم يسبحون أمامى كما رآنى والدى أسبح أمامه، حين رأت أم عبد الله ذلك الجنون المتزايد اتصلت بأبيها، فحضر على جناح السرعة. قال: أتريد قتل الأولاد أم تريد السفر؟! قلت: ألم تطلب التهدئة؟ قال: نعم. قلت: لا بد أن نايف يعلم بهذا العبث الآن، ويشك فى أننى فقدت صوابى من الغيظ والفشل، وربما أحتاج إلى منافقته شخصيًا. قال يمكننى أن نرتب لكما موعدًا.. فوافقت. لكن هذا الموعد لم يأت، فقد سافر نايف فجأة إلى أمريكا، ووجدت بهاء الدين يحتضننى وفى يده جواز سفرى، فلم أعد الحقائب ولم أودع الأطفال، فقد تسللت من القصر إلى المطار، وهناك وجدت من ينتظرنى من قبل عبد العزيز فأومأ لموظف المطار فختم جوازى، يومها لم أصدق أننى على متن الطائرة المتجهة رأسًا إلى باكستان، فتذكرت طرق الهروب التى فكرت فيها كجرذ مختبئ فى عربات نقل ومخازن سفن وبطون جبال، لكن ما أجمل بهاء الدين، وما أيسر خططه، كأنه ولد ليكون ملاكى الحارس. بعد أن عبرت أجواء المملكة شرعت فى كتابة رسالة إلى بهاء الدين ليدفع بها إلى الأمير عبد العزيز: "خالى العزيز، لم يكن أمامى سوى أن أغادر أحب البلاد إلىَّ بعدما نزل الكفار على أرضها، ورضى قادة الإسلام بنزولهم، لم يكن أمامى غير أن أغادر بلا عودة بعدما اعتقلت فى بيتى، وصارت حياتى أهون عليهم من جناح بعوضة، فاغفر لى خديعتى إياك وإياهم، وقل لهم فلا نامت أعين الجبناء، وما

فعلت ما فعلت عن أمرى، لكنه الله القائل "ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها". ثم دفعت بالرسالة إلى قائد الطائرة ليسلمها لأمن المطار حين عودته.

* * *

(٤٨)

خريف ١٩٩٣

عبرت الحدود الباكستانية قبل أن يصل خطابى إلى عبد العزيز، كنت أعلم أن المملكة لن تقبل صفعة رجل كانت تظنه من صنائعها، فتركت المطار وتوجهت إلى أقرب نقطة لرجالنا، فتنادوا أن الأمير قد حضر، وحملونى إلى القادسية، ووقف الصبَّاح وصهيب يتبارون فى ذبح الأغنام ابتهاجًا بفك أسرى، قالوا: علمنا بما حدث. قلت: إن الأيام القادمة ستشهد انقلاب الكثيرين، وليس أمامنا سوى أن نشترى ولاءهم. فاتجه الصباح فى جولة إلى بعض الدول ليجدد العلاقات وينثر الأموال ويطلب المعونة، وإلى حد ما نجح فيما ذهب إليه، فأصبح لدينا خط مفتوح مع بعض أجهزة الاستخبارات، كان فى مقدمتها باكستان، قال إنها ظهيرنا

الذى لا بد منه، ولو حدث شيء فستجعل علمه عندنا قبل منفذيه. مدحته على ثقته بنفسه ورحت أتابع الحياة التى ليس لى سواها الآن، كانوا قد حصدوا خشخاش العامين الماضيين، وجاءهم أناس من قبل الباكستانيين لشرائه، لكنهم فضلوا الإيرانيين والأتراك عليهم، ويبدو أن هذا قد أحدث جفوة بين الصباح وصهيب، فوجهة نظر الأخير كانت أننا لا نستطيع أن نستغنى عن فِنائنا الخلفى، لكن الصباح قال إنهم لا يعطوننا شيئًا إلا بثمنه، فكيف نعطيهم بأقل من الجميع. بدا لى أن كلا منهما قد اتخذ قراره بأن ينفصل عن الآخر، ففى الوقت الذى يرسل فيه صهيب برجاله إلى كل مكان، كان الصباح بقامته القصيرة ولحيته التى تغطى صدره يومئ ويبتسم دون أن يناقشه فى شيء، فبعد أن نجح فى زراعة الخشخاش ووجد من يطلبه صارت كلمته هى العليا، وأصبحت مجلته تقرأ على مساحة أكبر، وصار الجميع ينظر له على أنه الأمير أو نائبه، وهو بدوره كان يستمتع بهذه النظرة ويسعى إلى تأكيدها. عجبت لقدر الدنيا، فصهيب المقدام الشجاع المحارب ليس النائب، والصباح الوديع المهادن يصبح بضربة حظ كل شيء، لكننى فيما يبدو لم أكن أعلم قدراته بشكل كاف، ففاجأنى ذات مساء بأن حياتى فى خطر، وعلىَّ أن أغير مكان إقامتى، فثمة من تم شراؤهم من مجموعته لصالح بعض البشتون، لكنه لا يتوقع أن الأمر خاص بهم، ربما كان الخطر من غرباء لم يرد تسميتهم فى

ذلك الوقت، ابتسمت وأنا أتوقع أن هذه إحدى حيله ليجعلنى دمية أتحرك من خلاله، قلت لا ضير من اللعب، ونفذت ما كان يريد وانتقلت. مضى يومان ولم يحدث شيء، كان يؤكد كل ساعة من خلال تشديداته الأمنية على رجاله أنه متأكد من مصادره، وأن شيئًا ما سيحدث، فقد أرسلت المملكة خلفى رجالها إلى باكستان، لكنه لا يعرف إن كان الأمر سيأتى على أيديهم أم على أيدى غيرهم، فرحت أرميه بالكلمات، وأرفع من روح صهيب الذى عاملته كرجل حرب يُعتمد عليه، كنا نفكر فى أمر الجزائر وما آلت إليه بعدما نزل الجيش إلى الشوارع وقبض على جبهة الإنقاذ عقب إضرابها العام، سألته عن وضع رجالنا هناك فقال إن بعضهم اعتقلته السلطات، لكنهم لم يحاكموا، ويبدو أن هذا لن يحدث. شعرت أن الأمر مخيب للآمال، فقد كان الأمل يحدونى فى الانتقال إليها، ولا يمكننى القول بأن ما قاله الصباح لم يثر فى نفسى الخوف، بل شعرت أن سخريتى من دواعيه الأمنية ليست سوى محاولة لأبدو قويًا أمام الرجال، فزايدت عليه وطلبت أن أعود إلى مركز القيادة كما كنت فرفض، ورفض صهيب والبنشيرى وغيرهم، شعرت لأول مرة أن الكل خائف، والخوف أصبح عاملا مهمًا فى توحيد صفنا، فى النهاية استعذت بالله ووضعت رأسى على فراشى لأنام. لم يكن شبيب الذى جاءنى، لكنه قطرى بن الفجاءة: أقول لها وقد صارت شعاعًا.. من الأبطال ويحك لن تراعى، فصبرًا

فى مجال الموت صبرًا .. فما نيل الخلود بمستطاع. وصحوت على ضربة شبيب لباب الإمارة، حين صرخت فى الحارس وجدت خمسة يقفزون إلى غرفة نومى فأخافونى أكثر مما كنت عليه، قلت ما الذى حدث، قالوا إن طائرة ألقت عدة صواريخ وفرت، أخذت سلاحى وأردت الخروج فمنعونى قائلين إن لديهم أوامر بعدم السماح لى بالخروج مهما حدث.

حين جاءنى الصباح شرح الأمر قائلا: إن المملكة والولايات المتحدة ضغطتا على باكستان من أجل الوصول إلينا، وقد مدهم بعض القادة بصور وخرائط عن مكان إقامتك، فوصلنا الخبر كما أبلغناك، لكنك كنت هازئًا من كل شيء، لم تكن هذه محاولة للاغتيال ولكن للقبض عليك، فقد قامت طائرة بعملية إنزال على مبعدة كيلو متر من الموقع القديم، فتركناهم ينزلون ثم تعاملنا معهم، كان من بينهم أمريكان وسعوديون، وكانت صرخاتهم واضحة بالليل، حين فشل أمرهم تراجعوا نحو الطائرة التى هبطت على الأرض، بينما قامت مروحية أباتشى بإطلاق صواريخها علينا. لم نكن مستعدين لذلك، فتركناهم يحملون موتاهم ثم رحنا نمطرهم برشاشاتنا عن بعد، والمدهش أن الأباتشى اختل توازنها وارتطمت فى الجبل فسقطت، بينما أقلعت طائرة الإنزال تاركة بعض جنودها على الأرض، فقبضنا عليهم وأودعناهم كهفًا لا يعرف مكانه الجن الأحمر. يومها علمت أن الأمر جاد، وأن الكفرة الذين لوثوا أرضنا جاءوا خلفى ليلوثوا هذا

المكان، فحمدت الله على ما منحنا من نصر وأمرت أن يصبح حطام الأباتشى مزارًا ندعو إليه الصحفيين والإعلاميين كى يكتبوا عنه، رفض الصباح قائلا إن هذا يسهل أمرهم ويضعف خطتنا الأمنية. لكننى أصررت على موقفى، فأحضر عددًا من رجال الإعلام بطرقه السرية كى يحاورونى، يومها خرجت على العالم مهددًا الأمريكان، ومفتضحًا حكام المسلمين الذين لم يراعوا ذمة الله ولا ملته، ثم شرحت كيف انتصر جند الله على الطغاة الذين أرادوا قتلى لأننى أطالب بجهاد المسلمين وخروج الكفرة من أرض أعزها الله وحرَّمها عليهم، ثم صورنا حطام الطائرة وعليه الجنود المأسورين.

حين انتهى اللقاء أعادهم الصباح إلى باكستان لينطلقوا منها إلى بلادهم، وانتظرنا أن نسمع دوى اللقاء، لكننا لم نسمع سوى خبر عابر عن محاولة سعودية فاشلة لاغتيالى، لقد اجتزأوا الأمر وحولوه إلى خبر سابق، ولم يمر يومان حتى وجدنا أصدقاءنا يتحدثون عن رغبة أمريكى فى لقائنا، رفض صهيب وقبِل الصبَّاح، وكنت أميل إلى الرفض من القبول، لكن الداهية أقنعنا بأهمية التعامل كأقوياء لمعرفة مقاصدهم. كان الرجل فى الأربعين من عمره، حسن الثياب، يتحدث بالعربية كالإنجليزية، علمنا منه أنه من أصول مصرية، وكان يعمل بالجيش الأمريكى حتى تقاعد، وأن اسمه روبرت، ويعشق التاريخ العربى القديم، كان منبهرًا بالمكان والرجال وحياة الكهوف والجبال، قال إن هؤلاء الشجعان هم

الذين وقفوا أمام الدب الروسى العنيد. وبدا لى أنه جاء فى مهمة غير التفاوض، فازداد ارتيابى وخوفى، همست فى أذن الصباح ألا يغفل عنه، فقال: لعلكم تستغربون أننى أحب الإسلام وأتحدث عنه رغم أننى لست مسلمًا. قال إن آباءه كانوا مسلمين، لكن أمه رحلت به إلى أميركا وجعلته مسيحيًا، فتعلم العربية نكاية فيها، ودرس التاريخ العربى رغبة فى تأكيد أصوله، ودخل الجيش الأمريكى لأن هذه كانت الرغبة الأخيرة لأمه التى لم يرد معاندتها وهى على فراش الموت، لكنه لم يكن يحب الأمريكان كى يفقد حياته من أجلهم، فتقاعد بعد عشر سنوات من الخدمة ليأخذ معاشًا لا يضطره للبحث عن وظيفة جديدة. شعرت أن الأمر لا يعدو قصة محكمة من أجل التعاطف فى التفاوض. فسألته عما يريد، قال إن مهمته التفاوض من أجل حطام الطائرة، قلت: والجنود. قال: إن شئتم أن يكونوا فى التفاوض فلا مانع، وإن رفضتم فلا ضير. ابتسمت، فقال إن هذا طلب بلاده. ساعتها قمت من مجلسى تاركًا للصباح مفاوضته، لكن الصباح فى المساء جاءنى يبتسم، قال إن روبرت أعلن إسلامه، وأمنيته أن يأخذ العهد على يديك، فضحكت: إلى هذا الحد هو بارع؟ قال: وما الضير، نعطيه الفرصة ونجربه، فلن يعرف أكثر مما عرف. قلت: لا بأس، تفاوض معه كما تريد. قال: على أن يقبِّل يدك ويصلى خلفك. قلت: أهذه شروطه؟ قال بل أمنيته الوحيدة.

فى المساء انتهى التفاوض على عشرة ملايين فى مقابل حطام الطائرة، وعشرة فى مقابل الجنود، وجاء الرجل فقبل يدى وتلا الشهادة ثم طلب أن يصلى خلفى، تعجبت من رجل لا يعرف شيئًا عن دينه ويريد الصلاة، فقلت أو تعرف الصلاة؟ قال: سأقف كما تقفون وأفعل كما تفعلون، فطلبت من الرجال أن يعلموه أداء الصلاة، وحين جاءت صلاة العشاء وجدته ارتدى ثوبًا باكستانيًا وراح يزاحم للوقوف خلفى، لم يكن هناك ما يثير الريبة، بل كان الجميع مستبشرًا بدخول أمريكى فى ديننا، شرعت فى الصلاة وعلى ابن الخامسة يقف ملتصقًا بى كما اعتاد، لكنه هذه المرة انشغل بالرجل ذى الملامح الشقراء والثياب الباكستانية، وفجأة وجدته يتأتئ وفى يده قلم ينبض بضوء خافت، وبفزع تذكرت جهاز مراقبة الخطوط الذى أحضره بهاء الدين، ودون أن أترك الصلاة نزعت من يده القلم وألقيت به بعيدًا، فما كان منه إلا أن انفجر مثيرًا على وجوهنا الرمال والحصى، فارتميت على علىّ الذى صرخ فزعًا، وارتمى الرجال بعضهم على بعض كما لو أنهم فى أرض المعركة، حين أفقنا من المفاجأة بحثنا عن الغريب الذى اختفى، وبينما أخذت فى هدهدة علىّ وتخفيف الصدمة عنه كان الرجال يطاردون شبحًا يتقافز بين الصخور، لكن إلى أين المفر وتحت كل حجر رجل.

(٤٩)

تكررت المحاولات وتنوعت، لكننا كنا أكثر حذرًا وكان روبرت الأكثر جرأة، بعد معركة غير حاسمة أصيب بعدة رصاصات أودت به، كان قاتله يرغب فى أن يحافظ على حياته، لكنه خدعه وفر من يده، فلم يجد الرجل سوى أن يرميه بزخة من رشاشه قضت عليه، ولم نستطع معرفة المزيد عن الرجل الذى أسلم أمامنا، وكان على وشك أن يقضى علينا فى أول صلاة له، لكنه ترك لنا أمرًا واضحًا وضوح البدر، وهو أن هذا المكان غير آمن، خاصة وقد نشب الانقسام بين زعماء الحرب الأفغانيين، وقد حدثت تطورات كبرى فى الدولة الشيوعية التى شاخت سريعًا، فقام انقلاب على جورباتشوف وتمت إقالته، لكن يلتسن خان الانقلابيين وأعاد جورباتشوف إلى الحكم، ولم تمض شهور تأكد فيها يلتسن من قوة موقفه وهيمنته على الأمور حتى أسقط

جورباتشوف وأعلن نفسه رئيسًا إلى أن جاءت به الانتخابات العامة، فقام بحل الاتحاد السوفيتى داعيًا إلى كومنولث بديلا عنه، لكن عددًا من دول الاتحاد رفضت الدخول فى التحالف الجديد، وكان ذلك تأكيدًا لمدى الضعف الذى وصل إليه الدب العظيم، مما شجع الأفغان على إسقاط نجيب الله ونظامه، فعقدت باكستان اجتماعًا لرئيس حزب الجماعة الإسلامية برهان ربانى، ورئيس الحزب الإسلامى حكمتيار، ورئيس الحزب الإسلامى يونس خالص، ورئيس جبهة التحرير صبغة الله مجددى، ورئيس الاتحاد الإسلامى عبد رب الرسول سياف، وحركة الانقلاب الإسلامى نبى محمدى، وحزب المحاز الملى بير جيلانى، وحزب الجمعية الإسلامية الشيعى إسماعيل خان، واتفقوا جميعًا على أن يتولى مجددى رئاسة البلاد لمدة عام، ثم يأتى من بعده ربانى رئيسًا، وحكمتيار رئيسًا للوزراء، إلى أن تقام انتخابات تشريعية. لكن الخلاف دب بمجيء ربانى للحكم، فرغم أنه رجل قوى ويريد لبلاده أن تكون دولة قوية غير أنه لم يعلن موقفًا عدائيًا ضد الأمريكان، بينما كان حكمتيار متفقًا معنا فى ذلك، وطالب بخروج الأمريكان من ديار الإسلام، وكان التنسيق غائبًا بين الرجلين، مما دعا كلاهما إلى تكوين تحالف من بقية الأحزاب، ورأت باكستان أن الأمر ذاهب إلى حيث تريد، فربانى الهادف لبناء دولة قوية لا يجب أن يدوم فى الحكم، ولا بد من إذكاء نار الخلاف بين الرجل ورئيس وزرائه، لكن

أحمد شاه مسعود قائد جند ربانى تمركز فى قندهار ولم يترك الفرصة لحكمتيار ورجاله كى يسقطوا الحكم، فدارت الحرب بين الفريقين، واستقل إسماعيل خان بهرات، وانعدمت السيطرة على الأمن، وسادت الفوضى، واخترقت أجهزة استخبارات من شتى الجنسيات.

لم يكن أمامنا سوى الصمت بعدما حاولنا التوسط بين الإخوة الأعداء، لكن ربانى رفض أى صيغة غير التى اتفق عليها الجميع فى بيشاور، قلت ربما يرى الآخرون أنك ستستغل سلطتك فى تهيئة البلاد لانتخابات تفوز فيها. لكنه قال إن عدداً من حكومات الجوار والدول الإسلامية لا تريد حكمًا يسعى إلى توحيد البلاد واستقلال قرارها، وإن ما يفعله حكمتيار ما هو إلا ما يريدونه بالضبط. شعرت أن الرجل يمتلك جانبًا قويًا من الحقيقة، وكان لا بد أن أسمع من الجميع، فتوجهت إلى حكمتيار، الذى قال إنه لا يريد غير قيام دولة دينها الإسلام ودستورها القرآن وغايتها الله، وهذا ما لا يريده رباني. حاولت أن أجعله يهادن حتى موعد الانتخابات الذى لم يحدد فقال: وهل تعتقد أن شاه مسعود سوف يتركنا نقيم انتخابات حقيقية؟ قلت: أنتم توزعون أنفسكم وتمزقون بلادكم. قال: عدونا الأمريكان والروس وكل من لا يريد أن تقوم للمسلمين قائمة، ولن أترك ربانى يجيء بهم إلى بلادنا، كما جاء بهم أمراء مملكتك إلى الحرم.

لم يكن أمامى غير مجد الدين الذى يمكننى أن أرتمى على صدره وأبكى، كان لقائى به تحت جناح الليل، وكان صوته منكسرًا وزاهدًا فى كل شيء، ولم تعجبنى نبرته اليائسة. قال: ما الذى يمكننى فعله، إنهم لم يدعونا إلى مؤتمرهم، لم ينظروا إلينا على أننا شركاؤهم فى الحرب، فماذا أفعل؟ قلت: أنت شريكهم، وكان من الممكن أن تكون رمانة الميزان فى أى خلاف، لكنك فرقت رجالك، وأهدرت فرصة كانت بيدك، وليس عليك الآن أن تتأهب لاستعادتها من جديد، وما زالت معسكراتنا قوية وآمنة، وما زلنا نستطيع تدريب مدارس الطالبان كلها، وقد أمرنا ديننا بالجهاد الأكبر مثلما أمرنا بالجهاد الأصغر، وليس هناك أكبر من درء الفتنة التى قد تأكل شعبًا بكامله لسنوات طويلة. حين انتهيت من كلامى قال: كأنكما اتفقتما على هذا. قلت: من تعني؟ قال: مولانا فضل الرحمن الذى تحالف مع بينظير بوتو، وتولى لجنة العلاقات الخارجية فى البرلمان الباكستاني. حاولت أن أدفع بالأمر إلى الأمام مؤكدًا ما قاله فضل الرحمن، لكننى وجدت مجدًا متحرجًا من الصراع مع حكمتيار، لأن كليهما بشتونى، فقلت: حكمت لم يستطع السيطرة على البلاد بعد، وبوتو ترغب فى استقرار الوضع فى فنائها الخلفى، ولن يدوم صمتها على هذه الفوضى، وإن لم تتحالف معك اليوم فسوف تتحالف مع غيرك غدًا، وليس أمامك إلا اغتنام الفرصة التى جاءتك على طبق من ذهب.

كانت فتنة، ولم يكن الوضع مؤهلا لدخول غرباء فيها، فحاولنا قدر ما نستطيع تأمين معسكراتنا التى قد يطالها الخطر، رغم تعهدات الجميع بحمايتها ما لم نتدخل فى شيء، تدارسنا كل ذلك وقلنا إن علينا أن نتحرك قبل أن يخطئ أى منا أو منهم، لكن إلى أين؟ قال صهيب: إننا نقف فى موقف المدافع، وأعداؤنا تغرهم جيوشهم وأجهزتهم العديدة، فلم لا نبرز لهم جزءًا من قوتنا، فنفعل بهم كما نفعل فى مصر والجزائر، وكلما شعروا أننا قادرون على الرد بالمثل فسوف يفكرون طويلا قبل أن يقدموا على عمل شيء ضدنا. لاقت فكرته صدى فى نفس الصبّاح وأبى حفص والخباب، فوضعنا الخرائط وجلسنا نناقش ما لديهم من نقاط ضعف ونقاط قوة، فكانت الصومال واليمن مرشحتين لتنفيذ الضربة التى نريدها، لكن أبا حفص قال: ولم لا نضرب أمريكا نفسها؟ باغتتنا الفكرة لكننا شعرنا بالحماس تجاه ذلك، فالعين بالعين والسن بالسن.. لكن كيف؟ حين أعيتنا الإجابة والأفكار جعلت الأمر فى عنق أبى حفص والخباب، قلت فخذا من أردتما من رجال ودبرا صفعة تليق بنا. ثم استدرت لصهيب قائلا: لكننى أشتاق لسماع أخبار تسرنى عن الأمريكان فى الجزيرة.

لم تعبر أيام حتى سمع العالم بانفجار فندق فى عدن أودى بحياة ثمانين من رجال المارينز، هللنا بالفرح وشارات النصر، لكن الفرحة الأكبر جاءت مع انفجار مركز التجارة

العالمى بواشنطن، فقد أحدث الرعب فى قلب الإدارة الأمريكية، وأدركوا أننا لسنا ضعفاء، ويبدو أنهم استوعبوا الرسالة، فلم تمض أسابيع حتى شهدنا تغيرًا طيبًا من جانبهم، وإن حمَّلوا الشيخ الضرير التهمة كاملة، لم نبال بذلك، لأن أغلبنا لم يكن متعاطفًا معه، ولم نشعر بالحرج إلا تجاه صهيب، لأن الضرير شيخه، واسيناه بأن الرجل كان ولا يزال مجاهدًا، وأنهم وإن حكموا عليه بالسجن مدى الحياة فلن يمنعه هذا من ممارسة جهاده، وغدًا أو بعد غد نتفاوض معهم من أجله.

كانت هذه بدايات النصر، لكن القلق ظل يقض مضاجعنا فى أرض غير آمنة، وكان لا بد من توفير ملاذ آخر، كانت السودان بجزيرتها الخضراء ومستنقعاتها العديدة هى الفردوس الذى نبحث عنه، وكان لا بد من جس النبض، فقلنا للبنشيرى أن يعبر إليها ليرى إن كان ثمة قبول لوجودنا فى أرضهم أم لا، وحملناه رسالتين للترابى والبشير، كانتا تحثانهما على مواصلة الإصلاح وبناء الدولة الإسلامية، وتقولان إنه لولا شواغلنا لكنا أول من يضع أيدينا فى أيديهم من أجل نهضة جادة لبلاد الإسلام. فكتب لنا البنشيرى أنه وجد قبولا من كلا الطرفين، وإن خيوط اللعبة الآن فى يد البشير أكثر من الترابى.

طرحت على الصباح فكرة تأكيد علاقتنا بالبشير، فاتخذ طريقه إلى السودان ليشاركهم فى احتفالات عيد الثورة

الإسلامية، ولقى ترحابا من الجميع، لكنهم أبدوا تخوفًا على ثورتهم، فالأمريكان رفضوا استقبال الترابى ويريدون فرض عقوبات عليه بسبب الانفصاليين فى الجنوب، ورأى الصباح أنها فرصتنا كى نقدم لهم ما يتمنونه، وفوجئ به مجد الدين واقفًا على رأسه فى مدرسة الطالبان، هناك أقنعه بالتعاون مع فضل الرحمن، على أن يقنع الآخر بوتو أن تذيب الجليد المتراكم بين الترابى وكلينتون. حين ذهب مجد لزيارة فضل فاتحه الأخير فى معاودة الجهاد، فاشترط عليه ما طلبه الصباح، ولم يكن أمام فضل سوى أن يبلغ الرسالة لرئيسة وزرائه فضحكت: مجد مغرور. لكنها ما إن التقت مادلين أولبريت حتى طلبت منها زيارة واشنطن، وهناك استطاعت أن تذيب الثلج على مائدة منفردة، ورغم أن كلينتون أضاع الكثير من الوقت فى مغازلة عيون الشرق وأدبه غير أنه استسلم فى النهاية قائلا: يبدو أنك تفضلين البشرة السوداء عن العيون الزرقاء، فلما اعتذرت له كافأها بالسماح للترابى أن يزور واشنطن.

استغرقت الوساطات والاتصالات ستة أشهر بعنا خلالها محصول العام من الخشخاش، وطورنا طرائق اتصالنا بمجموعات صهيب فى العالم العربى، وأرسلنا مجموعات آخرى إلى جنوب السودان، ونزلت جماعة شواطئ عدن، فاتسعت خريطتنا فى اليمن، وكان علينا أن نخلى معسكرين

لرجال مجد، ولم يكن أمامى غير أن أنتظر شهرًا من رحلة الترابى والبشير إلى واشنطن كى أفاجأ بطائرة خاصة تجيء لنقلى إلى الخرطوم وسط حراسة مشددة.

* * *

(٥٠)

خريف ١٩٧٧

حين يقف المرء أمام شخصيتين كالترابى والبشير فلا يسعه إلا أن يحب الأول ويعمل مع الأخير، فالترابى مفكر كبير وإن اختلفت مع آرائه، أما البشير فيرى الواقع ويمشى حسب معطياته، هكذا وجدت نفسى أفاضل بين الرجل، وما إن وصلت حتى علمت أن انقلابًا قاده البشير وأخرج رئيسه من السلطة، فبسببه ساءت العلاقات مع كثير من الدول، وساءت علاقته نفسه برفاقه وأصدقائه ورجال جبهتة، وعلى رأسهم البشير الذى تحالف معه للقضاء على حكم المهدى، ومن ثم ترك الجبهة وأسس حزبًا أسماه المؤتمر، ثم طوره إلى المؤتمر العربى، وضم إليه ممثلين عن خمسة وأربعين دولة، لكن سخريته اللاذعة من أصدقائه واستبداده برأيه جعلت

البشير يتفق مع كثيرين على التضحية به فى أول انتخابات تجرى، ليكون هو رئيسًا للدولة والوزارة معًا بحكم القانون، وعلمت فيما بعد أن جزءًا من رسالة البشير التى حملها الصبّاح لفضل الرحمن ثم بوناظير بوتو التى أبلغتها لكلينتون كان من بين سطورها فتح الطريق أمام رجل معتدل يقود البلاد بعد الترابى، ويبدو أن الأمريكان رأوا ذلك حلا أمثل لما تعيشه السودان من خلافات فى الداخل والخارج.

يمكننا القول إن فترة وجودنا فى السودان كانت أزهى فترات عملنا المنظم، فقد أقمنا العديد من المصانع والشركات والسدود، وزرعنا مئات الهكتارات فى أرض الجزيرة، وحفرنا الترع ومهدنا الطرق وأرسينا قواعد الموانئ والمطارات، حتى أننا شعرنا أن السودان كان مملكتنا الضائعة، وكان البشير فرِحًا بالإنجازات التى لم تحقق إلا فى عهده، ولم يقلقه غير جون جارانج الذى رفض تطبيق الشريعة الإسلامية على الجنوب وأصر على الانفصال، حاولنا أن نمد يد العون فى هذا الاتجاه، فأسسنا ستة معسكرات للتدريب فى عطبرة والنيل الأزرق، وحملنا الرجال من شتى البلدان لتدريبهم على أهداف حية، حتى بتنا مناوئين لجارانج، وصرنا نسيطر على مناطق النزاع التى تركها لنا الجيش، ورحنا نعد للذهاب إلى الصومال. كان البنشيرى المسئول عن هذا الملف المعقد، فكان يجمع المعلومات ويرسم الأهداف ويدرب الرجال وينزح بهم إلى المعارك، حتى أن الغرب المناصر لكل حركات الانفصال

بدأ يشعر بالقلق، واليهود الذين بنوا عشرات السدود فى كينيا وإريتريا وإثيوبيا راحوا يصرخون من خطرنا على مصالحهم، أما الأمريكان فقد هبوا لنجدة إخوانهم الفرنسيين فى الصومال، فانسحب من جاءوا لنجدتهم وتركوهم يواجهون مصيرًا لا يحسدون عليه، فى البدء كانوا يخشون الفضيحة، لكنهم سرعان ما خلعوا ملابسهم.

لم تخل الحياة من منغصات، فقد كشرت المملكة عن أنيابها وهددتنى بأولادى، لكن كل شيء بعد رضاء الله يهون، وكل أمر بعد نصرة دينه وطرد الكفار من بلادنا هين، فأرسلوا من جديد يتوددون، ولم أنخدع برسلهم وكلماتهم المعسولة، فراحوا يرفعون من درجة تهديداتهم إلى الحالة جيم، فعددت أهلى وإخوانى وبنىّ فى زمرة الشهداء، وأرسلت لهم أن اخلعونى كما خلع معاويةَ أهلهُ، فقرأت على شبكة المعلومات الدولية بيانهم بخلعى، وقرأت أسماء الموقعين وفى مقدمتهم أمى وزوجها، وحمدت الله أننى لم أقرأ اسم أى من زوجاتى وأبنائى، فعدت أبحث عن بهاء الدين فلم أجده، أرسلت له: لله درك، ما حملك على هذا الشقاء، بع ما لديك والحق بنا. فقال: ما عادت الشيخوخة تسعفنى على ذلك، لكننى سأبيع ما يعينك على ما أنت فيه. ثم أرسل بأسماء رجال كنا نستثمر أموالنا لديهم: احلبوا بقرتكم ولا تبيعوها. وأرسلت المملكة من يقول لي: إن لم تعد فسنخلع عنك حمايتنا. فأطحت فى وجهه بجواز سفرى: خذوه وأريحونى

من عاركم. وعلمت فى الصباح أن الملك أصدر قرارًا بحرمانى من دخول البلاد وسحب جنسيتها منى.

تملكنى الحنق وخشى الرجال أن تعاودنى نوبات الحزن، وعرضوا علىّ فكرة إنشاء هيئة عالمية للجهاد الإسلامى عوضًا عن لجنة علماء الإسلام التى أوقفت المملكة نشاطها، فوافقت وانشغلت باختيار أعضائها والترتيب لظهورها، واخترت لندن مقرًا لعملها، لكن حزنى لم يرفعه غير استيلاء مجد على قندهار، فهللت بالتكبير: لعلها البشرى والله ولى الصابرين. وكلما أسمع بانتصاراته أهلل فرحًا، ثم جعلت الصبَّاح سفيرًا لى فى عدد من المهام، وأرسلت صهيبًا فى أخرى قائلا: أنت رجل الملمات فكن لها كما هى لك. ولم يخيب الرجل ظنى، حتى أطلقت عليه الأجهزة السرية مسمى الشبح، وشعرنا بضرورة توحيد المجاهدين فى كل مكان تحت راية نرفعها سويًا، وكان الصبَّاح الداهية الذى أقنع الجميع بالانضمام لرايتنا، فجاءوا من شتى الأرض قادة وأمراء جماعات ومنظمات ولجان وأحزاب وحكومات، قلنا: عدونا كبير ومتعدد الوجوه والأذرع، ونحن لا نملك حكومة ولا دولة، لا نملك إلا ما وهبنا الله له من حب الإسلام وطلب الشهادة، وليس أمامنا إلا الاتحاد ليكون جهادنا واحدًا، ولا يقتلنا، فانظروا ماذا تفعلون. قالوا أنت أمير المؤمنين. قلت: أتبايعون على هذا.. فوضعوا أيديهم على كتاب الله ويد الله مع الجماعة. بعدها خطبت فيهم، وذكرتهم بسيرة الصحابة

والصالحين المجاهدين، وقلت: إنما أضعف المسلمين فرقتهم، واتخاذهم الكفار أولياء لهم من دون الله.. ثم أعلنت الحرب على الكفار ومن والاهم من المسلمين، فوقع الخبر على الأمريكان وأعوانهم كالصخرة على رأس الرضيع، ولهجت وكالات الأنباء فى كل مكان، وانتفض الأعداء يغازلون البشير ويرهبونه، وما كان لنا إلا أن نريه من آياتنا ما يجعل قلبه آمنًا مطمئنًا، فكانت موقعة أديس أبابا، وغزوة الصومال واليمن ولندن والرياض وعمان، وقلنا نريه الذهب، فاستكان إليه ونهض السودان من كسله إلى العمل، فكنا نمد الطرق ونبنى المدن وننشئ محطات الكهرباء والمياه، ونستخرج المعادن، ونصنع الأسلحة والأسمدة ومواد البناء وأجهزة الكهرباء، وتوجنا عملنا بمفاعل، أحضرنا أجزاءه المعقدة من دول السوفييت، ولم تسع البشير الدنيا حين بدأنا فى تشغيله، لكن الفرح لم يكتمل، فقد فقدنا البنشيرى فى إحدى غزواته بأعالى النيل، تجالدت أمام الرجال كى لا يعلم أحد أن الذى يطالبهم بالشهادة يرتعد من الموت، ولم نتعاف من مصابنا حتى أغارت من مصر طائرات على مشروعنا السرى فدمرته، ثم توالت الضربات على رجالنا فى كل مكان، فعلمت أن خيانة حدثت، واجتهدت فى معرفتها حتى شككت فى أصابعى، وكدت أقضى على أخلص رجالى لولا أن ألهمنى الله الصبر، فاستغفرته ورحت أعيد ترتيب البيت، جعلت صهيبًا قائدًا عسكريًا، وأبا ماجد أميرًا على الجزيرة،

والعباس رجل المهمات، وفضل الله مسئولا عن البيانات والإعلام، وأبا حفص مسئولا عن الجماعة فى أوروبا، وأرسلت سويدًا برجاله إلى البوسنة، وبركات الله برجاله إلى الشيشان، وأخذت أراجع أمر السودان، فوجدتها ضاقت علينا بما رحبت، ووجدت العقوبات تلاحقها من كل جانب، وناسها يعتقدون أننا جئنا لنأخذ بلادهم منهم، وما يأتيهم من خير فمن أنفسهم، وما يأتيهم من شر فمن الجماعة، بينما الأمريكان يذرعون الدنيا ذهابًا ومجيئًا، والبشير ما يلبث يئن أنين الجارية: وضعى فى الداخل وعلاقاتى فى الخارج. ونحن نعلم ما فى صدره وجوفه ونسأل أنفسنا: أين يحط صقر قريش هذه المرة.

كان السؤال يطن فى رأسى كنعيق غراب، فكل الدلائل تقول إن البشير أزمع على تسليمى، وكان علىَّ أن أسابق الزمن وأستحث الخطى قبل أن يلحقوا بى، فعبرت إلى تشاد ومنها إلى الجزائر لتحملنى سفينة إلى اليمن السعيد، كانوا دومًا فى أثرى، ولا يصحبنى غير خوفى وعلىّ، لكن اليمن فناء المملكة ورجالها، ولا أمان بين أناس قلوبهم معك وبنادقهم عليك، فكيف رأيتها يا بهاء الدين ملاذى الأخير؟ تعبت يا صاحبى من التنقل والترحال وفى عنقى صبى صغير، وما عدت أحسن تحسس الخطى بين فكى شرك لا حدود له، وأعداء من كثرتهم لا معنى لملامحهم ولا أنفاسهم اللاهثة فى أذنى.

كدت أفقد صوابى وأطلق الرصاص على نفسى ومن حولى، لولا أن لاح لى أبو سعيد بوجهه الواثق الهادئ، تمامًا كأول مرة رأيته فيها، قال: إلى مجد يا أبا عبد الرحمن. وانتبهت إلى أن الصوت حقيقة وليس هذيانًا، فاستدرت أتيقن منه، لكننى لم أر غير علىٍّ يغط فى نومه.

* * *

(٥١)

اكتب يا على: لله الملك من قبل ومن بعد، خسرنا دولة كنا نظن أنها عاصمة ملكنا الآتى، وعدنا إلى التنقل والترحال والهرب، كنا كفأرين مختبئين فى صندوق تتناقله الأيدى والعربات من مكان لآخر، فلا نرى النور إلا حين يتذكرنا شخص لا نعرفه بكسرة خبز أو شربة ماء، كانت الرحلة أكثر مشقة، والأيام أطول مما نحتمل، ولم يكن أمامنا سوى الصمت والالتزام بكل ما يُملَى علينا من تعليمات، فالأعداء شددوا على جميع الموانئ، وصورنا كمطلوبين ألصقت على الحوائط، والمال المبذول أكبر مما تحتمله عزيمة الضعفاء، وليس أمامنا سوى أن نرتدى ملابس النسوة ونركض فى جنح الظلام، وكلما سقطنا فى كمين قلنا لله الأمر من قبل ومن بعد، وكان الله معنا حتى دخلنا على برهان الدين فى تابوت انتظره أسابيع، فلم نشأ أن ندخل بهيئتنا هذه على مجد

الدين، برهان أرحم من نظرة ساخرة، فالفارق بين أن تكون صاحب دولة وبين أن تكون جرذًا صغيرًا فى صندوق كبير بلا شك، بكى الرجل حين رأى ما وصلنا إليه. قال: أما كان لرجالكم أن يحضروكم بطريقة أفضل! قلت: ولَّى زمان النعم. ومات بهاء الدين، وما كان لى أن أحضر جنازته ولا دفنه، مات آخر الأحضان التى كنت أرتمى فيها، وكانت آخر رسائله إليك. تمتم الرجل وعينه تنهمر بالبكاء: رحم الله بهاء الدين، كانت رسالته توصينى بك خيرًا، قال: أعرف أنك تحبه وهو يحبك وأن الخلاف بينك وبين مجد مستعر لكن بالله عليكم جنبوه كل هذا الصراع، جنبوه القتل والدم، فالله لا يجمع ظلمين على قلب بشر. قرأ برهان الرسالة وهو ينتفض. قال هذا عام الحزن، وهذا أول الفقد، لكنك آمن، هزمنا أو انتصرنا أنت آمن. سألته عن أخبار رجاله وموقفه فى الحرب. قال لقد أخذ مجد كل شىء، ولم يعد أمامى ما أبكى عليه، لقد سيطر على قندهار وكابول ومزار شريف وهرات، ولم تبق سوى بعض الأماكن التى يهيمن عليها الطاجيك ويحتمى بهم قلب الدين، وبعض الجبال التى يتحصن بها شاه مسعود، ويبدو أننا نستحق ألا نكون حكامًا على هذا البلد، لأننا فكرنا فى أنفسنا ولم نفكر فى مصالحه، وحده مجد الذى خرج لدين الله ولنصرة وطنه، لم تشغله خلافاتنا، ولم ينشغل بقتل الناس كما فعلنا، لكنه أسلم أمره لله ودخل الجهاد، خسرنا جميعًا وكسب الطالبان، فهنيئًا لهم ما ربحوا.

كنت قد أرسلت لبهاء الدين أسأله أن يطلب من برهان الدين استقبالى، فقال إن مجداً وضعه فى الحرب أقوى وأفضل. لكننى كرهت أن يشمت مجد، وأن أكون تابعًا بعدما كنت متبوعًا، فالموت أفضل من الهوان والذل. فتفهم بهاء ما أشعر به وأرسل قائلا: برهان ينتظرك، لكن لا تركن إلى أحد، ولا تصعب على نفسك أمر مجد. تذكرت أبا سعيد وهو يقول منك الإمامة ومنه الإمارة. لكن أبا سعيد رحل، وبهاء الدين أيضًا رحل قبل أن أصل أفغانستان، جاءنى الخبر فى الطريق، قالوا إن المملكة دست عليه خادمة فدست له سمًا، فكيف الحياة من بعد الأهل والأصحاب؟

بكى علىّ وهو يكتب، وبكيت وأنا أملى، فتركته يضع القلم ليغسل وجهه بالماء، وتذكرت الصلاة فهتفت فيه: أرحنا بها يا علىّ. فصعد صخرته وأذن بصوت كالنحيب، فاستغفرت الله ودعوت بالرحمة لرجل رسم الطريق وتركنا فى مفترقه، فكيف عرفوا بأمره، وهل وقعت رسائلنا فى يدهم؟ أتعبتك يا صاحبى مثلما أتعبت كل من عرفونى، وقتلتك مثلما قتلت البنشيرى وأبا سعيد والفضل وصهيب وغيرهم، فأى محنة نزلت علىَّ كى أرى أصحابى موتى، وأى لعنة تطاردنى فيحل الدمار والهلاك أينما حللت، اللهم خذنى إليك إن كان فى ذلك خيرًا لى، وأبقنى إن كان فى ذلك خيرًا للإسلام والمسلمين، اللهم إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى.

هزنى علىٌّ من كتفى وقال: أنت متعب. نظرت إليه فرأيت شاربًا خفيفًا يرتسم على وجهه، فضممته قائلا: لقد صرت رجلا يا على، فى سن كهذه كان جدك قد استقر فى المدينة مع ابن عمه، فى سن كهذه حمل السلاح وخاض المعارك بجوار إمامه، وها قد صرت قادرًا على حمل السلاح وخوض المعارك، فهيئ نفسك لذلك، فلا بد للقائد أن يكون فارسًا مهابًا، وهذا أمر قدره الله على آل بيتك، فلا تخذلهم بأنك لا تقدر الحرب، أو لا تحب الدم، فما قامت دولة أو سقطت إلا عليه، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، فهذه سنته فينا إلى يوم لا يعلمه إلا من قدَّره على الخلق.

* * *

(٥٢)

لم تمر أيام حتى بدأت أخرج للناس من جديد، كان برهان الدين من ساعدنى على تجاوز المحنة، هزنى قائلا: أريد أن أحقن دماء المسلمين، ولا أجد سفيرًا لذلك أفضل منك، أريد أن أترك الأمر لمجد على ما تركه الحسن لمعاوية. قلت: لكن مجدًا ليس معاوية. قال: ولا أنا الحسن، لكن لكل زمن رجال، ولكل دولة قادة، وأنا أرى مجدًا أقدر منى وأحق، ولا يجب أن يقتل البشتون أنفسهم من أجل رجلين منهم، ولا أظن إلا أننى خسرت الحرب. قلت: وحكمتيار؟ قال: هذا شأنه، لكنك لو خرجت إلى الناس ودعوتهم إلى وضع السلاح وحقن الدماء لسمعوا منك. هزنى الرجل بكلماته، وشعرت أننى ما زلت قادرًا على عمل شىء لصالح المسلمين. توجهت من فورى إلى قلب الدين، كانت معسكراته فى بطون الجبال، لم أفعل سوى أن اخترقت بجواد المسافة العازلة بين قواته وقوات برهان

الدين، تصورت أنهم سيأخذوننى أسيرًا مغمض العينين حتى أصل إلى الجنرال الثائر، لكنهم لم يفعلوا، بل حين اقترح أحدهم ذلك سبه قائده أمام عينى قائلا: ما كان لإنسان أن يعامل أبا عبد الرحمن كأسير وأنا حى، ولو دفعت حياتى مقابل ذلك فلن أندم. شكرته واتجهت معه حيث يكمن قلب الدين، وما إن سمع بما حدث حتى أنعم على قائده برتبة أعلى قائلا: من أحسن لأبى عبد الرحمن أحسنا إليه، فمثله لا يعامل معاملة الغريب، ولا يشك فى خلقه وعمله، ولولا أنه شفع للجندى الأحمق لقتلته أمام عينيه. شكرت الرجل قائلا: لقد أثلجت صدرى ومهدت الطريق لما جئت من أجله. قال: من عند مجد أم برهان؟ قلت: لا هذا ولا ذاك، لكنه من السماء. فضحك، قلت: وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، وقد حسم الأمر من قبل من هو أفضل منى ومنك، وهو الحسن بن على، فقد تنازل عن الخلافة حقنًا لدماء المسلمين. قال: أتريدنى أن أتنازل لمجد؟! قلت: أريدك أن تحقن دماء المسلمين، ولك ما اختاره الحسن لنفسه وما اختاره برهان. قال دعنى أتدبر أمرى وأستشر رجالى. فتركته وتوجهت إلى مجد فلقينى غاضبًا: أكان برهان رفيقك فى الحرب حتى تتركنى وتذهب إليه؟ أهذا ما أوصاك به أبو سعيد! هل ترانى أقل شأنًا منهما أم أقل قدرة على حمايتك؟ والله لو جئتنى وطلبوا دمك أو دمى لتقدمت فذبحونى كالبعير ولا أتركهم يمسون شعرة منك. بكيت من فرط ما

وبخنى به: أنا فى حال لا تسمح لى بالعذر أو الجدل، لقد فقدت أعز من رأيت على وجه الأرض، لقد فقدت سندى وحصنى وعقلى المدبر. تأسف الرجل وأخذ فى مواساتى وتعزيتى فى خالى، فرحت أغير الأمر إلى الوجهة التى جئت لأجلها، قلت: لم لا تحقنوا الدماء؟ قال: لا حاجة لنا بذلك، فثلثا البلاد فى أيدينا، ونحن الأعلون، فإن أرادوا أن يبايعوا قبلنا بيعتهم وأعطيناهم ما أرادوا، وإن رفضوا فهى الحرب. قلت: أترفض حقن الدماء؟ قال: لا، ولكن كيف أترك لهم أمرًا كان فى أيديهم، فأفسدوا واقتتلوا وأضاعوا البلاد. قلت: فلم لا نحكم الناس؟ قال: أخشى أن تكون الخديعة. قلت: لكل منكم خراج قريته التى يقيم فيها، وله الحكم عليها، والشورى على الحاكم، وإن اختلف اثنان على شىء فما توافق أى منهما مع الثالث عليه. رأيت مجداً يستجيب لكن نفسه ليست راضية، هدهدت عليه قائلا: لا تحزن إن الله معنا.

أخذت فى جولات لا تنتهى بين المتخاصمين حتى توافق الجميع على التحكيم، الوحيد الذى رفض هو شاه مسعود قائد برهان الدين، ذلك الذى يشعر بثأر شخصى بينه وبين مجد منذ هزمه وأخذ منه قندهار، فما إن علم بقبول رئيسه للتحكيم حتى أخذ الموالين له فى الجيش وانفصل مهدداً بقتل برهان ومجد، تعجبت للخارجى الجديد، وأرسلت من يطلب منه لقاءنا لكنه رفض، قلنا نحسم أمر الكبار ثم ننظر فى شأنه، فجاء مجد وبرهان وحكمت وقرأنا أم الكتاب

ويـاسـين وابـتـهلـنـا أن لعنـة الله عـلـى الـكـاذبين، ثم قلت لهم أن يفوض كل منهم أمره إلى حكم يتفاوض عنه، وأن لهذا الحكم أن يـخـلـعه أو يـثـبـتـه إذا مـا تـرامى الأطـراف حتى يـظـهـر الله الحق، قـالوا لك مـا تـريـد، فـجـمـعت الـعلـمـاء ورؤسـاء الـقـبـائل، وأنـاب ربـانى عـبد رب الـرسـول سـيـاف، فـأنـاب حـكمتـيـار عـبد الـرشـيد دوسـتم، وأراد مـجد أن ينيبنى عنه فـقلت له لا يـجوز للحكم أن يكون خصمًا، فـأنـاب أحد مشـايخ الطالبـان ويدعى عتـاب الـراجـفى، وتـحـدث كل من الـنـواب سـاعـة عن صـاحـبه وأخـطـاء خـصـومه، ثم اقـتـرعـنـا عـلـى أيهم أولى بـالأمـر من صاحبه، وقـبل أن نـبدأ تـلونـا القـسم بـالتـزام مـا تـكون عـليه الـنـتـائج، ثم نـاديت بـاسم مـجـد فـوقف خـمـسـة عشـر رجلا، فأخـرجناهم عن الحلقة، ثم ناديث باسم برهان فوقف عشرة، فأخـرجنـاهم عن الحلقة، ثم نـاديت باسم حكمت فوقف ثلاثة عشـر، ولم يبق سوى سبعة ظلوا غير قـادرين على الحسم، كل هـذا يجـرى ولا علم لأى من المتـنـافسين بالنتـائج، حين انـتـهـينـا أحضـرنـاهم وأعدنـا الـنـاس إلى أماكنهم وقلنـا لبـرهـان أن يبـايع للـرجلين على مـا اتفقنا عليه ففعل، وقلنـا لحكمـت أن يبـايع لصـاحـبيه عـلى مـا اتـفـقـنـا عـليه فـقـال: إن حـكمتُ فـلا بـد أن يخرجا من البلاد. وقلت لمجد أتبايع على ترك صـاحـبيك فى الأمـاكن التى يسيطرون عليها ومشـاورتهم فى الحكم فبايع. قلت وأنـا يدى فى يدك، ثم أجلسته على كرسى ورحت أنادى النـاس كى يسلموا عليه، حتى إذا اكتمل الأمر أمرت النـاس أن

يحملوا برهان وحكمتيار على المبايعة، ثم أمرتهما أن يكتبا لقادة جندهما أن يأتوا فأتوا، وأن يرسلا بدلا منهم رجالا من رجال مجد ففعلوا، ثم خصصنا لكل منهما قصرًا محاطًا بالحرس، لا يدخله أحد ولا يخرج منه أحد إلى أن يبايع آخر رجل من رجالهما، فقال ربانى: ليس مسعود منى ولا أنا منه. فأعفيناه من أمره بقذيفة أطلقتها كاميرا كانت تصور المؤتمر الذى عقده ليشكك فى نزاهة الاقتراع والبيعة لمجد الدين.

(٥٣)

انتقلت إلى قندهار بموجب الاتفاق الذى تم بينى وبين مجد، وأرسلت فى طلب صهيب والصباح وأبى حفص والفضل والبشير، وأقمت مجلسًا لشورى الإمارة، حاولنا فى البدء أن نكون هيئة مستقلة عن إمارة أفغانستان التى أعلنها مجد الدين، وقلنا إن مهامنا ليست فى الداخل لأن هذا شأن الأفغانيين، لكن عدونا كبير ومتعدد الأطراف، وعلينا تقليم أظافره وقض مضاجعه انتقامًا للبنشيرى وبهاء الدين، وطلبت منهم إعداد تقارير عن السفارات والقواعد والجاليات الأمريكية فى بلدان الإسلام وغيرها، واقترح الصباح عمل منظمة لجهاد اليهود والأمريكان فى العالم، فوافقته وأعددنا بيانًا بها، وكان الرجال قد تعودوا على استخدام الأجهزة الإلكترونية بشكل واسع فى السودان، فحذرتهم من مغبة الوقوع فى ذلك، وقلت: إن الأمريكان يمكنهم أن يهزمونا من

خلال أجهزتهم، وإذا أردنا أن نهزمهم فعلينا أن نبتكر طرقنا الخاصة بعيدًا عنهم. لكن الصباح أقنعنى بأن الله لم يخلق داءً إلا جعل له دواء، وأنه الآن يمتلك شبكة رجال فى العالم أكبر مما يتخيل الغرب، شكرته هازئًا من مبالغته، فأخرج من حاسوبه عشرات الصور لمسئولين غربيين ممن يطلق عليهم الصف الثانى، كان بعضهم جنرالات وأعضاء مجالس برلمانية، ضحكت وأنا أقول أين رجال المافيا، وبوغت به وهو يفتح ملفًا آخر لوجوه تفننت فى تمييز أنفسها، ملامح هندية وروسية ويونانية وعربية وصينية، كانت شتى الأجناس على شاشة الجهاز، والصبَّاح يبتسم كأنه الشيطان الذى أوقع العالم فى مخالبه، حين سألته كيف استطاع ذلك؟ قال ورثت تركة فحافظت عليها وطورتها، وحين يتوفر المال تستطيع أن تشترى من تشاء. كانت هذه المرة الأولى التى أدرك فيها أن الصبَّاح قطع مسافات بعيدة عن رفاقه، وأن جناحه أحدث تحولا كبيرًا لم ألحظه من قبل، وقفت لا أدرى هل أصفق له أم أكذبه، لكننى قلت: أريد أن أعرف فيم يفكر أعداؤنا الآن. قال: الأمر ليس بهذه الطريقة، فهم يفكرون ونحن نفكر والذى يستطيع أن يتحرك قبل الآخر هو الذى سيصيب، ومهمة هؤلاء الرجال أن يخبرونا بما لديهم، وعلينا أن نفكر ونتكهن بما ينوى الآخرون عمله، ولا ننسى أن لهم عيونًا علينا، والذى يكشف أوراق الآخر مبكرًا هو الذى سيربح. شعرت أن الصباح يتحدث كمدرسى الكيمياء، فتركته ومعمله

ورحت أتفقد معسكرات صهيب التى دب فيها النشاط، سألته عن السلاح وموارده وتأمين وصوله فضحك، ثم شعر أنه أخطأ فراح يبرر ما فعل: كنا نأتى به من أقصى العالم ونحن نجاهد الروس، فماذا بعد أن سقط الروس وصاروا يبيعونه على الأرصفة بقروش. ضحكت فسألنى عن مجد الدين، قلت: لم أره منذ أيام. قال: هل ثمة خلاف بينكما؟ قلت: لا، لكنه منشغل بأمور الدولة التى وقعت على عاتقه، ولا أود أن أبدو شريكًا له فى الحكم. قال: سمعت أنه يريد أن يحطم التماثيل البوذية. قلت: لا تصدق، فلا بد أن الأمر خدعة. لكننى حين عدت إلى البيت وجدت مجدًا يطلبنى، قال: ما رأيك؟ قلت: لا تفعل. قال: حطمها رسول الله حين فتح مكة. قلت لكن رسول الله لم يكن محاطًا وقتها بأعداء أشداء، وقد قبل صلح الحديبية فى وقت وحطم الأصنام فى وقت آخر. فوجدته يغير الموضوع: باكستان تضغط علينا لنسلمك إليهم، وأنا أخشى مشرف، فهو تربطه بالأمريكان مصالح كبرى، ولولاهم ما نجح فى الانقلاب الذى قام به. سألته وماذا ترى؟ فأجاب: لقد رفضت بالطبع. فربَّتُ على كتفه وخرجت أبحث عن الصباح. قلت: ما الذى لديك من أخبار؟ قال: عن محاولات تسليمك؟ قلت: وهل هناك غيرها. قال مجد: ومأساتنا فى السودان لن تتكرر. قلت: هل هناك من جديد؟ قال: ضغطوا على زوج والدتك كى تأتى إلى هنا. سألته: منذ متى؟ قال: منذ ثلاثة أيام توجه مبعوث أمريكى مع الأمير

نايف إلى مقر المجموعة، وهناك طلبوا منه بشكل واضح أن يضغط عليها لتأتى، وفى ذات اليوم دعيت الوالدة للقاء زوجة ولى العهد، وهو أمر لم يحدث منذ انتهت الوصاية عليك.

تركت الصباح وأنا أشعر أن شيئًا سيحدث، كانت أمى حاضرة فى مخيلتى، تمسح على شعرى تارة، وعلى رأس زوجها تارة أخرى، لم أتخيل أن يكون لأمى زوج بعد أبى، لكنها فعلت، لم أتخيلها تمسح على رأس رجل غيرى، لكنها فعلت، جانب كبير من أزمتى معها أدركته فى هذه اللحظة، وانتابنى شعور مرير بأننى رجل مغدور، وأن غدره جاء من أقرب الناس إلى نفسه، فتذكرت يوم نزل الأمريكان إلى المملكة، وكانت الشخص الوحيد الذى بحثت عنه لأرتمى فى صدره، لكننى لم أجدها، فقد أخذها زوجها ليحتمى فى بلاد الإنجليز من شبح الحرب، أخذها ولم تفكر فى غيره، لم تسأل إن كانت محنتى أكبر وضعفى أكثر أم لا. شعرت بمدى بؤسها، أرادت أن تخذلنى لكن الله خذلها، أرادت أن تقصم ظهرى لكن بهاء الدين جبره وأنقذنى، فأنى لى الآن بهذا الحكيم القوى لينقذنى من ضعفى أمامها؟ كنت أبكى والصور تتوالى فى مخيلتى، وراهنت للحظة أنها ستكون كأخيها ولن تتآمر على، لن تسلم أذنيها لزوجها الخانع، ولا بد أن قلبها سيحدثها بالخطر الكامن تحت الكلمات المعسولة، فلن تقطع آلاف الكيلو مترات لتأتى إلى كهف فى جوف الأرض كى تسلمنى إليهم.. لكنها جاءت.

أخبرنى الصباح أنها عبرت الحدود الباكستانية فى عربة جيب مكيفة، فقلت: لا تسمحوا لها بالمجىء إلا على عربة تخبرها كم صخورنا قاسية، لا تتركوا زوجها يشعر أنه جاء فى نزهة خلوية ليصطاد أرنبًا بريًا كما تعود. فظلت أيامًا تعانى من الريح والثلج والتيه فى الجبال حتى أتت حافية تتكئ على ذراع زوجها، فتركتهما حبيسين فى كهف مظلم وخرجت أتريض على جواد أشهب، ولم أعد إلا بعد أن وضعت الشمس رحلها ومات الغضب بين جوانحى، فعدت لأجدها واقفة كدمية عرجاء فى يد كهل أخرق، لم أسلم ولم أرتم فى حضنها كما تمنيت، وأشرت إلى الرجال فأخذوا الكهل وتركونا بمفردنا، كادت تصرخ من أجله، كاد يغمى عليها من قسوة الرجال فى جره وهو مرتعد كالذاهب إلى الموت، حين رأيت خوفها عليه ضحكت شامتًا: إلى هذا الحد؟ قالت: زوجى. قلت: نحن لا نقتل النسوة ولا الجبناء. قالت: أريدك أن تعود. قلت: ليذبحونى أم ليدسوا لى السم. قالت: بل لتدير أعمالك، فقد ترك بهاء فراغًا لا حد له، وهذه الصحراء لن تجدى فى شىء، كفى عنادًا وحربًا، كفى سعيًا وراء السراب، فلن يتركوك لتفعل ما تريد، ولن تكون هولاكو لتفتح العالم بالقوة، إنهم أقوياء يا صغيرى، ولن توجعهم ضرباتك الهزيلة، فعد معى لنحصل على عفو الأمير، ونعيش كما كنا فى بيت واحد.. يمكننى أن أطلب من زوجى الطلاق،

فقد كبرت، وهدنى موت بهاء، وما عدت أحتمل الفراق والعناد، فهل تفهم؟ ما عدت أحتمل.

لا أعرف هل بكيت أم هى التى بكت، لكننى ارتميت على صدرها كجبل من الثلج انصهر أمام الكلمات، فقبلت وجهها ويديها واستسلمت لمسحة أناملها على شعرى الطويل، ثم تذكرت أننى ما عدت ذلك الطفل المدلل، فتمالكت نفسى وانتصبت قائلا: لعل هذا آخر لقاء بيننا. فانفجرت كبركان من بكاء ظل مكتومًا لأعوام طويلة. قلت: ما عاد للطريق من اتجاه آخر، فقد آلمتهم، وأفقدونى أجمل من أحببت، فكيف يأمن أى منا للآخر؟ أعلم أننى لن أفنيهم، لكننى سأظل شوكة فى ظهورهم، وشرارة تشتعل كلما ظنوا أنهم أطفأوها، إلى أن يستيقظ غيرى وغيرى، فينهض الإسلام كجبل لا تطاله طائراتهم ولا قنابلهم، فلا تجبرى زوجك على شىء، ولتعلم امرأة من العرب أنها حملت بشهاب وضع الغرب والشرق على خط واحد فلا يجب أن تبكى. ثم أبقيتها ثلاثة أيام كسيدة للمكان، وودعتها فى حراسة وعربة سوداء كسفيرة فوق العادة للعالم.

* * *

(٥٤)

خريف ١٩٧٧

انفجرت شاحنة ملغومة أمام قصر أمير المؤمنين.. هكذا خرجت عناوين جرائد الصباح بعد الحادث بعدة ساعات، كان القصر المكون من طوابق ثلاث تنفذ منه أضواء خافتة فى أول الليل حين اهتزت جنباته بانفجار شاحنة، وكان أمير المؤمنين قد اجتمع برجاله ليؤكد عزمه على تحطيم تماثيل بوذا المنحوتة فى بطون الجبال، فقد أثار الخبر ردود أفعال كبرى، وراح السفراء والمبعوثون والمندوبون يقطعون طريق الحرير من قندهار إلى باكستان، من دول المشرق إلى دول المغرب، وأمير المؤمنين تحت عمامته السوداء يرطن بلغته البشتونية تارة والعربية والفارسية تارات أخرى، ولم يكن العالم قد استفاق بعد من مذابح سلوفيدان ميلوسفيتش لمسلمى البوسنة والهرسك.

ليس هناك مبرر لدولة ناشئة أن تقف فى مواجهة العالم.
هكذا قلت لمجد، فصمت قليلا ودار فى الغرفة دورتين قائلا: لن أحدثك عن إخواننا فى الشيشان أو البوسنة، لكننى سأخبرك بأمر أقسمت بعده لأطبقن قانون الله الأزلى "العين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص" إذا نصرنى الله، كان ذلك منذ ست سنوات حين تلقيت دعوة لمؤازرة المجاهدين فى الهند، كان الخلاف قد تصاعد بين الهندوس والمسلمين فى قرية بابرى، وكان بها مسجد قديم منذ أيام الفتوحات الأولى، بناه قتيبة بن مسلم قائد جند عبد الملك بن مروان فى خراسان، كان أثريًا محملاً بروائح المجاهدين والمتصوفة الكبار، ففيه جلس فقهاء وأقيمت حلقات علم على مدى عصور طويلة، وكان بالنسبة لأهله كعبة يقصدونها لتذكرهم بأسلافهم المجاهدين، وعلم الهندوس ذلك، فراحوا يعدون الخطة لهدم المسجد ووضع تمثال هندوسى لتحويل المكان إلى معبد، وقتها علمت الصحافة بالخبر وتنادى المسلمون من كل فج لحماية تاريخهم ومسجدهم، كنت واحدًا ممن أرسلوا إليه ليأتى ومن يريد من العلماء والشيوخ، فذهبت ونمت بجوار المسجد كغيرى من الآلاف، كنا نوجه نداءاتنا إلى العالم كى ينقذ الأثر الإنسانى العظيم، مستغيثين فيها بحكومة المؤتمر الهندى أن تتدخل، لكن أحدًا لم ينصت لنداءاتنا، فنشرنا البروفة التى أعدوها لهدم المسجد، وذكرنا الآلات التى أعدوها لساعة الحسم المزعومة، لكن أحدًا لم ينصت،

وفى اليوم الأخير وكان يوم ثلاثاء فوجئنا أن كل القيادات قد اتخذت طريقها لخارج الولاية فى إجازة مفاجئة، ولم يكن أمامنا غير أن نجعل من أجسادنا حائلا بين المسجد والجماهير القادمة بالمعاول والجرافات وزجاجات المولوتوف، حين اشتد الحصار وجدتنى أتجه إلى صحن المسجد لأصلى وأبتهل لله كى ينقذ بيته، حين غلبنى الحزن أسندت رأسى إلى المنبر ورحت أبكى، فأخذتنى غفوة رأيت فيها رسول الله ينزل عن ناقته ليمسح على رأسى قائلا: ذلك تقدير العزيز الحكيم، لكن العين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص. فاستيقظت بعدها على صوت رجل يحمل كرة من النار اخترقت النوافذ وجلست تزغرد على سجادة أسفل الثريا، فهرعت أساعده قائلا: ذلك تقدير العزيز العليم.

كانت الناس قد ألصقت ظهورها بالحائط أمام الجرافات والجماهير الهندوسية، بينما الجنود والحرس يطلقون عليهم الرصاص ويشعلون النار فى المسجد، يومها من لم يمت تحت الجرافات مات مختنقًا أو محترقًا أو مجندلا بالرصاص، ثم استبيحت القرية بمن فيها، والمسجد تعلو أنقاضه شاحنة لتنصب تمثالاً هندوسيًا، كان عدد الذين استشهدوا بالآلاف، والذين استبيحت بيوتهم وفروا خوفًا من القتل بلا حصر، والحكومة فى إجازة لم تعد منها إلا بعدما انتشر التطهير من بابرى إلى بومباى إلى دلهى، هنالك فقط ظهر القادة ونزل الجيش والشرطة ليلقوا بالمسلمين إلى قاع السجون... وفى

رحلة عودتى كنت أخوض فى دماء القتلى والجرحى وأعجز عن مواساة اليتامى والثكالى، ولا أملك إلا أن أقول لهم "ذلك تقدير العزيز الحكيم"، وأخفى فى نفسى "إنما العين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص".

حين انتهى مجد من حديثه وجدته يمد طرفًا خفيًا من جلبابه ليمسح دمعة تجمدت فى عينيه، فقلت: كأنك لم تدخل الحرب إلا لذلك، فابتسم قائلا: أصدقت أن الصبّاح هو الذى أقنعنى، أو أن فضل الرحمن هو الذى جعلنى أحيل الطالبان إلى جيش من جديد، كلا والله، لكنها كلمات رسول الله، واختياره لى كى أطبق قانون الله على أرض نحكمها ونطهرها من الرجس والأصنام.

لم يكن أمامى إلا أن أوافق الرجل ذا البشارة على ما أراد، فرحنا نعلنها قوية مدوية أمام العالم: سنطهر أرضنا من الشرك والكفر. لكن ذلك لم يعجب الكثيرين، وأكثر ما أدهشنا أن دولا إسلامية كانت أولى بالوقوف معنا اتخذت من الكفار واليهود أولياء لها، فجاءت وفودها تسعى لتردنا عن أمر اختارنا الله له، وما كان أمامهم إلا الخلاص منا، فتعاونوا بالمال والرجال والأسلحة ليضعوا كل ذلك فى شاحنة لو دخلت فى جبل لانهار، لكن الذى أمرنا بالهدم هو الذى مد فى آجالنا، كنا نرتب لبدء حملة الخلاص، فقسمنا الأوثان إلى ما هو خشبى يُزال بالمعاول، وما هو صخرى يزال

بالجرافات والمجنزرات، حصرنا أكثر من خمسمائة تمثال وأزلناها، ولم يبق سوى تمثالين كانا محفورين فى صدر الجبل بعرض عشرة أمتار وطول ستين مترًا، وكانا يحتاجان إلى جهد كبير كى نحتفل بتطهير أنفسنا منهما، فاتفقنا على أن نفجرهما بالديناميت، فى ذلك الوقت سمعنا حارسًا يصرخ فى سائق شاحنة أن يتوقف. لكن الأخير لم ينصت لندائه، بل غير مسار شاحنته نحو الحديقة، ولا نعرف كيف انفجرت الشاحنة قبل مائة متر من الشرفة، فارتج القصر وطارت النوافذ وارتطمنا بالكراسى وسقطت أجزاء من السقف وملأ الدخان والغبار المكان، مرت دقائق ونحن فاقدى الوعى ثم انتبهنا إلى أمر أمير المؤمنين فقمنا نبحث عنه، وجدناه على كرسيه بعمامته السوداء يردد "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" فحمدنا الله، وهنأناه على السلامة، ثم أرسلنا إلى وكالات الأنباء والصحف بذلك الخبر.

لم ينس الصباح ما حدث فى ذلك اليوم، فقد أصر على أن نوجه لهم ضربة مشابهة، وراح يرسل رجاله فى كل مكان، ويطلب من صهيب أن يدرب البعض على أشياء لم نفهمها، كان يبنى من الأخشاب والأحجار أماكن مطابقة للمواقع التى يريدها، وصهيب يستجيب بعزم لا حدود له، يدرب ويستجلب خبراء التفجير ليعلموا رجاله كل جديد، ثم يرسلهم إلى أماكن بعيدة دون أن يكلفهم بشىء، ويقول هم الخلايا النائمة. شعرت أن الصبّاح استيقظ من قبره، وأنه الآن

يخطو بأقدامه نازلا من تعاليم العقاب إلى العالم الرحب، حيث الشام وخراسان والهند ونظام الملك، كان الصبَّاح الذى رأيته فى ذلك اليوم بوجهين واسمين ورجال بلا حصر وأموال تتدفق عبر عمليات حسابية معقدة فى مختلف العالم، كان الصبَّاح الجديد بجسديه الطويل والقصير، ووجهيه الباسم والمنحوت من صخر ينفخ الروح فى رجال نائمين ومعتزلين وعاكفين وركع سجود، فيرسم الخرائط ويعطى الأوامر وينتظر الحصاد، ولم تمض شهور حتى بدت الأرض خارطة ترقص بالنار، لم تمض شهور حتى سمع العالم بتفجيرات الأقصر وتنزانيا ونيروبى والخبر وعدن، وما لم يسمع به كان أكثر وأكبر، لكن الحرب لا تعرف منتصرًا واحدًا، ومن أطل بوجهه فى الصراع فليصفع وليحتمل الصفع، هكذا قالها الصباح، حين أغارت طائرات الأمريكان على معسكرى بدر لتحيلهما إلى تراب، قاضية على عشرات الأحلام ومئات الرجال، يومها لم يفزع، ولم يتهم رجاله بالتخاذل، لكنه بكى وهو يخبرنا باستشهاد صهيب، يومها قال كلمة غضبه التى أخذتها منه: "لن تنعم أمريكا بالسلام فى أى مكان"، لكننى أضفت إليها حلم أبى سعيد "ما لم ينعم الفلسطينيون بالأمن".

(٥٥)

ربنا إنا أخطأنا فاغفر لنا وتب علينا وارحمنا، إنك أرحم الرحمين. هكذا توالت تمتمات الشيخ بعدما تملكه شعور بأنه المسئول عما حدث لأصحابه، كانت ذكرى من استشهدوا مؤلمة، لكن صور التعذيب التى وصلته من جوانتانامو والعراق ومصر والسعودية والأردن والمغرب وفرنسا وغيرها من بلدان العالم كانت أكثر إيلامًا، حتى أنه كلما شاهد شرائط تعذيبهم ضرب رأسه فى الحائط أسفًا، وراحت نوبات الفزع والصرع التى أصابته من انفجار آلاف الأطنان على رءوس الجبال تعاوده من جديد، كان كلما سمع صوت ارتطام ألقى بنفسه إلى الأرض صارخًا "اهبطوا... اهبطوا". كانت أيامًا عصيبة فقد فيها الشعور بالليل والنهار، فالوقت كله كان جحيمًا أسود مشوبًا بلهب أحمر وأصوات تزلزل الجبال، عادة ما كان يرى أجسادًا متناثرة، وعادة ما يضع يده على من بجواره فلا

يجده، لا يعرف كيف نجا من الموت الذى سعى إليه آلاف المرات، كان يخرج إليه هاتفًا فيه أن يأتى لكنه ما إن ينظر إلى المكان الذى ترك فيه أصحابه حتى يجده صار كتلة من لهب، وحده علىّ الذى لم يتركه، كان خادمه وحارسه وظله الذى لا يفارقه، ينحنى بجسده القصير فيحمله ويفر دون أن يدرى إلى أين، وحين يفيق من إغمائه أو صرعه يراه جالسًا بجانبه، فينتفض من نومه يهرع باحثًا عن الموت، فلا يعترض طريقه إلا علىّ، هذا الذى اعتاد أن يرتمى عليه مع أول صوت، وكلما ساءت حالته كان الصبَّاح يحضر طبيبًا فيأمر بوصفات وأدوية لم تعد ميسورة، فالدواء والأطباء صاروا عملة نادرة فى وقت ليس متاحًا فيه الصواريخ والقنابل، حين انتهت الحرب وخسر الطالبان ملكهم أخذه الصبَّاح إلى كهف على الحدود فى هرات، وأشرف عليه طبيب متجهم، لا يأتى إلا ليصرخ فى وجهنا تاركًا عدة عبوات تجلعه ينام فى سلام، كانت الأحلام سلواه فى هذا الدرب المظلم، وكان صوته وهو يحادث الأشياء على أنها أصدقاؤه تجعل عليًا لا يعرف ما الذى يتوجب عليه أن يفعله، فكثيرًا ما تحدث بالنيابة عنهم، وكثيرًا ما حايله كى يتناول دواءه الذى يسلمه إلى نوم طويل ملؤه الفزع، ولا يستيقظ إلا ليهتف به "صلاة الفجر قد ولت، فآتنى بالماء يا فتى". لكنه منذ اعتاد المهدئ وهو لا يحسن وضوءًا ولا صلاة، ولا يعرف غير التمتمات التى تأخذه إلى عالم غير الذى فيه، عالم أبطاله شبيب ومعاوية والزبير

وعبيد الله المهدى وغيرهم، بينما الرجال منشغلون فى فرارهم وكرهم، وكثيرًا ما عادوا مصابين بفزع لا يقل عن فزعه، فرغم انتهاء الحرب وسكوت القنابل غير أن أصواتهم كانت تهتز لها الجدران، فينتبه من خيالاته ليصرخ فيهم: الزموا الأرض.. الزموا الأرض". عامان مرا وعشرات الأطباء تغيروا، وما كان بوسع الصبَّاح غير نقله إلى الهند ليحتجزوه فى مصحة لديهم، ليعود بعدها ساكنًا منعزلاً، لا يرغب فى أن يخرج عن دائرة شخوصه الوهمية، وكأنه يحاكم التاريخ من خلالها، وقليلاً ما كان يفيق من شطحه معهم "أريد الصبَّاح"، فيأتيه الأخير على عجل، لكنه لا يقول شيئًا، فقط يتأكد أن ثمة واحدًا من رفاقه ما زال حيًا، فيجلسه الصباح أمامه كطفل ليمشط له شعره، ويبدل له ثيابه، ويدخل المصورين عليه فيلتقطوا بعض الصور.

بعدها بشهور بدأت حالته فى التحسن، وراح الخوف يفارقه واعتدل ذهنه من جديد، لكن شريطًا مصورًا جاءه فى غياب الصبَّاح، فظنَّ الرجال أنه تسجيل لبعض الساسة أو عمل وثائقى عن الجماعة، فأعطوه له، بدوره وضعه فى جهاز العرض، فرأى أصحابه يعذبون، وعيونهم تجحظ من مآقيها على الشاشة، ودماؤهم تسيل من الأفواه، بينما الجنود يصفعون "أين صاحبكم الآن لينقذكم"، حين سمع هذه الجملة جلس أمام الشاشة كمن يصلى لهم، وراحت أعضاؤه ترتجف ككرة حتى سقط مغشيًا عليه.

بعد أيام من سهر الطبيب بجانبه استفاق وطلب الصباح، حين جاءه كان يتقافز فرحًا وهو يحكى عن هزيمة الأمريكان فى العراق، لكن الشيخ قال "أريد أن أعتزل"، وهمَّ الصبَّاح أن يقول شيئًا، لكن إشارة من اليد الطويلة والعين الغائرة قطعت الطريق: أريد أن أعلن لهم عن مكانى، فمن منكم يسلمنى له الجزاء والفضل.

ضحك الصباح كأنه لم يضحك من قبل، قال: أتظن أن ظهورك من عدمه يعنى لهم شيئًا، ما نحن إلا تكئة يفعلون من خلالها ما هم ذاهبون إليه، فالزم ما أنت فيه ولا تفجعنا. لكن الشيخ لم يستسلم: سيرفعون على الأقل أيديهم عن إخواننا فى السجون، ويوقفون مطاردتهم لمشردين بلا ذنب. طأطأ الصباح رأسه: هل تظن أننا سنتركك تفعل ما تقول؟ لعلك لم تعد قادرًا على الأمر، لكنك ستبقى هنا، فخير لنا أن نحتفظ بك عن أن نفقد كل شىء من يدنا. أراد الشيخ أن يقول إنه الأمير وإنه سيسلم نفسه، لكن الصباح حسمها "إن لم تقلع عن ترهاتك فكل شىء متاح لأناس ليس أمامهم سوى الموت"، ثم استدار خارجًا من الكهف.

اختفى الصبَّاح ولم يعد، وتغيب الرجال وخفت الحراسة، ولم يبق فى الكهف المظلم سوى الشيخ وعلىّ، ولا حيلة لهما سوى أن يستدعى الرجل بتاريخه كى يقصه على رفيقه، ويخلط بين شطحاته وحياته، يخلط بين شخوصه الوهميين

والحقيقيين، وعلىٌّ يستفسر ويستوضح ويكتب ما يمليه عليه، كانت سلواهما الوحيدة متابعة الأحداث فى قنوات الأخبار، فإذا ضجرا من هذا راح يملى على رفيقه ما يعن على ذاكرته، كان يملى وكأنه يعد السلاح الذى سيلزم به الصباًح ليعود إلى طاعته من جديد، لكن عليًا رأى ذات صباح سيده على إحدى القنوات، رآه بنفس القامة والصوت والحركات، كان يهدد ويتوعد كما كان يفعل الشيخ من قبل، لكن الأحداث التى يتحدث عنها جديدة، والشيخ لم يفارق كهفه منذ تشاجر مع الصباح، والمصورون ما عادوا يحضرون إليه، فما الذى حدث، كاد علىّ يذهب ليوقظ شيخه فيسأله: هل لك روحان، هل تحولت إلى شخص أكبر من قدرات البشر، لكنه تدارك أن شيخه لا تسمح له حالته بالحديث كل هذا القدر وعلى هذا النحو المنتظم، فأدرك أن الصباح قدم أول تجاربه، وأن نجاحها يعنى أنه سيسعى غدًا للخلاص منهما.

* * *

(٥٦)

فقدنا فى الغارة الأمريكية المكثفة على معسكرى بدر عددًا من قادة التنظيم، كان على رأسهم صهيب الذى هاتف أحد رجاله فى نيوزيلاندا، فاكتشفنا بعد عدة أيام أن الرجل قبض عليه، وأنهم استطاعوا من خلال القمر الاصطناعى تحديد موقع صهيب ثم القيام بدك المعسكرين، أدركنا كم أن هذه التكنولوجيا الغربية صارت وبالاً، فعن طريقها يمكنهم تتبعنا وتحديد مواقعنا، كان حزنى على صهيب وفزعى من أننا صرنا عراة أمام الأمريكان وغيرهم بلا حد، ولم يبق لى من الرجال الكبار غير الصبَّاح، فرحت أصرخ فيه أن يوقفوا التعامل بالأجهزة الحديثة حتى لو استغرق الأمر منا سنوات بدلاً من لحظات، فلا يمكن أن نرى الطائرات كل لحظة تحيل أصحابنا إلى غبار ولهيب. وافقنى مجد على ما قلت، وابتسم الصباح كعادته: لسنا وحدنا الذين نستعملها، ولسنا

الأكثر اعتماداً عليها، ومن صفع يصفع، ومن اعتدى فليتحمل. أبدينا دهشتنا من ثقته وبروده، لكنه الصباح الذى أراد أن يثبت قدرته على قيادة التنظيم وحده بعد صهيب. قال: العين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص، وأخذ يشرح كيف يمكن تكبيد الأمريكان أكثر مما كبدنا الروس من خسائر، لكن الحرب ليست كلها طائرات وصواريخ، ليست الخسائر دائمًا أرواحًا ومبان ومعدات، يومها تحدث كعالم اقتصاد عن حركة رءوس الأموال، وعن طرائق الإيداع والسحب والتحويل، وأنهى حديثه: ماذا لو خسر الأمريكان عدة مليارات فى وقت واحد، ألن يسبب ذلك لهم أزمة؟ ماذا لو تم تدمير عدد من حسابات البنوك والبورصات والشركات، ماذا لو سرقت المعلومات التى يتفاخر بها الأمريكان فى وكالة ناسا أو البنتاجون أو السى آى آيه.. ثم بيعت إلى الروس أو الصينيين المتحفزين أو حتى الكولومبيين أو الكوبيين؟ العالم كله على استعداد لأن يدفع الكثير فى مقابل معلومة تهمه، ونحن يمكننا أن نكون هذا الوسيط، البائع والمشترى، فماذا لو كنا الصانع نفسه؟ كانت أسئلته متلاحقة وذات منطق، وكنا نحن الذين تركنا بيوتنا وحملنا أسلحتنا على ظهورنا كل هذه السنين غير مقتنعين، تجادلنا معه قدر ما وهبنا الله فى ذلك اليوم من قدرة حتى قال: أعرف أنكم لا تعرفون غير قوة السلاح، أعرف أنكم تخشون أن تتحولوا من مجاهدين إلى قراصنة، وأنا مثلكم أبحث عن

الحلم الذى من أجله تركت بلادى وجئت إلى هذه الصخور، لكن كيف سنقيم دولة إن لم نتحصن بأسلحة العصر، هل ستنفعنا الفضائل أمام عدو لا يؤمن بأية فضيلة، ألم يقل الله "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة"؟ ألصق الصباح بمنطقه الجديد ظهورنا إلى الحائط، فسألناه وكيف ذلك، قال: الأمر يسير، لدينا رجال فى شتى أنحاء العالم، لدينا مؤمنون بفكرتنا من شتى الطبقات والمهن، ولدينا المال والعلاقات، كل ما نريده مجموعة من قراصنة الشبكة الدولية، وهؤلاء لدينا عدد منهم، يمكننا أن نزودهم بآخرين يعلمونهم، ولا مانع فى هذه اللعبة من التعامل مع الشيطان نفسه، لأن الشيطان هو الذى جعل العالم يتحول إلى مجموعات من الأرقام.

كان الصبَّاح يسعى لأن يكون روحًا بلا جسد، وكنا واقفين أمامه لا نعرف هل نمنعه أم نطلق له البخور، لكنه على كل انصرف إلى حيث يريد، أعاد ترتيب الرجال والمعسكرات، أعاد ترتيب التنظيم وشرع فى جولات مكوكية لا نعرفها، فقط نسمع بأخباره، مرة فى الهند وأخرى فى الصين وثالثة فى أستراليا ورابعة فى أمريكا أو كندا أو حتى جزر القمر، وكأنه صار قادرًا على التواجد فى أكثر من مكان، وبأكثر من هيئة وصورة واسم، كنا نسمع عن نجاحاته دون أن نراه، نتعقب أخباره ونكتشف أنها قديمة، الشىء الملموس الذى حصلنا عليه هو الأرقام المتزايدة فى البنوك، والحسابات التى تحول إلى سبائك ذهبية، والذهب الذى يصبح شركات

ومزارع ورجالاً ومتفجرات، بعد عدة أشهر وجدنا الصبَّاح على رأسنا فى قصر الملا مجد الدين، كان هندامه أكثر بهاءً، لكن وجهه يعلوه شحوب، بينما عيناه أكثر حدة وقلقًا، ألقى السلام وجلس يقذف بعضًا من حبات العنب فى جوفه، فعل ذلك دون أن يمهد لشىء، حين وجدنا ناظرين فى دهشة قال: الروس والصينيون وآخرون يريدون أن يتحركوا ضد الأمريكان، ويريدوننا معهم، فماذا تقولان؟ هكذا أصبح الصبَّاح صاحب المفاجآت، تخطينا المفاجأة وحاولنا أن نكون واقعيين: ومن أين علمت؟ قال: بالأمس كنت فى لينِنجراد، التقيت بالجنرال بوتين المرشح بقوة للرياسة بعد يلتسن، كنت قد بعته معلومات من وكالة ناسا، فباعنا بعضًا من معلومات الكى جى بى، فيها أسماؤنا جميعًا، وفيها خطة تفصيلية كاملة لضربنا، لكن الخطة أجلها كلينتون للرئيس الذى سيحل محله فى العام القادم، قال إنها عمل رائع لكنه لن يقدم على أمر قد ينهى على مستقبل حزبه فى الحكم، أما بوتين فهو يرى أن لا خلاص لبلاده من الفقر والبطالة ومائتى بليون من الديون للغرب إلا بعمل عسكرى يعيدها إلى قمة العالم، ويرى أننا لا يجب أن نختلف، فالحكمة تقول إن عدو عدوى صديقى، وقد حان الوقت ليأخذ مسلمو الشيشان حقهم فى الاستقلال، وأن تلعب روسيا دورًا حقيقيًا لصالح فلسطين، ولا مناص من أن يجتمع المسلمون والصينيون والروس على كلمة ضد الهيمنة الغربية الأمريكية.

كان ما طرحه الصبَّاح مفاجأة بحق، ولم يكن أمامنا سوى الموافقة بعدما تأكدنا أن الأمريكان يعدون للإجهاز علينا، لكن الموقف الصينى شبه غائم، فلا قبول ولا رفض، لا شىء سوى الموافقة الأقرب إلى الحياد، بينما الروس مندفعون فى انتخاباتهم، وكان علينا أن نتمهل حتى يحسموا أمرهم، ورغم أنه لم تكن هناك خطة للعمل فقد راح الصبَّاح يجوب الكرة الأرضية ليختار من يمكنه التعامل معهم، كانت فكرته أننا محتاجون لتجنيد أكبر قدر من الأمريكان واليهود، وحين أدهشنا ذكْر الفصيل الأخير قال: لأنهم لا وطن لهم ولا دين ولا ولاء، بقدر ما ينمون ككائن طفيلى على جسد أى إمبراطورية تظهر بقدر ما يعملون بها كنقار الخشب، ولا سبيل لنا غير الاستفادة من وضعهم المميز بين النخبة الأمريكية، فهم الذين يمكنهم الوصول إلى أدق التفاصيل وأصغر الجزئيات عن قرب.

كعادتنا فى الشهور الأخيرة لم نملك أمام منطقه سوى الموافقة. هذا المجنون الذى وفر المزيد من الأموال والسلاح والرجال لا بأس به، حتى أن مجد الدين أعلن أمام الجميع أننا لم نعد بحاجة إلى زراعة الخشخاش، فقد انتفت الضرورة الداعية إليه، ويبدو أن الصباح لم يعد منشغلاً بالواقع الأفغانى، بل لم يعد يلبى طموحه وهوسه إلا امتلاك العالم، فوافق وكأن الأمر لا يعنيه، أو أنه لم يكن صاحب الفكرة من الأصل، بل عرض إمكانية وقف طريق التجارة

المسمى بطريق الحرير، لكن ارتباطات مجد جعلته يرفض، كان تعليله يومها أنه لا يمكن الوثوق الكامل بروسيا، وكان تعليل الصباح أنه لا يحب رجال الجيش الباكستانى وعلى رأسهم مشرف، بل لا يثق فى الباكستانيين جميعًا، يومها انتهى النقاش إلى تأجيل تلك الخطوة حتى تتضح النوايا، فأرجأنا الأمر وخففنا من ضرباتنا الموجعة للأمريكان، بل أوقف الصباح أى نشاط عسكرى داخل أمريكا نفسها، هذه الخطوة التى دافع عن وجهة نظره فيها بأن الأمر تغير عما قبل، فلا يمكن أن ننبه الأمريكان إلى وجودنا على أرضهم، ومن الأفضل أن نضحى بعدد من الرجال لصالح الشرطة الفيدرالية والمخابرات المركزية التى استطاع تجنيد عدد من رجالها، ويمكن تصعيدهم بما يمدهم من معلومات عن رجال لا يثق فى ولائهم. شعرت أن الصبَّاح تغير عما كنت أعرف، وأنه أصبح الصبَّاح بالفعل، لكن الصباح لم يخن دعوته، ولم ينس يومًا أنه داعية نزار بن المستنصر، فهل سيظل صاحبنا على العهد أيضًا؟

جعلتنى المفاجأة غير قادر على حسم أمرى، فتارة أشعر بالفرح لقرب هزيمة الأمريكان وخروجهم من بلادنا، وتارة أرتعد من انهيار الحلم وهجومهم علينا بكل ترسانتهم الحربية، وكان الخوف من الفشل أكثر ما يؤرقنى، فلا يمكن للأمريكان أن يضربوا روسيا ولديها كل هذه الترسانة الحربية، ولا يمكن أن يفعلوا ذلك مع القارة الصينية أيضًا،

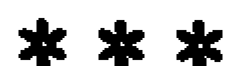
فمن المرشح للانتقام سوانا، ولا أظن أحدًا مهما قطع عهودًا واتفاقيات أن يقف فى وجه الأسد الهائج لأجل قلة مثلنا. تأملت الوضع العالمى وحكام العرب فاستأت لضعفهم، ولم يفارقنى عبد الله بن الزبير فى صحوى ومنامى، فرحت أبكى لشدته وما فعله فى نفسه بشربه دم الحجامة، لكن الصباح أتانى قائلا: لقد دمر الأمريكان والبريطانيون للروس أكبر غواصة نووية فى العالم، وقد أرجأ بوتين أمر الحرب.

كنا قد علمنا بالخبر من وكالات الأنباء والقنوات الإخبارية، وتابعنا رفض الروس أى مساعدة لإنقاذ أكثر من مئة وعشرين قتيلا فى قلب غواصتهم، لكن أحدًا لم يذكر الجهة التى وراء الحادث، وحده الصبَّاح هو الذى قال إن الأمريكيين استخدموا غواصة بريطانية محملة بصواريخ معدة لاختراق الدروع والصخور، وأن هذه الغواصة التى توجه صواريخها عن بعد كمنت لنظيرتها الروسية على مبعدة فى أعماق المحيط، ثم انطلقت نحوها بسرعة البرق فى الوقت الذى عُطلت فيه أجهزة الإنذار والماسح الذرى فى العملاق الروسي. كان الصبَّاح يدور أمامنا كدورى استيقظ للتو شارحًا كيف اصطدمت الفأرة الصغيرة بصواريخ كالإبر الصينية فى أحشاء العملاق الروسى، فنسفت منه البطن وفصلت المقدمة عن الرأس، فسقط ككائن وديع فى أحراش أرخبيل يحتاج مئات الأجهزة العملاقة كى تفتته وتلتقط ما وقع بين أضراسه المتشعبة، رفض الروس المصابون بالذهول

أن يساعدهم أحد كى لا يكتشف المخطط المسجل على العقل المركزى للغواصة، هذا المخطط جزء من العملية التى كان من المفترض أن تقوم به فى الخليج الفارسى. يومها اكتشفت فى قرارة نفسى أننى كنت أرغب فى الحرب، وأن خوفى الأكبر لم يكن إلا من عدم حدوثها، فشعرت أكثر بالخوف ورحت أصرخ فى الصباح: لم أوقفوا الحرب؟ قال إن الروس اختلطت لديهم الأوراق، وإن بوتين يسعى إلى معرفة عدوه من صديقه، وإنه يريد إعادة حسابات جبهته كى لا يضطر إلى خوض الحرب وحده لو اكتشف الأمر أو فشل المخطط، لم يزد كلامه قلبى إلا فزعًا، ورحت أسأل: وماذا لو اكتشف أمرنا نحن؟ فهل يمكن أن يتدخلوا من أجلنا أم سيختبئون خلف ترساناتهم العملاقة ليتابعوا مباراة بين فأر ورخ؟ كان فزعى على مجد ودولته الناشئة أكبر من أن تخففه تعليلات الصباح التى لا تنتهى، فأمرت بالانسحاب من الأمر ككل، وعزل الصبَّاح عن منصبه، وقطع علاقاتنا بالروس، وفتح قناة تؤمن موقفنا مع الغرب، وإن كانت إسرائيل وليس باكستان، ورحت أمزق أى ورق وأحطم أى حاسوب له علاقة بتلك العملية، وظللت فزعًا أرتجف فى جلدى حتى رأيت أمى واقفة فى غرفتى، كانت أشبه بأسماء ذات النطاقين، ربتت على صدرى قائلة: ما هذا لباس ما يريد ما نريده من الشهادة. قلت مثلما قال الزبير: والله ما لبسته إلا لأطيب خاطرك وأسكن نفسك. فمسحت بيدها على شعرى: انزعه

يا أسد الله، فما كان لك أن تتسربل سروالا غير الذى ألبسكه الله. فرأيتنى أقر عينًا، ورأيت الخوف يتمزق منى كما تتمزق الملابس عن رجل تضخم فجأة، فناديت حارسى: إلىَّ بالصبَّاح... فوالله لا أمنع أمرًا قدره العزيز العليم.

لم تمر دقائق حتى رأيت الرجال يدفعونه أمامهم بثياب نومه، وهو يتعثر فينكفئ فيقوم فيتعثر فينكفئ حتى ارتمى على قدمى، تذكرت ما قاله الرجال لعبد الله الشيعى "إن الذى أمَّرته علينا هو الذى أمرنا بقتلك" فقلت ويح الملك، وانحنيت أنهضه وأمسح عنه التراب كما مسحه النبى عن علىّ، كان الفزع فى عينه جاثمًا وكأن أمر حياته قد حسم. قلت: لا تثريب عليك اليوم، قم فانهض، وابعث برجال ترجف بهم الأرض، فيأتون بسافلها على عاليها.



(٥٧)

يومها عاد فاغتسل وتطيب وارتدى أفضل ما عنده، ثم أمر بجمع مجلس الحرب، وكنت أنا ومجد على رأس الطاولة، وضع خريطة كبرى للدنيا، وأحضر شاشة بيضاء فنشرها على الحائط، ثم أتى بحاسوبه ودس به قرصًا مدمجًا، رأينا أمريكا من الداخل شوارع وناسًا وعربات، وكانت المشاهد تتحرك أمامنا من الكونجرس إلى البيت الأبيض إلى بنسلفانيا، لكنها توقفت كثيرًا أمام مبنى مكون من خمسة أجنحة، لا يزيد عن أربعة طوابق، قال إنها المخ الذى يسيطر على أطراف الأخطبوط الأمريكى، ولو أصيب هذا المخ بالشلل ولو ليوم واحد لانهارت الإمبراطورية العظيمة، كانت الكاميرا تدور على خارطة الأرض لتظهر أساطيل وقواعد وغواصات وبوارج ومنشآت فى كل مكان، وكانت الإضاءة خافتة ولا تنبعث إلا من تلك الشاشة البيضاء العامرة بأرقام

وإحصائيات أخذ فى شرحها جنرالات روس ورجال مخابرات فرنسية وألمانية، بعدها ظهر بوتين وهو يصافح الصبَّاح، ثم أظلمت الشاشة وحل النور فى المكان. قال: إن هذا ما نسعى إليه. قال مجد: لا أفهم شيئًا! وقلت: دعك من الروس وأمانيهم واشرح بلغة القرآن ما أعددتم. وضع قرصًا آخر فى جهازه فظهر سرب حمام يتهادى فى سحب بيضاء، ثم ما لبث أن أصبح طائرات عملاقة فى وداعة الحمام لا شراسة النسور، كانت تحلق على شوارع ومدن وبشر دون أن تثير خوف أحد ولا تلفت انتباهه، فجأة أصيبت الحمائم بالجنون وراحت تنقض على المبانى فتحيلها كتلا من لهب ورماد، فأوقف الصباح حاسوبه على هذا المشهد قائلا: هذا ليس فيلمًا من إنتاج هوليوود لكنه الوثيقة الأولى التى أنتجتها مخيلة جنرالات الحرب فى روسيا، فتخيلوا معى لو أن هذه الطائرات بدلا من أن تدخل فى المبانى بشكل عشوائى دخلت فى البنتاجون والبيت الأبيض، تصوروا لو أن أمريكا فقدت فى لحظة رئيسها ومسئول أمنها القومى ووزير دفاعها وجملة من الجنرالات العتاة، فقدت شفرات السيطرة على أسلحتها وقواعدها وصواريخها وجنودها، فقدت ملفاتها عن العالم وقدرتها على استيعاب ما يحدث، تصوروا لو أن هجومًا مفاجئًا فى ذلك الوقت قامت به ثلاثة جيوش كبرى على أساطيلها فى المحيطات والبحار، وأن مخزونها من النفط

اشتعلت فيه النيران، والمحطات العملاقة لتوليد الطاقة توقفت... فما الذى سيحدث إذًا؟

كان الصبَّاح يتحرك ويشير بعصاه كجنرال كبير، بينما الشاشة تغير من مشاهدها وتنثر لهبًا أسود فوق الأرض وتحت الأرض، فوق الماء وتحت الماء، وكأننا نشاهد فيلمًا متخيلاً عن حرب كونية شنتها كائنات فضائية على كوكب الأرض. حين أظلمت الشاشة وأضىء المكان كانت وجوه الحاضرين منومة وكأنها ما زالت تعيش فى أحداث الفيلم، لكن الصباح فاجأنا بسؤاله: "ما رأيكم". قلت: فى أى شىء؟ قال: فى نهاية أمريكا؟ قال مجد: تلك أمانيهم، وليس كل ما يتمناه المرء يدركه. قال أبو قتيبة: كيف يتم ذلك؟ وكان الصبَّاح حاضرًا برده: منذ عامين ونحن والروس نعمل على اختراق أجهزة الأمريكان عبر عملائنا والشبكة الدولية، واستطعنا الحصول على بعض ما لديهم من معلومات وشفرات، ويمكننا إبطال عدد كبير منها، ولدينا الآن شبكة لا حصر لها من المناهضين للكونفدرالية الأمريكية، وجميعهم يحلمون بتحلل تلك الهيمنة ليصبحوا دولًا مستقلة، وأكثرهم من ولايات الجنوب والغرب، ومن لم يجدِ معه المال أجدت معه التهديدات بالفضيحة أو القتل، كان آخرهم بيل كلينتون الذى كاد يذهب ضحية عاهرة زجها عليه اليهود، لا لشىء إلا لأنه أرجأ قرار حربه لمن يأتى من بعده، ولا أظن اليهود أقل كراهية لأمريكا منا، وليس رهانهم على بوش إلا لأنه الأحمق

الذى سينفذ نبوءة إشعيا حسبما يقول الحاخامات، وهم يدفعون بنا وبهم فى وقت واحد كى نصطدم، لذا فلن نطلعهم على خططنا إلا بقدر ما نحتاج منهم.

شعرت فى ذلك اليوم أن الخاتمة التى تمنيتها كثيرا قد اقتربت، وأن على أن أضغط بأى شكل كى يستمر قطار الشرق فى طريقه نحو الغرب، لكن الصبًاح بدا مرتبكًا حين بدأنا نناقش التفاصيل، قال إننا يجب أن ننتبه إلى أن الأمر به مغامرة، فالعملية مشروطة بنجاح الخطوة الأولى، وهى الجزء الذى يقع على عاتقنا، حيث الطائرات التى ستفقد الأمريكان صوابهم وتشل حركتهم، ولو حدث خطأ فى هذا الجزء سيفسد المخطط ككل، وربما تنشب حرب نووية لا نعرف مداها. فأضاف مجد: وربما يتخلى الجميع عنا لينفرد الأمريكان بنا وبغيرنا من المسلمين، فلا يمكن أن يدمر العالم نفسه من أجلنا. كان تخوف مجد حقيقة لا مراء فيها، فتلعثم الصباح مجففًا ما علا وجهه من عرق: لا أعتقد أن الروس والألمان والفرنسيين سيتركوننا، ولو دخلت الصين فى هذا التحالف غير المعلن سيكون دم الأمريكان قد توزع بين الجميع، ويمكننا لو تخاذلوا أو تباطأوا فى الوقوف بجانبنا أن نعرض ما لدينا من وثائق على العالم، فنحن لم نكن غير أداة فى يد من هم أكبر منا. شعرت أن كلمات الصبًاح لم تجفف بئر القلق، وأننى لا بد أن أشمر عن ساعدى وأنزح ما بقى فيها: لا مناص لنا أن نورط كل هذه القوى لتضرب بعضها

البعض، وإلا فغداً أو بعد غد سنصبح الفأر الذى يطارده الأمريكان فى الجبال، ولو صدق ما قاله الصباح عن خطة أمريكية لمعاقبة الدول الخارجة على سياستها فلا بد أننا أول هؤلاء، وحين ينتهون منا سينقضون على من هم أقوى، كبستانى يشذب أشجار حديقته، ولا أظن أن تقاعسنا سينجينا من المصير الذى تنتظره هذه البلدان، فلم لا نورط الجميع لنؤخر تقليم الحديقة أو نعجل بموت البستانى، وإذا حدث ما نخشاه فهذا تقدير العزيز العليم، ولن نهرب من قدر الله إلا إلى قدر الله. وجدت أن الكلمات أخذت بلب البعض، وهونت من الأمر لدى البعض، فأضفت كى أطرق الحديد وهو ساخن "ويمكننا أن نصوت على الأمر"، ثم رفعت يدى فرفع الصبَّاح يده ورفع قتيبة وأبو الفضل وأبو الحسن التونسى، بينما رفض مجد وأبو العباس وأبو القاسم الليبى، وامتنع أبو مصعب وفهد الله عن التصويت قائلين: هذه فتنة علمها عند الله. فرجحت كفة الحرب وعاد الجميع إلى بيوتهم منتظرين أمراً قدره الله على بلادهم.

* * *

(٥٨)

شاء الله لى ولغيرى أن أرى الحرب، لم تكن ككل الحروب التى توقعناها، لم تكن كأى من السيناريوهات التى وردت على ذهن بشر، فهى الجحيم لا غير، تخلى الجميع عنا ما عدا مجداً، هذا الذى رفض إخراجنا من بلاده أو تسليمنا إليهم، وإن أردنا الحقيقة فقد تخلى الأمريكان عن إعلان الحرب على أى منهم، رغم أن الصبَّاح أرسل لهم بما لديه من وثائق وأشرطة، ورغم علمهم اليقين بأننا لسنا سوى أداة للخطوة الأولى، لكنهم كانوا يدركون أن دماءهم توزعت بين قوى أكبر من أن تصارَع فى وقت واحد، فبعدما تأكد حكماء الصين أن الأمريكان يتجسسون عليهم، ويعدون العدة لملاقاتهم، تخلوا عن حذرهم ووافقوا على تدريب الرجال على أرضهم، كانت هذه واحدة من مغامرات الصبَّاح التى اختفى من أجلها عدة أسابيع، لا أعرف تفاصيل ما جرى فيها لكنه كان وراء إفشاء

سر طائرة التجسس الأحدث فى العالم، هذه التى راحت تحلق على أجواء قريبة من شواطئ الصين كى تصور وترصد وترسل مباشرة إلى البنتاجون ووكالة المخابرات، كان الصبَّاح قد اشترى هذا الكنز من عملائه اليهود، وكانت الطائرة قد قامت بثلاث طلعات من قبل نحو شواطئ القارة الصينية، فما كان منه إلا أن ذهب لملاقاة قائد الكى جى بى المسئول . عن شئون الشرق الأدنى الجنرال فلاديمير بوستاشيكوف، وترك لديه مظروفًا مغلقًا به عدة أوراق وقرص مدمج، كتب عليه: "سرى للغاية، سيادة الرئيس فلاديمير بوتين"، حين فتحه الرئيس حسبما ذكر الصباح اطلع على معلومات صينية كانت قد أرسلتها الطائرة للوكالة، بالإضافة إلى صورة للطائرة ومعلومات عنها، يومها أغلق بوتين المظروف وكلف بوستاشيكوف برحلة عاجلة لملاقاة الرئيس الصينى. لم تمض ثلاثة أيام حتى أسقط الصينيون الطائرة ونشبت أزمة كادت تعجل بقيام الحرب لولا الحكمة التى تحلى بها الأمريكان، فقد فكك الصينيون الطائرة وصوروا كل جزء فيه، وردًا لجميل بوتين أرسلوا الطائرة مفككة إلى موسكو كى يصورها الروس ويسلموها للجانب الأمريكى. كان مع الطائرة طاقم من العلماء والمختصين الذين استجوبهم كلا البلدين حسبما يجب، ولم يمض شهر وعدة أيام حتى وقع الروس والصينيون والإيرانيون - الذين عبرت عن طريقهم أيضًا الطائرة - اتفاقية دفاع مشترك، يومها جاء الصباح مهللاً كأنه صنع أكبر إنجاز

يمكن لآدمى أن يصنعه، قال إن الصينيين وافقوا على الحرب، وإن الرجال سيتدربون على أرضهم، حيث تلك الطائرات العملاقة من الإيرياص والكونكورد، وحين سألناه عن السبب فى استخدام هذه الطائرات قال لأن مخزن وقودها يحمل عدة أطنان من الجازولين، وأنها باصطدامها فى مبان كهذه تكون بمثابة قنبلة بى إم فور. لم نستوعب ما يحكى عنه، لكننا راجعنا معه أسماء الرجال الذين اختارهم للمهمة، قال إنه سيستدعى خمسة وعشرين شابًا ممن تعلموا فى معاهد الطيران المدنى فى الولايات المتحدة، وأن الجنسية لا تعنى له شيئًا، فليس من شروط الإمامة أن يكون صاحبها قرشيًا: فرب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره، وأنا أريد هذا الذى يقسم على الله فى هذا اليوم فلا يكون إلا ما يريده. فندت عن ثغرى ابتسامة لمحها فقال: أرى أبا عبد الرحمن غير مقتنع. قلت: لا. ولكنى تذكرت أمر الخوارج، ولولا أنهم أصروا على تكفير عثمان وعلىّ لكانوا أفضل الخلق عند الله. فطأطأ رأسه قائلا: هذا شأن التاريخ وليس شأني. شعرت أن جملته تحمل إهانة واستصغارًا لأحاديثى مع مجد وعلى عن التاريخ وجماعات المسلمين وحروبهم. فقلت: لكنه شأننا، وما خرجنا إلا لنعيد للتاريخ إسلامه. ويبدو أننى قلت جملتى بشكل غاضب تمامًا، فراح يعتذر عن خطئه حتى هون مجد الأمر على كلينا، وعاد من جديد إلى شرحه عن طريقة خروجهم من أمريكا وعودتهم إليها دون أن

يدرج غيابهم فى ورق رسمى، وعن التأكد قبل كل شيء من رغبتهم فى الشهادة وإقبالهم عليها. شعرت فى هذه اللحظة أنه هو الذى سيقنعهم بنفسه، يكفى أن يستدرجهم إلى ألموت، فيدخلون الجنة فى المساء ويخرجون منها فى الصباح، وإذا أرادوا العودة لها فطريقها معروف. نفضت رأسى من خيالاتى وانتبهت لسؤاله عن رأيى، فاعتذرت عن شرودى وسألته عن خروجهم من أمريكا وعودتهم إليها، فقال إنهم سيخرجون بهويات غير هوياتهم، ثم يتجهون من فورهم إلى شنغهاى، حيث يجدون من يصطحبهم إلى مكان أعد بالأشعة ليكون على هيئة الأهداف التى سيفجرونها، وحين يكتمل تدريبهم سنعيدهم إلى حياتهم العادية لانتظار إشارة البدء. لاحت فى ذهنى نيويورك وبرجى التجارة اللذين حاولنا تفجيرهما منذ سبع سنوات، فقلت: ولم لا نضرب برجى التجارة؟! قال إنها ليست فى الخطة، وبدا أنه منشغل بإبلاغنا بما اتفق عليه قادة موسكو وبكين، قلت لكن لو حدث انهيار البرجين فالصفعة أشد، وسوف ينشغل العالم بانهيارهما عن البنتاجون والبيت الأبيض. قال إن هذا ما اتفقوا عليه، قلت: لكننا لم نتفق بعد، ولا بد أن يتعاملوا معنا كشركاء وليس تابعين. تعلل بأن البرجين قد ينبها الأمريكان إلى ما نريد، قلت: لا يهمنى إلا أن نكون أنداداً. قال: سأستشيرهم، فرددت بحزم: ونحن الذين سنحدد ميعاد الهجوم. رأيت الشرر يتطاير من عينيه، ورأيت مجداً يستنكر تشددى،

فنظرت قائلا: يا أمير المؤمنين، لا نريد أن نكون ألعوبة فى يد غيرنا، فنحن الذين سنتحمل المغامرة كلها لو حدث ما لا نرجوه، ولا بد أن تكون أطراف اللعبة فى أيدينا، ولا يجب أن نضحى برجالنا من أجل رغبة الروس فى الرد على الأمريكان، فإذا كان هذا قدرنا فلا بد أن نحدد توقيته وطريقة صنعه. يومها قال: ماذا لو انسحبنا من الأمر برمته، فهذه الحرب أكبر منا، ولا أظن الفرعون سيسقط بهذه السهولة. فأجبته هامسًا: لا أظن الروس والصينيين سيتركوننا إذا انسحبنا، وسيكون علينا أن نواجه القوى العظمى كاملة بلا حائط نختفى خلفه، لكنهم لو رفضوا ما نطلبه الآن فهناك ما يعطل الأمر ويبرر الانسحاب. فدعا الله ألا يستجيبوا، لكن الصباح كان قادرًا على إقناعهم بما ليس فى رغبتنا، فجاء بعد جولة لا نعرف أين قضاها ليفاخرنا بانتصار جديد. قال إن الصينيين هم الذين ضغطوا على بوتين كى يوافق، وأنهم رحبوا بضرب برجى التجارة، بل وضعوا خطة محكمة لنسفهما من على وجه الأرض، وذلك بوضع قدر كبير من المتفجرات أسفل كل مبنى، بحيث ينفجر التفجير الأرضى مع دخول الطائرة، سيكون مشهدهما هكذا. ثم فتح حاسوبه فرأينا طائرتين عملاقتين تدخلان فيهما فى وقت واحد، قال فى ذلك الوقت ومع تلك الهزة العظيمة التى ستحدثها الطائرتان ستتفجر الألغام الأرضية، فلا يكون أمام التوأمين سوى أن يخرا خاشعين هكذا، فرأينا صورة الطوابق

وقد انشقت الأرض لابتلاعها، ورأينا صورًا للرجال وهم يتدربون على هياكل من أشعة فى صحراء الصين، كانت أعدادهم أكثر مما أخبرنا الصباح، قال إنه وجد الكثيرين لديهم الرغبة فى الشهادة، ووجد من الضرورة تدريب أكبر قدر على الهدف الواحد، لكن المشكلة ليست فى ذلك، لكنها فى أن هذا النوع من الطائرات يحتاج من يوجه قائده عبر برج المراقبة، ومن ثم فلا بد من تعطيل الاتصال بين الطائرة والدفاع المدنى وبرج الإقلاع، وأوضح أن الروس تغلبوا على هذا عبر حاسب دقيق سيأخذه قائد الطائرة معه، فمن خلاله يمكنه بث صورة ذات إحداثيات مخالفة لما يجرى فى الواقع لقواعد الدفاع وبرج المراقبة، بينما سيقومون هم عبر الأقمار الصناعية وبشفرة خاصة بتوجيه قائد الطائرة. قال أيضًا إن المشكلة الأكبر فى الوكالة والبنتاجون والبيت الأبيض، لأنها مبان محاطة بشبكة من الصواريخ ذات الإطلاق الآلى، وهذه لا بد من تعطيلها يدويًا، وقد توصل الإيرانيون إلى من يمكنه عمل ذلك.

يومها طلبت منه أن أرى الرجال وأشد من أزرهم، فقال: هل تريدهم هنا أم تذهب إليهم. قلت: رجال كهؤلاء ليس للمرء إلا أن يذهب فيمسح بالعطر على أقدامهم. قال: لا يجدر بك أن تفعل، لأنهم يرونك المهدى الذى جاء ليخلص الإسلام مما لحق به من هوان. فتعجبت من حيل قصير القامة، وأدركت كم أصبحت ألعوبة فى يديه. اخترقنا الجبال

والحدود إلى إيران، واتخذنا طائرة إلى شنغهاى، ومنها إلى حيث الصحراء التى يعسكر فيها أكثر من ثلاثمائة رجل، ليس بينهم سوى خمسين شابًا عربيًا، صافحتهم جميعًا وقبلت رءوسهم، وأعطيت كلاً منهم مصحفًا، ثم صليت بهم ركعتى شكر لله، كبرت فى بدء كل منهما عشر مرات، ثم خطبت فيهم عن ضرورة الجهاد، وفرحة الله بعبده التائب، ومقام الشهداء فى أهل الجنة، ثم قلت: اعلموا أن الله اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفر الله لكم، وها هى بدركم الثانية، وها هو الله يطلع عليكم، فاعملوا ما شئتم فقد غفر الله لكم ما تقدم وما تأخر. فهللوا وكبروا فرحًا، فاحتضنتهم جميعًا ودعوت لهم بالنصر.. متخذا طريقى إلى قندهار.



(٥٩)

الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه، الحمد لله وحسبنا الله ونعم الوكيل. كان الحزن واليأس يضغطان على صدر الشيخ وهو يجمع أشياءه من الكهف، فقد أوضح له عليٌّ ما قام به الصباح من استنساخ لرجل يشبهه فى كل شيء، ولا بد أنه الآن يساوم جهة ما لتسليمه إليها، ولم تفارقه صورة صدام حسين والأمريكان يفحصونه كبهيمة مصابة بأمراض خبيثة، فالطريق طويل ولا أمان فيه لأحد على شاب فى مقتبل عمره وعجوز ما زال الأعلى ثمنًا بين المطلوبين للقبض عليهم، ورغم أن محبيه أكثر من كارهيه فإن قلوب القوم معه وسيوفهم عليه. تذكر حين طلب صدام أن يطلقوا عليه الرصاص كمحارب فى الميدان لكنهم أصروا على أن يعدموه شنقًا صباح عيد الأضحى. كان قد اتهمه بالجنون يوم أن دخل الكويت غصبًا، وخرج فى شوارع المملكة يحذر

الناس من خطره، لكنه ارتعد أكثر من نزول الأمريكان إلى الأرض التى حرمها الله عليهم، تذكر رسالته الطويلة لولى العهد، وكم أبدى أنه برجاله قادرون على الدفاع عن المملكة وإخراجه من الكويت، لكنهم أبوا إلا أن يلوثوا حرم الله وبيته، تذكر كم كان حانقًا عليه وعليهم، لكنه ما كان ليعامله على هذا النحو، فما إن رآه يتأرجح على مشنقته حتى انتفض مرددًا: فلا نامت أعين الجبناء، فلا نامت أعين الجبناء. ولم يوقف انتفاضة جسده غير المهدئ الذى أدخله فى هلاوس وهذيان لعدة أيام، حين هدأت حالته وعاد إلى رشده سأله علىّ عن بكائه طاغية كهذا، فطأطأ رأسه ومسح عبرة من عينيه: ما كان يجب لخصم وقف أمام العالم وانهزم هزيمة الأبطال دون تخاذل أو تراجع أو خوف أن يموت هكذا كالبعير، فليس للأبطال أن يموتوا ميتة اللصوص، نعم أخطأ، لكن كم حمل التاريخ لنا من خطائين، وكم منهم كان شجاعًا لنسلبه حق الإيمان بخطئه. ثم انفرط فى بكائه قائلا: إننا الآن نمشى إلى هذا المصير، نذهب مرغمين إلى عدو وألف ابتسامة تخفى خلفها فوهة بندقية، فهل سيجتزون رأسينا كالزبير، أم سيغرقنا أصحابنا كشبيب، أم أننا حين نخرج من باب الكهف سنجدنا محاطين كالمختار بن أبى عبيد الله بعشرة آلاف فارس، فهل نحارب حتى الموت كما مات، أم نسلم أنفسنا كما سلم سبعون ألفًا من رجاله أنفسهم لمصعب، فقتلهم كما لو أنه يقتل شياه أبيه، أم سنصرخ كعنبسة فى

جند لا وجود لهم، أم نموت غريبين كأبى ذر، شريدين كزين العابدين، جائعين كإبراهيم الإمام، معلقين على رءوس الحراب كزيد بن على.. فما الذى فعلت كى أجلب لصبى مثلك كل هذا العذاب؟!

كانت أسئلة الشيخ تتوالى كالرصاص على أذنى الفتى، ومع كل سؤال كان يرى مشهد الموت بطريقة مختلفة، فظل جاثمًا فى زاوية الكهف حتى رأى الشيخ يترنح باكيًا، فانتفض كالسهم ليمسكه قبل أن يقع: هل عاودك التاريخ يا سيدى من جديد؟ سأله بفزع الخائف من المجهول، لكن الشيخ مسح دموعه قائلا: كلا يا علىّ، لكنه الحزن، فلم يعد لى من الرجال سواك، كلهم كما ترى اختفوا منذ أيام، وأصحابى الأشداء الذين وثقت بهم استشهدوا، وأنا صرت عجوزًا هرمًا لا يقدر حتى على إنقاذ نفسه من الحزن عليهم، كثيرون هم يا بنى، أكثر مما يحتمل قلبى، كم كنت أحلم بتكريمهم، أو على الأقل دفنهم كما يجب لأبطال مجاهدين، لكنها الحرب خلفها العار الطويل والحزن، وهذه لم تكن حربًا، كانت الجحيم، وكأن طائراتهم العملاقة لم تر سوانا فى الوجود، فلا مخابئ تفلح معها، ولا كهوف ولا جبال، كأن قيامتنا وحدنا قامت، فهل خدعنا يا صاحبى، واكتفى الحقراء بمشهد لا يفرح إلا صبيًا، برجان كبيران يسقطان ولا شيء أكثر، فما الذى جعل طائرة البنتاجون تنزل كحمامة أتت لتستريح على مدرجاته؟ وأين ذهبت طائرة بنسلفانيا؟ أين

اختفت خمسون طائرة أصيبت بالجنون فجأة وقررت أن تسقط أمريكا على من فيها؟ وأين حلفاؤنا، ولم أدانونا قبل غيرهم، ولم لم يثأر الرخ الأمريكى إلا منا، رأسى ستنفجر يا على، وتبريرات الصباح بخيانة اليهود لا تجدى، فهل مات البنشيرى فى أعلى النيل خطأ، ومات صهيب جراء هاتفه الخلوى، وكيف اختفى العباس ومجد، ولم تركنا الرجال فى هذا الكهف المظلم دون طعام أو حراسة، هل نحن ما زلنا أحياء، أم أننى أهذى فى يوم الحساب؟

لم يكن أمام على سوى الصراخ ولطم خديه كى يوقف الشيخ عن إطلاق الرصاص على نفسه، حينها انتبه الرجل إلى ما هو مقدم عليه، فألقى السلاح من يده وراح يبكى. وفى الجفون المخضبة بالدمع لاح وجه أبى سعيد مشرقًا "أفطر معنا غدًا يا عثمان"، فتهلل وجهه بالفرح، واستدار يبحث عن علىّ فرآه يبكى فى زاوية الكهف، فانحنى عليه مهدهدًا مبتسمًا: هل يبكى جواز المرور إلى الجنة، قم يا أبا تراب، فما أنت إلا شيخى وأنا مريدك، فإلى أين الرحيل؟

* * *

تمت

القاهرة

٢٨ سبتمبر ٢٠٠٨

عن المؤلف

صبحى موسى

- شاعر وروائى مصرى.
- يعمل محرراً ثقافيًا بمكتب جريدة "القبس" الكويتية بالقاهرة من ١/ ٨ / ١٩٩٧ حتى الآن.
- يعمل مراسلا لجريدة "الحياة" اللندنية منذ ١٩٩٨ حتى الآن.
- عمل مديراً لتحرير سلسلة "أصوات أدبية" التى تصدرها هيئة قصور الثقافة من ٢٠٠١ حتى ٢٠٠٤.
- يعمل مشرفاً عاماً على النشر بالهيئة العامة لقصور الثقافة منذ مايو ٢٠١١ وحتى الآن.
- حصل على منحة التفرغ من وزارة الثقافة المصرية لثلاثة أعوام، أنجز خلالها رواية "أساطير رجل الثلاثاء".

- حصل على الجائزة المركزية التى تمنحها قصور الثقافة عام ٢٠٠١ عن روايته الأولى "صمت الكهنة".

صدر له

- يرفرف بجانبها وحده"، شعر، ١٩٩٨، على نفقته الخاصة.
- قصائد الغرفة المغلقة"، شعر، ٢٠٠٠، هيئة قصور الثقافة/ إبداعات.
- "هانيبال"، شعر، ٢٠٠٢، الهيئة العامة للكتاب/ كتابات جديدة.
- "صمت الكهنة"، رواية، ٢٠٠٢، هيئة قصور الثقافة/ أصوات أدبية.
- "حمامة بيضاء"، رواية، ٢٠٠٥، ميريت للنشر.
- "لهذا أرحل"، شعر، ٢٠٠٦، الدار للطباعة والنشر.
- "المؤلف"، رواية، ٢٠٠٨، الدار للطباعة والنشر.
- "فى وداع المحبة"، شعر، ٢٠١٠، الحضارة للنشر.

الفهرس

منافذ بيع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة

٢٥٧٧٥٠٠٠

ت : ٢٥٧٧٥٢٢٨ داخلى ١٩٤

٢٥٧٧٥١٠٩

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة

خلف كلية الإعلام - بالحرم الجامعى

بالجامعة - الجيزة

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة

مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (أ) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقًا - المحلة

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتب بريد المجمع الحكومى - توزيع

دمنهور الجديدة

مكتبة المنصورة

٥ ش السكة الجديدة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية

مكتبة طلعت سلامة للصحافة والإعلام

ميدان التحرير - الزقازيق

ت : ٠٥٥٢٣٦٢٧١٠ - ٠١٠٦٥٣٣٧٣٣٢

مكتبــات ووكـــلاء

البيع بالدول العربية

لبنان

١ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
شارع صيدنايا المصيطبة - بناية الدوحة- بيروت - ت: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣
ص. ب : ٩١١٣ - ١١ بيروت - لبنان

٢ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
بيـروت - الفـرع الجـديد - شـارع الصيدانى - الحمراء - رأس بيروت - بناية سنتر ماربيا
ص. ب : ١١٣/٥٧٥٢
فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

سـوريا

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع - سوريا - دمشق - شارع كرجيه حداد - المتفرع من شارع ٢٩ أيار - ص. ب: ٧٣٦٦ - الجمهورية العربية السورية

تونـس

المكتبة الحديثة - ٤ شارع الطاهر صفر- ٤٠٠٠ سوسة - الجمهورية التونسية .

المملكة العربية السعودية

١ - مـؤسسة العبيكان - الرياض (ص. ب: ٦٢٨٠٧) رمز ١١٥٩٥ - تقاطع طريق الملك فهد مع طريق العروبة - هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ - ٤١٦٠٠١٨ .

٢ - شركة كنوز المعرفة للمطبوعات والأدوات الكتابية - جدة - الشرفية - شارع الستين - ص. ب: ٣٠٧٤٦ جدة : ٢١٤٨٧ - ت : المكتب: ٦٥٧٠٧٢٢ - ٦٥١٠٤٢١ - ٦٥١٤٢٢٢ - ٦٥٧٠٦٢٨.

٣ - مكتبة الرشد للنشر والتوزيع - الرياض - المملكة العربية السعودية - ص. ب: ١٧٥٢٢ الرياض: ١١٤٩٤ - ت: ٤٥٩٣٤٥١.

٤ - مـؤسسة عبد الرحمن السديرى الخيرية - الجوف - المملكة العربية السعودية - دار الجوف للعلوم ص. ب: ٤٥٨ الجوف - هاتف: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠ فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٧٨٠

الأردن - عمان

١ - دار الشروق للنشر والتوزيع
ت: ٤٦١٨١٩٠ - ٤٦١٨١٩١
فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

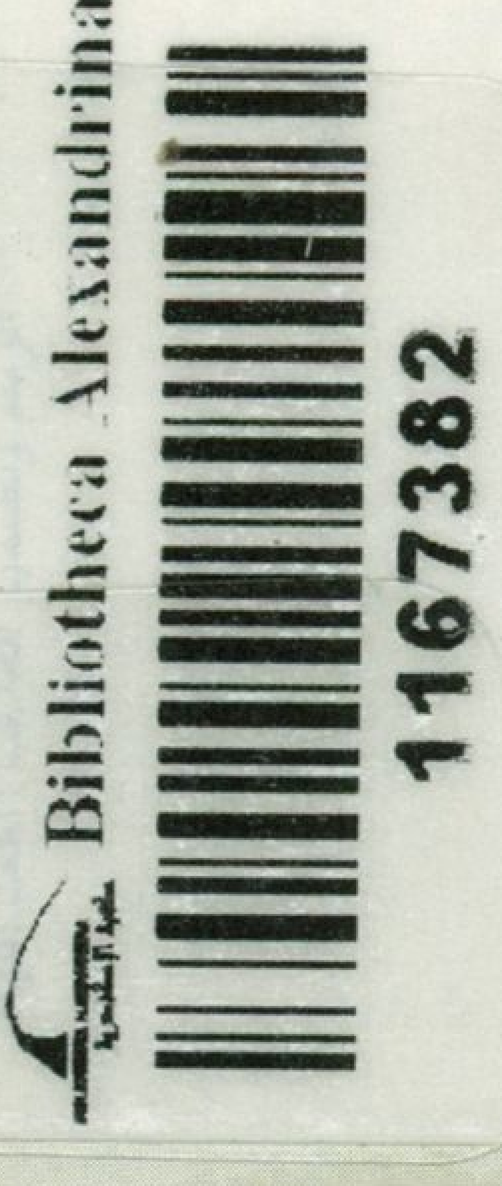
٢ - دار اليازورى العلمية للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
ت: ٩٦٢٦٤٦٢٦٦٢٦ +
تلفاكس: ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥ +
ص. ب: ٥٢٠٦٤٦ - عمان: ١١١٥٢ الأردن.

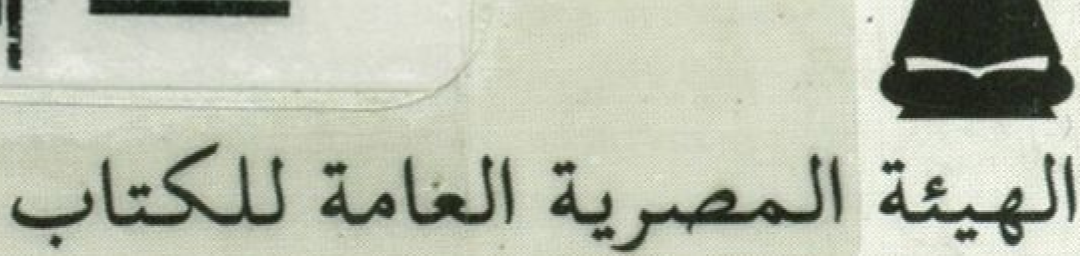
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

سلسلة كتابات جديدة

صبحى موسى الذى أصدر أربعة دواوين من قبل: «يرفرف بجانبها وحيدا» و«قصائد الغرفة و«لهذا أرحل» ليصدر «صمت الكهنة» و«حمامة بيضاء»، يدخل بنا فى هذه الرواية المثيرة إلى عالم خطر فعلا، وبين التحليل والتأمل يضعنا أمام تجربة الإسلام السياسى بكافة تفاصيله على المستوى العالمى، من خلال التعرض للزعماء مثل بن لادن والظواهرى، وفى طيّات الرواية شخصيات كثيرة يكشف عنها النقاب، من خلال مذكرات ووثائق وتحليلات، فالجهد الذى بذله الكاتب فى الحصول على المعلومات، لا يقل عن الجهد الفنى الذى جاءت به الرواية، وتنساب الأخبار والأرقام والمدن العديدة التى كانت مسرحا لظاهرة الإسلام السياسى بسهولة ويسر وفن، ورغم نعومة الكتابة إلا أنها رواية تعالج أحداثا وشخصيلا خشنة بكل المعانى.

شعبان يوسف




الهيئة المصرية العامة للكتاب



١٥ جنيهاً